وزارة التربية والتعليم
بالإشتراك مـع
الجـامعـات المصـرية
برنامـج
تأهيل معلمى المرحلة الإبتدائية
للمستوى الجامعى

رقم المقرر ٤١٢ جـ

تاريـــخ
مصر الحديـــث والمعاصر
المستوى الرابع

تأليـــف

دكتور رافت غنيمى الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وعميد كلية الآداب – جامعة الزقازيق

دكتور عبد الغفار محمد حسين
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية جامعة طنطا

دكتور محمد رفعت عبد العزيز
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية جامعة عين شمس

١٤٠٧ هـ
١٩٨٦–١٩٨٧

" بسم الله الرحمن الرحيم "

مقدمـــــــة

مرت مصر فى تاريخها الحديث بفترات من القوة وفترات من الضعف ، كما مرت بفترات من الاستقلال وفترات من الاحتلال ، وفترات من الأزدهار وفترات من الاضمحلال ، وهى فى هذا تمر بالتعاقب الدورى الذى وصفه العلامة عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته المشهورة بأن لكل حضارة أو دولة دورات متعاقبة من البداوة أو البداية إلى التحضر إلى التدهور والأنهيار . .

وعلى هذا نجد أن مصر عاشت فى ظل الحكم العثمانى المملوكى فى الفترة من عام ١٥١٧ م إلى عام ١٧٩٨ م باعتبارها درة الممتلكات العثمانية رغم ماشاب هذا الحكم من سلبيات أثرت فى تأخير مصر وتخلفها عن أوروبا رغم ماتميزت به مصر منذ القدم بالتقدم الحضارى والأزدهار العمرانى والعمران البشرى . .

وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م واجهتها جموع الشعب المصرى بالعداء دفاعا عن الاسلام والوطن وبرز زعماء مصريون قادوا الثورات المتتالية ضد الوجود الفرنسى حتى إنتهى هذا الوجود برحيل الفرنسيين عن مصر فى عام ١٨٠١ م ، تاركين آثارا حضارية انبهر لها المصريون وتأثروا بها . .

وعندما خطط محمد على للاستيلاء على السلطة فى مصر بعد رحيل الفرنسيين عن مصر اعتمد على القوى المتواجدة فى مصر والمؤثرة فى الموقف وعلى رأسها الزعماء الوطنيين من علماء الأزهر الشريف والتجار والأعيان الذين سعوا لدى السلطان العثمانى بالرسل والهدايا حتى أصدر فرمانه لمحمد على بولاية مصر . .

وأنطلق محمد على يبنى مصر بناءا حديثا ليصبح واليا لدولة كبيرة ومتقدمة حضاريا على غرار الدول الأوروبية ، ولذلك إهتم ببناء جيش حديث وقوى ، ووضع مشروعات زراعية**وصناعية** وتجارية منظمة تنظيما حديثا على النسق الأوروبى ، وأنشأ المدارس الحديثة بمراحلها المختلفة على غرار التعليم الأوروبى ، واعتمد فى سبيل ذلك على الانفتاح الحضارى مع الدول الأوروبية سواء بأرسال البعوث أو بأستقدام العلماء والمستشرقين أو بترجمة الكتب والمؤلفات فى العلوم الحديثة المستخدمة فى المدارس الأوروبية الحديثة . .

وتطلع محمد على إلى التوسع الخارجى لبناء كتلة عربية فكان ضم الحجاز عام ١٨١١ م والتواجد فى نجد حتى ساحل الخليج العربى ، وتحقيق وحدة وادى النيل

بفتح السودان عام ١٨٢٠ م وفتح بلاد الشام عام ١٨٣٣ م ، والمشاركة فى حرب المورة عام ١٨٢٧ م حتى اضطر إلى التخلى عن كل هذه الكتلة التى ضمها فيما عدا مصر والسودان بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م بسبب تآمر بريطانيا وسعيها لعدم إقامة دولة كبرى فى هذه المنطقة ..

ويمكن اعتبار معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م أنها فرضت الوصاية الدولية على مصر منذ ذلك التاريخ بحيث لايستطيع حاكم مصر من أسرة محمد على التوسع خارج الحدود التى حددتها له المعاهدة ولايعلن إستقلال مصر عن الدولة العثمانية دون موافقة الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا ، كما لا يمكن للسلطان العثمانى التدخل فى شئون مصر الداخلية أو عزل الباشا حاكم مصر دون الرجوع إلى الدول الأوروبية . .

ومنذ هذا التاريخ بدأ التدخل الأجنبى فى شئون مصر ، ومن ثم حرص ولاة مصر بعد محمد على على استرضاء الدول الأوروبية فكان مشروع قناة السويس لكسب ود فرنسا وكان مشروع انشاء خط حديدى يربط بين القاهرة وكل من الأسكندرية والسويس لأرضاء بريطانيا ثم كانت مشروعات الخديوى إسماعيل لتحديث مصر والتوسع فى أفريقيا سببا لزيادة ديون مصر وبالتالى زيادة التدخل الأجنبى فى شئون مصر الذى كان أهم أسباب الثورة العرابية ١٨٨١ م .

واذا كانت الثورة العرابية قد انتهت بالأحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م ، فان هذه الثورة كانت أول حركة وطنية حديثة تلتها حركة مصطفى كامل ورفيقه محمد فريد ، ثم ثورة ١٩١٩ م الثورة الشعبية التى نتج عنها تأكيد زعامة سعد زغلول رئيس حزب الوفد كما نتج عنها إعتراف انجلترا بأستقلال مصر بموجب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م ..

وخلال الفترة من عام ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢ م عاشت مصر مرحلة صراع بين القوى الوطنية من ناحية وبين النفوذ البريطانى فى مصر من ناحية أخرى من أجل جلاء قوات الاحتلال البريطانى عن مصر واستكمال استقلال مصر ، وقد طال الصراع بسبب مؤامرات الانجليز والملك فؤاد ثم الملك فاروق للوقيعة بين الزعماء السياسيين قادة الحركة الوطنية المصرية . .

ثم كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م التى نفضل أن نسميها انقلابا عسكريا فى البداية تحول إلى ثورة بمعناها العلمى بعد أن أصبح لها أهداف واضحة وفلسفة محددة . ولم تكن هذه الثورة مفاجئة بسبب مقدماتها التى ترجع إلى عشرات السنين قبلها منذ الاحتلال البريطانى لمصر ، وكان لها سياستها الداخلية والخارجية على المستويات العربية والأفريقية والعالمية . .

ونتيجة لان ثورة ١٩٥٢ م فى مصر كانت ثورة رائدة فى المنطقة العربية تحالفت عليها القوى المعادية فى الداخل فى المنطقة العربية وفى خارجها ، ومن ثم دخلت مصر عدة حروب عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٢ فى اليمن وعام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ م . .

وقد شارك فى تأليف هذا الكتاب كل من الأستاذ الدكتور رأفت غنيمى الشيخ والدكتور محمد رفعت عبد العزيز بكتابة الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس ، وشارك الأستاذ الدكتور عبد الغفار حسين بكتابة الفصلين الأول والثانى . .

والله نسأل التوفيق وعلى الله قصد السبيل ،،،

المؤلفون

✓

الفصل الأول

مصر قبل محمد على

أولاً : أحوال مصر فى القرن الثامن عشر
- الحكم العثمانى المملوكى
- حركة على بك الكبير
- مراد بك وابراهيم بك
- الأحوال الاجتماعية والاقتصادية

ثانيا : الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١ م :
- ظروف قيام الحملة
- قيام الحملة
- الاستيلاء على مصر
- الفرنسيون فى مصر
  - أ - تتبع قوات المماليك
  - ب - معركة النيل أو أبوقير البحرية
  - حـ - ثورة القاهرة الأولى
- الحملة الفرنسية على الشام
- كليبر والحملة الفرنسية
- مينو والحملة الفرنسية
- نتائج الحملة

أولا : أحوال مصر فى القرن الثامن عشر

كان أساس الحكم العثمانى أو أساس الأدارة العثمانية فى مصر قانونان : -

الأول : هو ما وضعه السلطان سليم الأول سنه ١٥١٧ وسماه (ترتيب الديار المصرية) وهو عبارة عن مجموعة من القواعد العامة تحدد اختصاصات الأجهزة والدوائر واللجان المختلفة .

والثانى : جاء على يد خليفته السلطان سليمان القانونى وسمى (قانون نامة سليمان) ، (قانون نامة أى القانون المنظم للحكم) السلطان سليمان اشتهر بكثرة قوانينه فأطلق عليه سليمان المشرع .

فكانت الدولة المملوكية فى مصر عندما سقطت فى يد العثمانيين قد شاخت وضعفت ، والسلطان سليم عندما فتح مصر أراد الأبقاء على الحالة كما كانت بشكل عام مع ضمان السيادة العثمانية ، فمصر كانت تعتبر فى نظر السلطنة أهم ولاية فى الشرق العربى وتأتى مباشرة بعد ولاية المجر فولاية مصر كانت تمد السلطنة بنفقات الحرمين فى مكة والمدينة وعلاقة مصر بالحجاز كانت قدمية ، ومصر أيضا كانت تخرج منها التجريدات العسكرية المختلفة لتثبيت وتأكيد النفوذ العثمانى فى بلاد العرب سواء فى الحجاز أو فى اليمن وكذلك جنوب بلاد الشام أى فلسطين .

إذن مصر هى الولاية وهى المركز الذى اعتمدت عليه السلطنه العثمانية فى تثبيت نفوذها فى هذه المناطق ، ومن مصر كذلك كان يطل السلطان العثمانى على البحر الأحمر وما يجرى فيه من أحداث محلية كانت أو عالمية وخاصة محاولات الدول الأوربية **ولا سيما البرتغال فى اقتحام البحر الأحمر ومحاولة الاستيلاء على عون . لهذا كله كان اهتمام السلطنه العثمانية بمصر ، وعلى هذا كان هناك أساسان استندت إليهما القوانين العثمانية الأول هو الرجعية فكل النظم الحكومية كانت توجه توجيها مباشرا إلى الأبقاء على الحالة كما كانت قبل الفتح العثمانى والثانى هو عدم العنف والشدة وعدم إرهاق الطوائف المنتجة من أهل الزراعة والتجارة والصناعة بالضرائب كما كان يفعل المماليك .**

ثم أن العثمانيين قبلوا بصفة عامة التقسيم الأجتماعى الذى كانت تعيش عليه مصر فالمجتمع كان مقسما الى طبقات . طبقة رجال السيف وطبقة رجال العلم وطبقة التجار وأصحاب الحرف وأهل الذمة والعبيد ، ولكل طائفة عملها وعلمها وحقوقها وهذا العمل وهذه الحقوق لاتتعارض مع عمل وحقوق بقية الطبقات .

وبصفه عامة كان نظام الحكم العثمانى يرجع إلى حقيقة هامة ذات أصل فارسى أكدتها تجربة الحكم العثمانى خلال القرنين ١٦ ، ١٧ وهى عدم الثقة فى ممثلى الدولة

والخوف من أطماعهم الشخصية ، ومن هذه الحقيقة نشأت سياسة توازن القوى داخل الولاية وكان الأصل أن ينوب عن السلطان فى حكم مصر الباشا أو الوالى ويطلق عليه والى مصر ، أو محافظ أو حافظ مصر المحروسة وحضرت وزير روشن ضمير أى الضمير المنير ، ولذلك كان الباشا يجمع فى يده السلطة العسكرية والمدنية العليا ، كما كان مسئولا عن أمن الولاية ونظامها الداخلى ، وعن جمع الضرائب ، وللحد من سلطانه وعدم الثقة فيه كان محاطا دائما بجواسيس السلطة وعيون السلطان .

وفى القرن ١٨ وللحد من سلطته أيضا جعلت الدولة تعيينه لسنة واحدة حتى لاتكون لديه فسحة من الوقت ليحقق أطماعه الشخصية .

وانشأت الدولة أيضا قوى أخرى تشارك الباشا أختصاصه وتحد من سلطته ، فحسابات مالية مصر كانت فى يد الدفتردار ويعين بفرمان من السلطان وبقية نواحى الادارة كانت توضع فى يد الكتخدا وهو وكيل الباشا العثمانى ويعين أيضا من قبل السلطان لسنة واحدة .

ومع أن الوالى كان يملك من وجهة النظر الأسلامية البحته السلطة القضائية بأعتباره ممثل السلطان إلا أن القضاة ورجال الدين كان لهم الحق فى إرسال احتجاجات وتقارير مباشرة إلى استانبول وأصبح الوالى يقيم حسابا لهذه التقارير .

على أن اهم القوى التى كانت موجودة فى مصر هى الحامية العثمانية أو كما كان يطلق عليها الأوجاقات ، وكان عددها يتراوح بين ١٢ ، ١٥ ألف وهذه الحاميات كانت تضم سبع أوجاقات هى (متفرقة ، وجاويشان ، وجونللويان ، وتمنكجيان ، وعزبان ، وانكشارية ، وجراكسة وكانت الأنكشارية تسمى نتشرى وأحيانا تنكجرية .

وكان رئيس الأوجاق يسمى الأغاولة نائب وهو الكتخدا ثم الدفتردار الذى كان يتولى حسابات الأوجاق ويليهم كبار الضباط ويطلق عليهم الأختيارية ورئيسهم يطلق عليه باش اختيار (رئيس القدماء) ثم يلى هؤلاء الضباط الصغار يطلق عليهم الجوركية ، اما الجنود وأفراد الحامية فهم واجب رعايا [١] .

وكانت سلطة الباشا على الأوجاقات محدودة للغاية فتعيين الرتب الكبيرة يأتى من استانبول وكان يحد من سلطة الباشا أيضا أن قانون سليمان حدد لكل أوجاق اختصاص معين فبعضها كان يحفظ القلاع وبعضها كان يحصل الأموال الأميرية من الملتزمين ويوردها إلى خزينة الرزنامة وبعضها كان يشرف على حفظ النظام فى القاهرة والأقاليم ويحافظ على الجسور ويساعد الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين وكانت الأنكشارية هى حرس الوالى تساعده فى تنفيذ القانون ولها رقابة عليه ، وفيها كبار أصحاب المناصب مثل الكتخدا سردار الحج أى قائد القوة المصلحية لناقلة الحج

(١) عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ الجزء الأول ، ص ١-٦٥ دار الفارس ببيروت سنه

لحمايتها من العربان . وسردار الخزنه ، وكان أوجاق عزبان هو أوجاق البحرية فمنه بحارة ترسانة الأسكندرية والسويس ومنه أمير البحر وكذلك كان للأوجاقات اختصاصات بوليسية إذ تتألف منهم مراكز البوليس فى القاهرة .

أما الديوان فكان يتألف من قواد الحاميات وكبار المشايخ وكبار الأعيان ويجتمع مرة كل أسبوع ليقرر ما يتعلق بالسياسة الادارية ، ويرأس اجتماعاته كتخدا الباشا وأطلق على هذا الديوان ديوان محروسة مصر ، وديوان حضرت ولى النعم والى مصر ، وكان الباشا يحضر اجتماعاته من وراء ستار على طريقة السلطنة العثمانية ، وكانت الأوجاقات دون شك أقوى بأسا وأشد خطرا من جمع القوى السياسية الأخرى حتى منتصف القرن ١٨ ، والى جانبهم كانت هيئة المماليك او البكوات المماليك من صناجق وكشاف ، فالسلطان سليم عفا عنهم بعد فتح مصر فقد أراد أن ينتفع بخبرتهم وليجعل منهم عنصرا من عناصر الموازنة مع الباشا العثمانى ، وعنصرا من عناصر الحد من سلطته ، وكانت تتكون منهم هيئة صناجق مصر أو جماعة أمراء محافظى مصر المحروسة ، ولم يكن عددهم ثابتا على الدوام وأن كان نحو ٢٤ صنجقا بصفة عامة . وكلهم كان برتبة بك وكان المعتاد أن يعين السلطان من قبله أربعا من الصناجق للأشتراك فى الحكم مع المماليك . فى الاسكندرية ودمياط والسويس وكتخدا الباشا أما العشرون الآخرون فكانوا من المماليك يعينهم الباشا بموافقة السلطان .

وكان أهم منصب لأمراء المماليك هو منصب شيخ البلد وكان بمثابة حاكم القاهرة وثانى شخصية فى مصر بعد الباشا ثم أصبح الشخصية الأولى فى أواخر القرن ١٨ حين طغت سلطة المماليك على سلطة الباشا العثمانى وسلطة الأوجاقات نفسها . وكان عمل الصناجق ينحصر فى الأشراف على الزراعة وإقامة الجسور ومنع العربات من العبث بممتلكات الفلاحين وزراعاتهم ، ونشر العدل ، والأشراف على عمل الكشاف .

وفى القرن الثامن عشر اخذ هذا النظام ينهار وذلك لانهيار نظام الأوجاقات لأن الأدارة أصلا كانت مبنية على نظام الاوجاقات ، كما انهار النظام الاقتصادى لان العثمانيين لم يهتموا بنظام الزراعة .

وانحلال نظام الأوجاقات وضعفه يرجع إلى عوامل متعددة .

١ – منها ضعف نفوذ السلطنة العثمانية نفسها وضعفها يؤدى بالطبع إلى ضعف ولاياتها .

٢ – ومنها عجز الدولة عن دفع مرتبات أفراد الحاميات حتى أضطروا إلى الأنخراط فى سلك طوائف الحرف ليجدوا لأنفسهم مصدرا آخر للرزق مع بقائهم كأجناد فى الحاميات .

٣ - ومنها زواج أفراد الحاميات بالمصريات فبعدوا عن نظام العسكرية الجاد وخرجوا إلى نطاق الحياة العامة ، بل أن بعضهم كان يبيع حقوقه الممثلة فى الواجبات أو المستحقات من جراية ومرتب إلى بعض أصحاب الحرف . فأدى هذا إلى دخول كثير من المدنيين فى دفاتر الأوجاقات والى أعتبارهم أفرادها .

اما هيئة المماليك فقد أحتفظت بقوتها وشخصيتها المستقلة لأن طبيعة النظام المملوكى نفسه من حيث أنه يقوم على جلب وشراء أفراد من الخارج لاصله لهم بالمجتمع المصرى والحياة المصرية ويربون تربية خاصة ، وهذا النظام جعله نظاما مغلقا امام افراد المجتمع مما ادى إلى أحتفاظ هيئة المماليك بكيانها المستقل ، فلما انتهى نظام الأوجاقات إلى انحلال أخذت هيئة المماليك تستأثر بالسلطة حتى طغت سلطة كبيرها اى سلطة شيخ البلد على سلطة الباشا العثمانى ثم طغت سلطة الصناجق والكشاف على سلطة قواد الحاميات خارج القاهرة .

ثم أن انحلال نظام الاوجاقات أدى إلى اختلال النظام الزراعى ذلك أن هذا النظام كان قائما على أساس ربط أرزاق الأجناد على الأموال الأميرية وهى بدورها مربوطة على الأطيان وأنهيار نظام الأوجاقات أدى إلى تصدع النظام الزراعى برمته ثم أن ازدياد نفوذ المماليك وثرائهم على نطاق واسع تطلب البحث عن المال والحاجة إلى المال دفعتهم إلى زيادة الضرائب والخروج على القواعد المعمول بها ودفعتهم الى الاغتصاب وكل ذلك أدى إلى ازدياد سوء الحالة الأقتصادية وانهيار الحالة الأقتصادية أدى الى تعرض البناء الأجتماعى فى مصر نفسه للأنهيار .

وكانت الأزمة المالية التى شهدتها مصر فى القرن ١٨ تبدأ بالسنوات السبع من مشيخة ابراهيم بك ورضوان بك من ١٧٤٧ - ١٧٥٤ م ، ثم أن ازدياد نفوذ شيخ البلد كان من شأنه خروجه إلى مشاريع واسعه أدت بدورها إلى زيادة الضرائب وزيادة المغارم وكل ذلك أدى إلى سوء الحالة الاقتصادية ثم أنهيار النظام الزراعى بل انهيار النظام الأجتماعى .

الغريب أن الدولة العثمانية كان لها تقليد فى حكم ولاياتها يتمثل فى أنه طالما أن القواعد الأساسية فى التبعية للسلطنة كالخزانه والخطبة وصك النقود ظلت مرعية فلا خوف إذن على الولاية وإذاً فقد غضت السلطنة الطرف مؤقتا عن انهيار نفوذها فى مصر إلى أن تحين الفرصة المناسبة للتدخل المسلح وأعادة الأوضاع إلى ماكانت عليه ، ثم أن الدولة العثمانية كان بيدها بعض الوسائل التى تضمن بها ولاء مصر وولاء الرعية منها الولاء الدينى ومنها استطاعتها غلق أسواق الرقيق فى البحر الأسود والقوقاز فى وجه المماليك ثم منها فى آخر الأمر ارسال حملات عسكرية تأديبية حتى تسنح الفرصة .

وأنهيار نظام الاوجاقات هو الذى أدى الى ازدياد نفوذ المماليك ثم مهد لحركة على بك الكبير.[1]

حركة على بك الكبير

تعتبر حركة على بك مظهرا من مظاهر انهيار النفوذ العثمانى فى مصر ، وهى فى نفس الوقت مظهر من مظاهر التنافس المرير بين البكوات المماليك أو بمعنى آخر بين البيوت المملوكية ولاسيما فى القرن ١٨٠ فانه فى الحقيقة أن انحلال النفوذ العثمانى لم يؤد إلى وحده البكوات المماليك بل على العكس أدى بهم إلى الفرقة والى المنافسة بينهم حول المناصب الهامة سواء فى الجيش أو الأدارة وهذا التنافس يبدأ فى مستهل القرن الثامن عشر بين بيتى الفقارية والقاسمية .

بدأ على بك يقوى مركزه فاتبع سياسة اقتناء المماليك ، وتجنيد المغاربة والمرتزقة مع ترقية أتباعة وتأليف قلوب انصاره من حوله فى نفس الوقت وذلك بأسلوب الترغيب حينا وأسلوب الأرهاب حينا آخر . كما أنه اتبع نفس الأسلوب مع الباشا العثمانى والديوان والأوجاقات ، ولما شعر فى سنة ١٧٦٦ أنه قد بلغ القوة نفى عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز وكان أكبر منافس له فى منصب شيخ البلد ولكنه حين لم يستطع أن يتغلب على صالح بك وحسين بك قبل هو النفى إلى بلاد الشام سنه ١٧٦٧ ثم رجع لينفى مره أخرى إلى أسيوط وهناك اتيحت له فرصة التحالف مع صالح بك الذى كان منفيا هو الآخر وساعده فى ذلك الشيخ همام شيخ عرب الهوارة . وكان الاتفاق هو أن يصبح على بك شيخا للبلد ويصبح صالح بك حاكما على قبلى مدى الحياة . وهاجم الأثنان القاهرة وتخلصا من حسين بك شيخ البلد واعتمادا على صداقته بالباشا العثمانى تمكن على بك من التخلص من منافسية بالنفى[1] يرى البعض أن حركة على بك ليست سوى حركة شخصية هدفت إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية والحقيقة أن حركات التمرد كانت ذات طابع خاص فى الجزء الأسلامى من العالم العثمانى فهذه المنطقة كانت تعتبر نفسها جزءا لاينفصل عن العالم العثمانى ، والسلطان العثمانى فى نظر المسلمين فى ذلك الوقت كان يعتبر الحامى للعالم الأسلامى أمام الغرب المسيحى المعتدى . ولذا فأن على بك لم يكن يهدف إلى أكثر من أن يكون له ولمصر مركز ممتاز داخل العالم العثمانى فيصبح مستقلا بمصر ويبقى للسلطنة نفوذها الشكلى والأسمى .

(١) الجبرتى : الجزء الأول من ص ٣٠٦ ـ ٣٢٤ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٦٢

٦٠٠٠ مملوك وذلك فى الوقت الذى حرم فيه على أتباعه شراء أكثر من مملوك واحد أو أثنين وبعدها أخذ يعمل على التخلص من الأوجاقات فاستخدمها فى الحملات العسكرية التى كان يرسلها ضد أعدائه من البكوات المماليك حتى هلك كثير منهم ثم أبعد معظمهم بالنفى . كذلك احتال لتشتيت شمل الحاميات فحرمهم من مرتباتهم ستة أشهر متعللا بقلة المال ثم أعطاهم نصف مرتباتهم ليجعل الجندية أمرا لايطمع فيه . وأخيرا عين أنصاره قوادا لبعض الحاميات وخاصة الانكشارية وأتاح له هذا الوضع الفرصة للقضاء على الديوان وبعدها القبائل العربية التى كانت تهدد كيان المجتمع الاقتصادى والأجتماعى لمصر .

لم يبق أمام على بك بعد ذلك سوى الوالى فانتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع روسيا سنة ١٧٦٨ واستصدر من الديوان امرا بعزل الوالى العثمانى وتولى هو قائمقامية مصر عوضا عن الباشا وهكذا لم يبق من مظاهر السيادة العثمانية فى مصر سوى خطبة الجمعة والعملة والخزنة السنوية .[١]

وبعد انفراد على بك بالحكم فى مصر توجه نحو الفتوحات الخارجية وكانت أولى حملاته موجهة إلى الحجاز التى اتخذها ميدانا للنشاط وذلك ليتمكن من فتح البحر الأحمر للتجارة بين أوروبا والشرق فقد كان يفكر فى السماح للمراكب الأوربية ولاسيما الأنجليزية بالدخول إلى ميناء السويس حتى يحدث هذا رواجا اقتصاديا فى مصر ويزيد من دخلها ليتمكن من تنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية وكان يحرضه على ذلك رجل ايطالى من البندقية يدعى كارلوروزتى Carlo Rosetti ويسميه الجبرتى روشته .

ولم يكن على بك ينظر إلى الحجاز من وجهة فتح البحر الأحمر للتجارة فقط وانما كذلك لأنه المركز الدينى فى نظر المسلمين لاحتوائه على الحرمين الشريفين . وكان الحجاز منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ميدانا من ميادين الصراع بين البكوات المماليك فى مصر وبين الباشوات فى الشام باعتبار هؤلاء ممثلين للسلطنة العثمانية واستطاعت الحملة المصرية بقيادة أبى الذهب ان تخلع أحمد بن سيد من شرافة مكة وقد تمكن أبو الذهب من فتح جدة[٢]

وما كاد على بك ينتهى من فتح الحجاز حتى توجه بأنظاره نحو الشام وذلك لرغبته فى تأكيد سلطانه وتأمين حدوده الشمالية الشرقية ضد عدوان الدولة العثمانية وساعده على ذلك اضطراب الأوضاع فى بلاد الشام فقد كانت تعانى من فساد الحكم ممثلا فى سوء الأدارة وانتشار الرشوة والظلم وتعدى الجنود على أرواح الناس وممتلكاتهم وكان الشيخ ظاهر العمر الذى أصبح له النفوذ فى أيالة صيدا والذى تعرف على على بك سنه ١٧٦٦ حين نفى إلى فلسطين فلما استقر الأمر لعلى بك استعان به ظاهر العمر يطلب منه المساعدة ضد العثمانيين ، وأرسل على بك عدة حملات برية

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ - ص ٣٧٩ (٢) الجبرتى ، ص ٣٩٧ - ٣٩٩

وواحدة بحرية كان غرضها الحقيقى ليس الأشتباك مع عثمان باشا والى دمشق والذى كلفته الدولة العثمانية بالقضاء على الشيخ ظاهر وإنما كانت تهدف إلى جس النبض ودراسة الحالة فى الشام وتقدير قوات الدولة وسرعان ما تبين لعلى بك أنه فى حاجة إلى مدفعية للحصار ، وإلى مساعدة بحرية فعالة تخدم عملية سقوط الثغور الساحلية ولذا فقد اتجه إلى القسطنطينية بأيعاز من كارلوروزتى وربط مفاوضاته معها بوعود لفتح طريق البحر الأحمر التجارى ولكن البندقية أعتذرت عن مساعدته لأنها كانت قد ضعفت ولأنها كانت تتجنب الدخول فى مشاكل مع الدولة العثمانية التى استولت على الكثير من المراكز التجارية التى كانت تابعة لجمهورية البندقية مما أدى الى تدهورها . فاتجه على بك إلى روسيا يعرض عليها عقد محالفة معها .

وخرجت حملته بقيادة أبى الذهب سنه ١٧٧١ وتوجهت إلى غزة ثم الرملة حيث التقت بحمله صغيرة تمهيدية بقيادة اسماعيل بك وبعد الاستيلاء على الرملة وبيت المقدس ويافا اتجهت الحملة إلى عكا حيث عسكر أبو الذهب قربها انتظارا لأوامر على بك . وانتظارا لانضمام جيش الشيخ ظاهر إليه . وفى جنوب دمشق التقى مع جيش عثمان باشا وحلفائه وهزم عثمان باشا وفر شمالا إلى حمص فحاصر أبو الذهب دمشق التى فتحت أبوابها له .[١] .

ثم فوجئنا بأبن الذهب ينسحب بجيوشه وقد اختلف المؤرخون فى الأسباب التى دعته إلى هذا العمل المفاجىء فقيل أن اسماعيل بك هو الذى نصحه بعدم الدخول فى عداء مع الدولة العثمانية لأن هذا يعتبر خروجا على الدين وبعضهم يقول أنه كان يحرضه ضد الشيخ ظاهر الذى كان يتكبر عليه ، والبعض يرى أن ابو الذهب وجدها فرصة للخروج على سيده ليتولى مكانه . بينما يرى البعض الأخر أن أمير صره بلاد الشام هو الذى أقنعه بالكف عن عداء الدولة وهو يطلب له العفو من السلطان ، أما الجبرتى فانه يحكى أن أبا الذهب ورفاقه سئموا الأستمرار فى الحرب واتفقوا وتعاهدوا على الرجوع إلى القاهرة[٢] .

وعلى الرغم من أوامر على بك فأن محمد أبو الذهب رجع بسرعة حتى وصل إلى القاهرة وأمام على بك أتهم ظاهر العمر بأنه كان يسيىء معاملته ، فلما استفسر على بك من حليفه أرسل ابنه عثمان ليوقفه على حقيقة ما حدث فى بلاد الشام . وليبقى عنده كرهينه واستوثق على بك من كذب أبى الذهب فأمر بنفيه إلى الصعيد وأمتثل أبو الذهب وبدلا من أن يتفرغ لمناهضته فانه انصرف إلى الشام واكتفى بتعيين أيوب بك حاكما على جرجا ولكن أبو الذهب أغتاله وخلا له الجو فى الصعيد والتف حوله جميع العناصر المعارضة لعلى بك وعلى رأسها قبائل الهوارة وبدأ الصراع بين أبى الذهب وعلى بك ذلك الصراع الذى انتهى بهزيمة على بك فقد كانت قوة على بك قد انهكت فى

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٠٦

حروبه فى الشام ونصب له أبو الذهب فخا استدرجه فيه إلى مصر ، وفى الصالحية خانه المغاربة وانضموا إلى جيش أبو الذهب ودارت الدائرة على على بك .

أصبحت سياسة أبو الذهب لاتختلف عن سياسة على بك فعمل على إكمال محاولات فتح طريق البحر الأحمر ومصر أمام التجارة العالمية ووقع معاهدة مع السلطات البريطانية سنه ١٧٧٥ وأعطى فيها التجار الأنجليز الحق فى دخول المنطقة الحرام بين جدة والسويس كما أعطاهم حق التجارة فى أسواق مصر ، وتطلع كذلك إلى الأستيلاء على مشيخة الشيخ ظاهر العمر ولم يحل دون ذلك سوى وفاته .[١]

أرادت السلطنه العثمانية أحتواء أبى الذهب فرغبت فى ترقيته إلى منصب الولاية ليكون لها حق نقله وكان أبو الذهب يفهم هذا فأعتذر عن قبول منصب الباشوية وشكر للسلطان عطفه – ورجعت مصر إلى ما كانت عليه من التبعية للسلطان العثمانى وصدر فرمان بتعيين أبى الذهب شيخا للبلد وفرمان بتكليفه محاربة الشيخ ظاهر وتمكن أبو الذهب بمعونة المغاربة من جند الشيخ ظاهر الذين خانوه من فتح غزة ثم يافا كما لعب عثمان بن الشيخ ظاهر دورا فى معاونته ضد والده طمعا فى أن يحل محله فى ولاية صيدا واستطاع أبو الذهب أن يفتح يافا بعد مذبحة رهيبة ليرهب أهل عكا وفعلا قدمت وفود المسلمين والنصارى واليهود فيها تعلن خضوعها ولكن أبو الذهب توفى فجأة فى ٨ يولية سنة ١٧٧٥ قبل البدء فى مهاجمه المدينة .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٦ - ٤٠٩ ، من ص ٤١٥ - ٤١٦

(مراد وابراهيم)

وبعد وفاة أبى الذهب أقتسم مماليكه السلطة وتولى ابراهيم بك مشيخه البلد وتولى مراد بك أمارة الحج ومنصب الدفتردارية ولم يستطع السلطان أن يتفرغ لمحاربتهما لانشغاله فى حرب الروسيا ثم استطاع بمعاونه حسن باشا الجزايرلى من القضاء على حركة ظاهر العمر ثم اتجه بجيشه فى حملة بحرية سنة ١٧٨٦ إلى مصر فهزم المماليك أمامه ودخل القاهرة فى أول أغسطس ثم عادت الحرب بين تركيا وروسيا سنه ١٩٨٧ وتمكن مراد وابراهيم من العودة إلى القاهرة سنة ١٧٩٢ واتفقا مع الباب العالى على أن يتوليا الحكم ويدفعا ٧٥٠ كيسا جزية سنوية ويرسلوا لغلال الحرمين ويصرفوا أموال الرزق كما جرت العادة ، ويبطلوا فرض المظالم .

وكان قوام الأدارة المزدوجة :

١ - تجاهل سلطة الباب العالى تماما سواء من ناحية دفع الجزية أو من ناحية اتفاقه مع الدول الأوربية بخصوص الأمتيازات الأجنبية كما تجاهلا فرماناته الصادرة الى مصر .

٢ - استحداث أنواع كثيرة من المغارم والقروض .

٣ - تأخرت البلاد اقتصاديا فى عهدها بسبب أهمال الزراعة ، وانخفاض النيل ، وأنتشار الأوبئة والطواعين وكثرة الوفيات .

٤ - كثرة أعتداء البكوات المماليك على أرزاق الناس وأرواحهم واختلال الأمن واضمحلال التجارة الخارجية والداخلية .

٥ - سوء العلاقات مع الدول الأجنبية التى سحبت قناصلها بسبب المعاملة السيئة للتجار الأجانب وكانت فرنسا قد عقدت مع مصر معاهدة سنه ١٧٨٥ بقصد استخدام طريق البحر الأحمر ومصر للتجارة الفرنسية ، وكان لفرنسا مصالح تجارية فى مصر تمثلت فى كثرة عدد البيوت التجارية الفرنسية فى مصر ، والنشاط التجارى الذى قامت به الغرفة التجارية فى مرسيليا ، وعلى هذا فقد شكا التجار الفرنسيون والقناصل الفرنسيون الى سفير فرنسا فى القسطنطينية فحاولت فرنسا التفاهم مع مراد وابراهيم وأرسلت القنصل ماجالون Magallon ليحاول التفاهم مع بكوات المماليك ولكن جشع مراد وابراهيم والتنافس الشديد بين التجار الشوام المسيحين والتجار الفرنجة حال دون الوصول إلى وضع مرض .

الأحوال الإجتماعية والاقتصادية :

يرى بعض المؤرخين[1] أن المجتمعات فى الشرق الأدنى كانت على شفا الانهيار قبل دخول العثمانيين ، ولكن دخول العثمانيين إليه آخر هذا الانهيار ، ذلك أنهم ساروا على نظام ضرائبى مخفف فأنقذوا الفلاحين والتجار وبسطوا حالة من الأمن والأستقرار تمتع بها الشرق الأدنى حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

وفى مصر تدهور الأقتصاد إلى حد كبير فقد أهملت الزراعة والرى حتى أن مساحات كبيرة من الأرض الزراعية لم تعد صالحة للزراعة ، كما نقص عدد السكان من أربعة ملايين إلى نحو مليون ونصف سنه ١٨٠٠ م .

ويعزى السبب فى هذا التدهور إلى فساد الحكم العثمانى وبالدرجة الأولى إلى عدم فهمهم لتكوين المجتمع ، فقد كان المجتمع ينقسم فى نظرهم إلى قسمين الأول هم الحكام الترك ، والقسم الثانى . هم الرعية وكانت مهمه القسم الثانى فى نظرهم هو السهر على خدمة القسم الأول . ومعنى هذا أن الترك أصبحوا طبقة ارستقراطية منعزلة عن المجتمعات فى الشرق العربى ولذا فلم يكن للحكم العثمانى تأثير واضح فى حياة الناس فلم ينجحوا فى عثمنة العرب بل على العكس نجحت هذه المجتمعات فى صبغ الترك بصبغتها المحلية .

أما الذى ساعد على انعزال الطبقة الحاكمة فهو نظام الحكم العثمانى نفسه وأحتفاظ الترك بالبناء الأجتماعى فى مصر . فقد كان الناس ولا سيما الطبقات العاملة فى الفلاحة والتجارة والحرف المختلفة تنقسم إلى طوائف ، وكانت الطائفة تضم أصحاب الحرفة الواحدة والمهنة الواحدة سواء أكانت حرفة حرة أو مذهب دينى أو طائفة من الأعمال الأخرى فهناك طوائف خاصة بالأساتذة ، وطوائف للطلبة وطائفة للخدم وطوائف لأصحاب الحرف وطوائف للتجار وأخرى للشحاذين وحتى طوائف للصوص ، معنى هذا أن التنظيم الطائفى أصبح تنظيما اجتماعيا واقتصاديا وأصبحت الحرفة الواحدة منظمة اجتماعية وأقتصادية شبه مستقلة لها دستورها القائم على العادات والتقاليد الموروثه ولها عملها ولها شيخها الذى يتولى العلاقة بين الطائفة والحكومة . وكان السبب فى هذا التنظيم الطائفى هو أن كل طائفة عملت على المحافظة على سرية الصناعة أو الحرفة داخل نطاق معين محدود أو أسرة أو أسرات معينة .

(١) د . أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ٥٢ ـ ٥٦

وهكذا لعب التنظيم الطائفى دورا واضحا وهاما فى حياة الناس فقد كانت الطوائف الحرفية خاصة تنتمى إلى أحدى المنظمات الدينية أى العشيرة وهى جماعة من جماعات الطرق الصوفية وقد عرف عَن أهل الطوائف والحرف الأمانة والتعفف ، وقامت الطوائف بحل مشاكل التنافس بين أفرادها ولكنها من ناحية أخرى كانت مسئولة عن عرقلة تقدم الصناعة وفشل الصانع فى التقدم المهنى والأبتكار وقد **شجعت الدولة هذا النظام لأنه كان يعينها فى حفظ الأمن ويساعدها على الاتصال بالأهالى .**

أما العلاقة داخل الطائفة فقد كان فيها بعض التناقض فالأصل فى الطائفة أنها تضم أصحاب الصناعة والعمال ولذا فكان من الطبيعى أن تكون السيطرة داخلها لأصحاب الصناعة ، وكذلك فأن شيخ الطائفة رغم ان المفروض أن يكون حامى الطائفة وحارسها فأنه كان فى الواقع هو الذى يقوم بسرقتها ونهبها . وينطبق هذا أيضا على طوائف الفلاحة فى الريف .

ولم تكن العلاقة بين الطوائف تقوم على أساس العزلة وأنما كانت هناك عوامل حالت دون ذلك فالأسلام يدعو للمساواة الأجتماعية ، ولم يكن الحاجز بين الطوائف كبيرا فقد كان فى استطاعة الفرد أن ينتقل أحيانا من طبقة اجتماعية إلى طبقة اجتماعية آخرى .

واذا كانت حياة القرية ساعدت على أن تتجدد مراكز الناس وأعمالهم وحالتهم الأقتصادية بمولدهم فالأبن يرث أباه فى مهنته والبنت تتزوج زميل والدها فى الحرفة فقويت الرابطة الأجتماعية داخل الحرفة وساعد ذلك بالتالى على وحدة الدم داخل الحرفة الواحدة وفى المدينة أتاحت حياة الناس فيها لتجمع الطوائف فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، كما أن انقسام المدينة من الناحية الأدارية إلى عدد من الأحياء أو الحارات ساعد على تماسك الطوائف وعلى أن يقيم أفراد كل طائفة فى حارة واحدة .

ونظرة بسيطة إلى هذه الاوضاع نرى أن الترك من ضباط الجيش ورجال الدين عاشوا فى غنى وترف وفى وضع منعزل مترفع عن المصريين وبعدهم يجيىء المماليك الذين سرعان ما أصابوا الغنى والترف أيضا بل أنهم بعد مدة أصابوا من الغنى والثروة مالم يصبه الترك ثم جاء بعد ذلك العلماء ومشايخ الطرق وكبار التجار ثم أصحاب الحرف وعاشوا هؤلاء فى فقر وجهل وظلام فقد كانوا يدفعون الجزية ويدفعون للمماليك .

وهناك بعد هذا العرض بعض الحقائق : -

أولهما : أن المصريين وقد لاقوا الكثير من أعتداءات المماليك المتكررة من السلب والنهب بعد أنهيار الحكم العثمانى وقويت شوكة المماليك وكثر التنافس بينهم فأنهم كانوا يلجأون إلى كبار العلماء بالأزهر ليدفعوا عنهم شر هذا الاعتداء ، والجبرتى يحدثنا عن علماء الأزهر الذين تصدوا للدفاع عن المصريين ، وأخص بالذكر منهم الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكية ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، الشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ محمد السادات ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ محمد الأمير . فقد كان هؤلاء رسل الثورات المصرية وقوادها فى أواخر القرن الثانى عشر ضد الولاة الترك الظالمين وضد البكوات المماليك وخاصة مراد وابراهيم ، والمصريين قد ثاروا سنه ١٧٨٥ وأجبروا ابراهيم ومراد على توقيع وثيقة فى شهر ذى الحجة سنه ١٢٠٩ هـ تعهدوا فيها بأبطال المظالم والضرائب المستحدثه ، ومنع أتباعهم من سلب أموال الناس ، وارسال أموال الحرمين الشريفين والعوائد المقررة لهما ، وأن يسيرا فى الناس سيرة حسنة .[١]

وثانيهما : أن المماليك ورغم أنهم قد بلغوا حد كبيرا من القوة فى القرن الثامن عشر بحيث أنهم كانت فى استطاعتهم خلع الباشا العثمانى ، ومنع الخراج ، وكان فى يدهم كل موارد البلاد ، وتحت سلطتهم الفلاحون المسخرون ، وفى يدهم حكم الأقاليم (الصنجقيات والكشوفيات) فأنهم لم يستقلوا عن الدولة العثمانية ولم يعيدوا استقلال مصر إلى ماكانت عليه سنه ١٥١٧ م . السبب فى ذلك هو أن المماليك عاشوا دائما منقسمين على أنفسهم عاجزين عن توحيد كلمتهم وعن الخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم إلى الأستقلال ، وكان كلما ظهر منهم أمير وأصبح حاكما لمصر كان الأمراء الآخرون هم أول من يثور عليه ، ويخرج على طاعته ، وظلت الحرب سجالا بينهم ، وكانوا أحيانا يقتلون الامير وأحيانا يقاومهم وأحيانا يهزم ويذهب إلى الصعيد وهناك يستعد ويسترد قوته ويعود من جديد وتاريخ مصر مملوء بتلك الثورات التى لم تكن فى القوى فقط بل كانت **القرى** فى شوارع القاهرة .[٢]

وكانت مهمة الدولة العثمانية فى هذه الحال هو الأيقاع والتفرقة بين الأمراء المماليك وهنا يظهر سؤال آخر . وهو لماذا كان الأمراء المماليك منقسمين على أنفسهم ؟ بحيث أدى هذا الأنقسام الى فشلهم السياسى ؟ .

السبب هو حب النفس المتولد عندهم ، فهم من أصل واحد ، أرقاء وعبيدا جلبوا من روسيا وبلاد القوقاز وسواحل بحر أزوف وبعض جهات إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ،

(١) الجبرتى : جزء ثانى ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨

(٢) اقرا الجبرتى : جزء أول من ٣٠٠ الى ٤٠٠

وأنتزعوا من بين أهليهم فى سن مبكرة وحيل بينهم وبين ماضيهم ، ثم دربوا تدريبا مصطنعا ، فليس هناك لأحدهم ميزة على الآخر إلا الميزة الشخصية ، كأن يكون أكثر شجاعة ومهارة فى الحرب السياسية . إذن فنفسية المملوك تسيطر عليه وتفسر وجهة نظره فى الحكم والسياسة ، وتربيته تولد فيه ألا يهتم إلا بنفسه ولا يبدى أى اعتبار آخر . وقد ذهب العلماء إلى أن نمو الألفة والمحبة ينبع من حياة الفرد فى وسط الأسرة ، فالطفل ينمو ويدرب على ألآ يستأثر لنفسه بكل الخيرات ، ولذلك وجد علماء النفس أن كل تربية مدرسية أو عسكرية فى ثكنات لاتحل محل تربية المنزل لأن فى الأسرة مجال لوجود العواطف والمملوك ينشأ لايجد أبا ولا أما ولا أخا يضاف إلى ذلك أنه لاينظر إلى الساعة التى يعيش فيها فيغتنم منها كل ما يستطيع لأنه رأى أن أمراء أقوياء من المماليك قد قتلوا فلم يقوموا بتنفيذ المشروعات الأنتاجية والبنائية فى مصر لأن الذى ينتفع بها أخرون .

والشواهد التاريخية فى حياة المماليك تعطينا مثلا واضحا لذلك ، فظهور على بك الكبيرواستئثارهبالحكم فى مصر يوضح بشكل ظاهر ضعف الحكومة العثمانية ونفوذها فى مصر توضيحا ظاهرا ، ثم أن فشله فى الأستقلال بها يوضح عجز المماليك عن تحقيق الأستقلال لتنازعهم وعدم اتحاد كلمتهم ولما كاد على بك أن ينجح فى الأستقلال بمصر ويكون امبراطورية مصرية نجد أن الذى أسقطة ليس الدولة العثمانية وليست الحامية العثمانية وإنما الذى أسقطه هو ثورة أحد مماليكه المقربين ضده وهو محمد بك أبو الذهب .

ثانيا : الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ / ١٨٠١

ظروف قيام الحملة :

فى أواخر القرن الثامن عشر بلغ الحكم العثمانى المملوكى فى مصر حدا كبيرا من الفساد ولم يحقق الخير والحكم الصالح للمصريين ، وكانت مصر ولاتزال جزءا من الأمبراطورية العثمانية التى كانت حتى ذلك الوقت ولا تزال تحتفظ بأتساعها الكبير فى البلقان والأناضول والشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية وشمال أفريقية وقد أخذ الضعف يدب فى جسم هذه الأمبراطورية عندما قامت الثورات فى النصف الثامن من القرن ١٨ وعمت أرجاءها فعلى بك الكبير فى مصر والجزار فى الشام وعلى باشا فى ألبانيا والوهابيون فى بلاد العرب والشعوب المسيحية فى البلقان وعلى الأخص اليونانيون ، وأطلق رجال السياسة فى أوربا على الامبراطورية العثمانية رجل أوربا المريض وبدأوا يتطلعون فعلا إلى تقسيم تركة هذا الرجل المريض وازداد ضغط الدول الأوربية وخاصة الروسيا والنمسا على الدولة العثمانية فى شبه جزيرة البلقان .

والحملة الفرنسية على مصر فصل من فصول هذا الضغط وهو فصل جديد فى تاريخ انحلال الدولة العثمانية لأنه كان أول تعدى أوربى على بلد شرقى إسلامى من بلاد الدولة العثمانية ، ولانستطيع دراسة الحملة الفرنسية على مصر إلا بربطها بحوادث التاريخ الأوربى فى أواخر القرن ١٨ فى الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة بين الجمهورية الفرنسية ودول التحالف الأول وانتصرت فرنسا فى أوربا ولم يبق من أعدائها سوى النمسا وانجلترا .

وكان ميدان الحرب بين فرنسا والنمسا هو إيطاليا أما ميدانها مع انجلترا فكان البحر والمستعمرات وفى سنة ١٧٩٦ زحف بونابرت على شمال إيطاليا وانتصرت جيوشه على النمسا فى كثير من المواقع حتى دانت له شبه جزيرة إيطاليا وعقد صلح كمبيوفورميو فى ١٧ أكتوبر ١٧٩٧ مع النمسا وفيه خرجت فرنسا وقد امتلكت بلجيكا وامتدت حدودها الشمالية إلى نهر الراين واستولت على الجزر الأيونية كما استولت على جمهورية البندقية وأسطولها وضمته إلى أسطول فرنسا ، وذكر بونابرت لحكومة الأدارة أن احتلال الجزر الأيونية أكثر اهمية لفرنسا من أحتلال إيطاليا بأسرها .

وبعد ذلك لم يبق من أعداء فرنسا غير انجلترا التى كان الرأى العام يؤيد القيام بعمل حربى حاسم ومن أجل ذلك قررت حكومة الإدارة تكوين جيش أطلقت عليه (جيش انجلترا) ووقع الاختيار على بونابرت لقيادته وكان الغرض من هذا العمل احتلال انجلترا بصفة جدية وذلك على عكس ما قاله البعض من أن إعداد (جيش

انجلترا) أو الحملة الكبيرة هو ذر الرماد فى العيون فإن انجلترا فى الحقيقة كانت العدو اللدود والأكبر لفرنسا ، وكانت فرنسا تريد القيام بعمل حاسم ضدها ولم يصرف بونابرت وحكومة الإدارة عن غزوها سوى عوامل قاهرة إذ أنه عندما قام بونابرت بجولة تفتيشية فى فبراير سنه ١٧٩٨ على الساحل الشمالى لفرنسا تبين له أن الحملة ضد الجزر البريطانية تلزمها استعدادات كبيرة وهامة وطويلة ويلزمها أسطول حربى كبير ، وجاءت أبحاث الضباط الذين كلفوا بتفقد السواحل الشمالية تؤيد هذه الحقيقة .

وكانت البحرية الفرنسية فى ذلك الوقت قد بلغت حدا كبيرا من التدهور لأن الثورة الفرنسية وإن كانت قد نفخت روحا جديدة فى جيوش فرنسا البرية إلا أنها أحدثت أثرا سيئا فى الأسطول الفرنسى لأنها أشاعت فيه الفوضى وذلك بسبب انتشار مبادىء الثورة التى لاتعبأ بالنظام ، وقامت الفتن فى أحواض السفن واستغنى عن خدمات رجال المدفعية البحرية المدربين واضطر كثير من الضباط الأكفاء وأبناء الأسر العريقة إلى ترك السلاح البحرى ، وعلى ذلك فقد اقترح بونابرت على حكومة الأدارة أن توجه جيشها لفتح مصر وهو عمل فى نظره لايقل أهمية وأثرا عن غزو انجلترا نفسها . ووافقت حكومة الإدارة وشجعها على ذلك ثقتها فى عبقرية بونابرت العسكرية وكفاءته .

وكانت فرنسا فى ذلك الوقت تنافس انجلترا منافسة واسعة فى ميدان الفتح والاستعمار ، وكانت فرنسا أيضا قد فقدت مستعمراتها فى أمريكا والهند على حين بقيت لانجلترا ممتلكات واسعة فى تلك الجهات ، وأرادت فرنسا أن تعوض خسارتها بفتوحات جديدة تكون بديلا لما فقدته من مستعمرات وكان تاليران وزير خارجية فرنسا قد عاد من أمريكا وبعد أن شاهد هناك تكوين مستعمرات انجليزية فى الدنيا الجديدة ولمس فوائد الاستعمار للدول الأوربية وازداد اعتقادا فى ضرورة تشييد امبراطورية فرنسية واسعة فى تلك المناطق وفى غيرها ولكنه وإذا كان يحبز فتوحات جديدة لفرنسا فإنه كان يفضل الدبلوماسية وفن الصيد الهادىء فى المياه العكرة .[1] .

وكان الانقلاب الصناعى الذى انتشر فى أوربا فى أواخر القرن ١٨ قد أدى إلى التوسع فى الإنتاج الصناعى وانتعاش التبادل التجارى بين الأمم والرغبة فى امتلاك مستعمرات فأسفر هذا كله عن زيادة حدة التنافس الاستعمارى بين الدول وكانت انجلترا تكاد تحتكر طريق رأس الرجاء الصالح لتجارتها الشرقية وخاصة بعد تكوين شركه الهند الشرقية فاتجهت فرنسا إلى طريق التجارة الذى يمر بمصر والبحر الأحمر وأولت مشروع قناة السويس عنايتها ليصبح أقصر الطرق وأسرعها بين الشرق وأوربا فتتحول إليه التجارة وتفقد انجلترا سلاحا قويا من أسلحتها وهو تفوقها التجارى وبذلك ترجح كفتها فى ميدان المنافسة التجارية وينجم عن هذا التفوق التجارى تفوق

(١) ج . كرستوفر هيرول : بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مراجعة د . محمد انيس ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨ _ ٢٩

آخر سياسى . ومن الطبيعى أن هذا لايتحقق إلا إذا استولت فرنسا على مصر والأستيلاء على مصر لايحتاج منها إلى جهد كبير فقد انهارت سلطة تركيا فى مصر – كما رأينا – ووقعت البلاد تحت تصرف المماليك الضعفاء . فاتجه تفكير فرنسا الجدى إلى مصر . ولذلك فقد استولت على كورسيكا واهتمت بمالطة وفكرت فى الاتصال بمسيحى البلقان وسرعان مادخلت مصر فى دائرة هذه المشروعات واهتم بونابرت فى صلح كمبيوفورميو المذكور بأن يجعل من البحر المتوسط بحيره فرنسية .

وكان قد زار مصر فى ذلك الوقت بعض الرحالة الفرنسيين وأحدثت زياراتهم أثرا كبيرا فى توجيه الرأى العام الفرنسى نحو الاستعمار فى الشرق عامة ومصر خاصة ، وكان أول هؤلاء الرحالة وهو البارون De Tott الذى قدم لحكومته فى سنه ١٧٧٦ م مذكرة عن حالة تركيا ذهب فيها إلى أنها فى طريقها إلى السقوط وأن واجب فرنسا هو الاستيلاء على مصر ذات الخير الوفير فهى مقر التجارة فى العالم وحتى تستأثر فرنسا بتجارة الشرق والهند . وبعد ظهور هذه المذكرات نشر الرحالة سافارى Savari رسائله المشهورة سنتى ٨٥ / ١٧٨٦ وفيها وصف مصر وخصوبتها .

وفى العام التالى ظهرت رحله فلنى Volney فى مصر والشام وامتلأت أسماع الفرنسيين وأذهانهم بذكر مصر وفتح مصر واستعمار مصروهيأهذا الكتاب الذى أطل طبعه ثلاث مرات فى مدة قصيرة أذهان الفرنسيين نحو استعمار مصر فقد وصف فلنى بؤس الفلاحين المصريين ورأى أن خير علاج لإصلاح حالهم هو خروجهم عن السيادة العثمانية ودخولهم تحت حكم دولة أخرى تكون صديقة لمصر وذات حضارة ولها نهضة أدبية وعلمية وفنية وذاع الاعتقاد بأن فلنى يقصد فرنسا عند إشارته إلى الدولة المتحضرة .

وعلى ذلك فقد اشترك هؤلاء الرحالة الثلاثة حول توجيههم لأنظار فرنسا نحو خصوبة مصر وغناها وحول تقهقر مصر وانهيار النفوذ العثمانى فيها حتى أنه ليسهل فتحها . وجاء ذلك فى الوقت الدى كان فيه الفرنسيون يبحثون عن الميادين المحتملة لتأسيس مستعمرات جديدة بنجاح وفى الوقت نفسه الذى كان فيه الفرنسيون يتوقعون انحلال الإمبراطورية العثمانية ولايريدون أن تفلت الفرصة من يدهم فلا ينالون نصيبهم من الغنيمة ، وكان الرأى العام الفرنسى يكاد يكون مجمعا على تفضيل الاستيلاء على مصر . ومن ثم فلم يكن مشروع الحملة الفرنسية على مصر وليد ظروف طارئة .

ويذكر بعض المؤرخين أن حكومة الإدارة كانت تخشى نفوذ بونابرت بعد انتصاراته الباهرة على أعداء الثورة فى إيطاليا وودت لو أنها استطاعت التخلص من هذا القائد

بإرسالة فى حملة جديدة تبعده عن باريس وعن فرنسا فوجدت فى تعيينه قائدا للجيش المرسل إلى مصر فرصة سانحة لتحقيق هذه الرغبة غير أنه من الصعب قبول هذا الرأى لأنه لم يكن من السهل إخراج جيش الشرق الكبير وقوامه أكثر من ٣٦ ألف جندى مع صفوة قواد فرنسا وعلمائها إلى مصر لمثل هذا السبب ثم كيف يحدث أن ترسل هذه القوة الكبيرة مع شخص غير مرغوب فيه وهى تعطيه القوى التى يستطيع أن يحقق بها مايريد فى فرنسا نفسها ثم أن بونابرت كان يتمتع بنفوذ سياسى لايتمتع به عادة القادة العسكريون حتى أن أعضاء حكومة الإدارة بدأوا يحسون بقوة شخصيته وبأنها تفرض نفسها عليهم فى أمور الدولة ، وقد سعى بونابرت الى الدخول فى حكومة الادارة ولكن سنه التى لم تبلغ الأربعين كانت تحول دون ذلك ، وهو فى قرارة نفسه لم يكن راضيا عن حكومة الإدارة وكان يحتقر رجال القانون كرجل عسكرى ، وكان يعلم أن حكومة الإدارة مكروهة من الشعب الفرنسى ، ويعلم أيضا أنه لايستطيع البقاء بدون جيش وأن اليعاقبة أخذوا يهاجمونه فأحس بحرج موقفه وأنه فى حاجة إلى المحافظة على سمعته العسكرية ولذا فلابد من خلق ميدان يظهر فيه موهبته العسكرية ولم يكن أمامه غير مشروع الحملة الفرنسية على مصر .

قيام الحملة : -

وفى ٥ مارس سنه ١٧٩٨ قررت حكومة الإدارة إرسال الحملة وتكتمت أمرها خوفا من تسرب أنبائها إلى انجلترا ، وفى ١٢ أبريل أطلقت الحكومة على هذه الحملة (جيش الشرق) وأسندت القيادة إلى بونابرت وصدر القرار يحمل تعليمات واضحة من ست بنود ومقدمة .

فأما المقدمة : فقد أوضحت أن سبب هذه الحملة هو عقاب المماليك الذين اتصلوا بالإنجليز وأصبحوا تحت تصرفهم والذين اضطهدوا التجار الفرنسيين واستغلوهم أسوأ استغلال .

وفى البند الأول : تقرر إعطاء القيادة البرية والبحرية لبونابرت .

وفى البند الثانى : - طلب إليه طرد الإنجليز من كافة ممتلكاتهم فى الشرق وفى الجهات التى يستطيع بونابرت الوصول إليها والتغلب عليها وبالأخص المراكز التجارية فى البحر الأحمر .

وفى البند الثالث : - كلفته الحكومة بتنفيذ مشروع لربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط واتخاذ كافة الوسائل اللازمة التى تتيح لفرنسا السيطرة الكاملة على البحر الأحمر والتجارة فيه .

وفى البند الرابع : كلف بونابرت بالعمل على تحسين أحوال المصريين .

وفى البند الخامس : - أوصى بالمحافظة على العلاقات الحسنة مع السلطان العثمانى .

وفى البند السادس : - نص على أن تظل هذه الأوامر والتعليمات غير مطبوعة وسرية .

وهكذا ظل بونابرت يصدر أوامره باسم بونابرت القائد العام لجيش انجلترا حتى أقلعت الحملة من طولون فى ١٩ مايو سنه ١٧٩٨ فى طريقها إلى مصر .

الإستيلاء على مصر

وفى الطريق استولت الحملة على مالطة وكان بها فرسان القديس يوحنا وكانت علاقاتهم بالأهالى متوترة ولذلك فلم تبد الجزيرة مقاومة للجيش الفرنسى ، كما أنه من المعروف أن هذه القوة كانت مكلفة بالحرب ضد المسلمين ووضع بونابرت حامية بها من ثلاثة آلاف جندى واستولى منها على ١٢٠٠ مدفع كما أخذ جماعة يعرفون العربية أصبحوا أدلاء ومعاونين له وعرفوا بالكتيبة المالطية وكانوا نحو ألفين .

وفى صباح يوم ٢ يوليو بدأ الهجوم على الإسكندرية فقاومه أهلها ببسالة بمواردهم المحدودة ومن نوافذ المنازل ، ولم يكن للترك بها سوى ثلاث سفن استأذن قائدها إدريس بك وخرج بها إلى الآستانة ولتفوق بونابرت فى النظام والسلاح وحسن القيادة أحرز نصره وألقى محمد كريم السلاح بعد مقاومة عنيفة من قلعة قايتباى وخسرت الأسكندرية نحو ٨٠٠ بين قتيل وجريح وكانت المدينة ينقصها البارود ولم يرسل مراد بك منه سوى قنطارين ، وبعد أن استنجده محمد كريم ثلاث عشرة مرة ومع ذلك فقد جرح كليبر ومينو وأشكال وقتل اللواء مأس وخمس أخرون من الضباط وعين بونابرت كليبر حاكما على الأسكندرية يساعده مجلس من محمد كريم وكبير علمائها الشيخ محمد المسيرى وخمسة من أعيانها وترك بها حامية من عشرة آلاف جندى .

وبعد انصراف بونابرت إلى القاهرة وعلم بذلك المماليك وهربوا من رشيد فأقام الأهالى بها حكومة يرأسها ثلاثة من أعيانها وبدأوا المقاومة . وفى القاهرة انقسم المماليك ، فابراهيم بك حمل المال والمتاع واتجه نحو الصالحية وأما مراد بك فسار يقود جيشه الذى يتراوح بين ١٢-٢٠ ألفا منهم ٦٠٠٠ من المماليك والباقى من المصريين فلاحين وعرب ، وفى رشيد حدثت معركة عند شبراخيت أصيبت فيها سفينة السلاح المصرية ، وقاتل المصريون ببسالة ولكن لحقت بهم الهزيمة وفر المماليك بعد أن فقدوا نصف قوتهم وتركوا سلاحهم . ووصل بونابرت فى طريقه إلى القاهرة وعند مشارفها إجتمع العلماء والأعيان واتفقوا على إعلان المقاومة وأقاموا المتاريس بين

بولاق وشبرا وأخذ الناس يجمعون المال ويشترون السلاح ويجهزون الجند ، وقاد السيد عمر مكرم المتطوعين فى شوارع القاهرة حاملا البيرق النبوى من القلعة وقدم إليها عربان البحيرة والصعيد وكذلك عرب الخبيرية والقيعان وأولاد على والهنادى .

وفى معركة امبابه أو الأهرام : هزم مراد رغم قتاله ببسالة وشجاعة وفر ابراهيم بك والباشا التركى فثار الناس ونهبوا بيتى مراد وابراهيم ، وكانت هذه المعركة هى أخر مقاومة للماليك وفر مراد بعدها إلى الوجه القبلى وقر رأى العلماء على إلقاء السلاح وتسليم المدينة لبونابرت على شريطة تأمين الأهالى على أرواحهم ودخلها ديبوى يوم ٢٣ يوليو ونزل فى بيت إبراهيم بك الصغير صهر إبراهيم بك الكبير ، أما بونابرت فدخلها فى اليوم التالى ونزل فى بيت محمد بك الألفى على بركة الأزبكية وتعرضت القاهرة للسلب والنهب .

الفرنسيون فى مصر

قبل أن يدخل بونابرت القاهرة وجه منشورا إلى المصريين حرره باللغة العربية يلاحظ فيه روح الإقتباس من القرآن الكريم وفيه شرح بونابرت سياسته التى اعتزم اتباعها فى مصر شرحا وافيا . فهو يحاول أن يفصل بين المماليك والعثمانيين ويوضح أن فرنسا ستبقى فى حالة سلم مع الدولة العثمانية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، ففرنسا حين قررت فتح مصر قررت أيضا ألا يوقعها ذلك فى حرب مع الدولة العثمانية قال بونابرت للمصريين فى منشوره أنه جاء : ليحررهم من المماليك الذين ليس لهم حق فى مصر ويعاملون الناس معاملة سيئة ويستولون على أموالهم كما أن الفرنسيين لم يجيئوا لإزالة الدين الإسلامى كما ادعى البعض وإنما ليخلصه من يد الظالمين وأن الفرنسيين يعبدون الله ويحترمون نبيه والقرآن الكريم وأنه سوف لايستثنى أحدا من أهالى مصر فى الدخول إلى المناصب السامية واكتساب المراتب العالية كما استطرد فقال أن الفرنسيين أيضا مسلمون خالصون فهم قد نزلوا فى روما وخربوا كرسى البابوية الذى كان يَحُث الناس على حرب المسلمين وحين قصدوا جزيرة مالطة طردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقولون أن الله طلب منهم محاربة المسلمين . وفوق ذلك فالفرنسيين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأن المصريين بذلك إذا أطاعوهم وتعاونوا معهم نالوا منهم الخير اما من يتعاون مع المماليك فسوف يتعرض للعقاب الشديد .

ثم اصدر بونابرت خمسة أوامر أوجب على المصريين طاعتها : -

١ - على القرى الواقعة فى طريق الجيش الفرنسى والتى لاتبعد أكثر من ثلاثة فراسخ عليها أن ترفع العلم الفرنسى علامة على الطاعة والولاء وترسل نوابا عنها لتقديم الطاعة .

٢ – كل قرية تقاوم الفرنسيين يجرى حرقها .
٣ – كل قرية تعلن الطاعة عليها رفع العلمين الفرنسى والعثمانى .
٤ – يجب على المشايخ فى كل بلد التحفظ على أملاك المماليك وعدم التصرف فى شىء منها .
٥ – يجب على الناس الانصراف إلى عبادتهم وحياتهم العادية ويدعون فى صلاتهم للسلطان العثمانى والفرنسيين ويلعنون المماليك .

تتبع قوات المماليك : –

بعد أن رأى ابراهيم بك هزيمة مراد فى إمبابة فر هو ومن معه من المماليك إلى بلبيس فتتبعه بونابرت حتى خرج إلى الشام ودخل غزة ، أما مراد فتتبعه ديزيه إلى الوجه القبلى .

وبعد أن استقر بونابرت فى القاهرة طلب فى يوم الخميس ١٣ صفر ١٢١٣ هـ – ٢٦ يوليو عام ١٧٩٨ م المشايخ والوجاقلية واختار بونابرت عشرة من العلماء كون منهم ديوانا لمساعدة حاكم القاهرة ديبوى وهؤلاء هم عبد الله الشرقاوى ، خليل البكرى ، مصطفى الصاوى ، سليمان الفيومى ، محمد المهدى ، موسى السرسى ، مصطفى الدمنهورى ، أحمد العريشى ، يوسف الشبراخيتى ، محمد الدواخلى . واختار الشيخ المهدى سكرتيرا لهذا الديوان وأختار معهم ثلاثة من الفرنسيين هم كاف ووطار وبودوف وعين العالم الفرنسى مونج Monge رئيسا وكلفه بالإشراف على أعمال الديوان . إلا أن بونابرت عين رجلا نصرانيا روسيًا يسمى برطلمين كان المصريون يسمونه فرط الرومان كتخدا مستحفظان أى كحكمدار للقاهرة وكان له حانوت فى الموسكى يبيع فيه قوارير الزجاج وكان هذا الرجل يحقد على المصريين ولذلك فقد كرهوه بشدة . وقصد بونابرت بذلك أن يشعر المصريين أنهم يحكمون أنفسهم وأنهم مقربين إليه وأن الفرنسيين لم يأتوا كفاتحين وانما ليقيموا شعائر الدين ويقضوا على تعنت المماليك .

كذلك أصدر بونابرت أوامره المشددة إلى الجنود بعدم الأعتداء على أرواح الناس وأموالهم ونسائهم وبيوتهم وتركهم يباشرون عبادتوم فى حرية ولكنه على الرغم من ذلك فإن الجنود **عاثوا** فسادا ونهبوا البيوت واستولوا على كثير من بيوت وأملاك الأمراء .

وإذا كان بونابرت قد فعل الكثير ليظهر للمصريين أنه صديق لهم ولنبيهم حين اشترك معهم فى الاحتفال بوفاء النيل فى أغسطس وقام الجند الفرنسيون فاشتركوا بموسيقاهم وحرابهم فى هذا الاحتفال ، وحين شاركهم مع الشيخ البكرى فى مولد الرسول وصرف الأموال الواسعة فى هذا الاحتفال بل أحيانا مالبس الجبة والقفطان

وتغدى على مائدة الشيخ البكرى وترك الناس يباشرون عبادتهم فى حرية . فانه سرعان ما رجع الفرنسيون إلى عاداتهم وتقاليدهم فشربوا الخمر وفتح الأروام محلات لبيعها ، كما أقاموا حفلات السهر والرقص وسارت نساؤهم فى ملابسهم الأفرنجية التى كانت محل غضب من المصريين وقتذاك ودون أن يدرى الفرنسيون كانوا عاملا فى ارتفاع الأسعار لأنهم حينما أرادوا مجاملة المصريين أو لعل ذلك حدث بما جاء إلى أيديهم من أموال طائلة نهبوها فاشتروا السلع بأثمان عالية بدأت الأسعار ترتفع وساءت حالة الخبز وقلت الأغذية المعروضة فى الأسواق

كذلك سار الفرنسيون على سياسة احترام العلماء والتقرب إليهم وخاصة أكابرهم مثل الشيخ السادات والشيخ خليل البكرى الذى اختاره بونابرت نقيبا للأشراف مكان عمر مكرم ، كما عين مصطفى بك كتخدا الباشا أميراً للحج وكتب بذلك رسميا للدول . وحينما أراد إجراء سلسلة من الإصلاحات الإجتماعية والعمرانية أصدر أوامره بتسجيل العقارات والمواليد والوفيات ووسعوا الشوارع والميادين وغرسوا الأشجار على جانبيها وأقاموا مصانع للجوخ والذخيرة ، وبدأ العلماء الفرنسيون فى دراسة مشروع توصيل البحرين الأحمر والأبيض ، وبسبب ذلك وبسبب تجميل القاهرة وتوسيع الشوارع وإنارتها ليلا اضطر الفرنسيون الى هدم بعض أبواب الحارات والمساجد ، كما أنه أصدر تعليمات بضرورة تسجيل الوفيات والمواليد فأغضب المصريين لأنهم لم يتعودوا على ذلك ، كما أنه فرض رسوما على تسجيل العقارات .

كذلك كان بونابرت بحاجة إلى المال وبخاصة بعد أن تحطم أسطوله فى أبو قير ففرض على القاهرة ٥٠٠ ألف ريال تُجبى من التجار ، وفرض الضرائب على نساء المماليك فأخذ من السيدة نفيسة زوجة مراد بك ١٢٠ ألف ريال فرنسى (٢٤ ألف جنيه) كما استولى الفرنسيون على الكثير من الخيول والابل والسلاح والأبقار والثيران وجمعوا من ذلك الشيء الكثير ثم عاد بونابرت وطلب من أهل الحرف بالقاهرة مبلغا من المال عجزوا عنه فاستشفعوا بالعلماء فخففه إلى النصف وأعطى لم مهلة أطول .

وكانت هذه التصرفات تريب المصريين وجعلتهم يكرهون الفرنسى ، ولم تنطل عليهم حيل بونابرت فاستمروا فى أعمال المقاومة وانتهزوا الفرص المناسبة للثورة وخاصة حين تعددت الضرائب والغرامات والرسوم التى فرضها الفرنسيون وحين وصل منشور السلطان العثمانى يدعوا للثورة بعد معركة النيل وهزيمة الأسطول الفرنسى فيها ، وكذلك فان هذه المعركة شجعت المصريين وجعلتهم لايخشون الفرنسيين وأصبحت القاهرة مهيئة للثورة .

معركة النيل

وقبل أن نتكلم عن ثورات المصريين على الحكم الفرنسى يجب علينا أن نتكلم أولا عن معركة النيل .

فالحقيقة أن الحملة الفرنسية على مصر تبدأ نهايتها والصفحة الأخيرة لها منذ قدومها إلى مصر ، ذلك لأن المصريين كرهوها ونظروا إليها كمحتل غاصب رغم تظاهر بونابرت بصداقته لهم فلم يتعاونوا مع الفرنسيين مدة ثلاث سنين هى فترة وجود الحملة فى مصر .

وكانت انجلترا لاتعلم الجهة التى تقصدها الحملة وظنت أنها تريد غزوها فى بلادها وأن استعداداتها فى البحر المتوسط تهدف إلى الوصول إلى جبل طارق قاصدة احتلال أو غزو البرتغال ثم احتلال أيرلندا ثم انجلترا نفسها . كما ظن بعض أعضاء الحكومة الانجليزية أن الحملة ستسير إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان فى استطاعة الحكومة الأنجليزية أن تعرف وجهة الحملة وأعضاء حكومة الادارة وعددهم خمسة كانوا يعلمون وجهتها ولكن يظهر أن المخابرات الأنجليزية لم تنشط النشاط الكافى فمثلا إعداد الحملة لمطبعة عربية يدل على أنها تقصد بلدا عربيا ونلسن كتب إلى سانت فنسانت St. Vincent أميرال البحر يقول له أنهم يتصرفون فى سرية تامه . ومعنى ذلك فى رأى نلسن أن فى الأمر سرا وكان من أثر هذا التخبط أن أصدرت انجلترا أوامرها إلى الأميرال سان فنسانت لمراقبة بوغاز جبل طارق وعهد فنسانت إلى نلسن بالتجول فى البحر المتوسط لمراقبة حركات الأسطول الفرنسى وأصدر إليه الأمر الصريح بألا يدخر وسعا فى أغراق وأخذ أو حرق أو تحطيم هذه العمارة الفرنسية . ولم يكن غرض الأنجليز بذلك فتح مصر وانما كان تدمير الأسطول الفرنسى أينما وجد سواء أكان رأسيا فى ميناء أو سائر فى البحر .

وكان من حسن حظ الفرنسيين أن أقلعت الحملة من فرنسا واستولت على مالطة وعرجت على جزيرة كريت ثم وصلت إلى الأسكندرية دون أن يقابلها الأنجليز فقد اضطرت عاصفة بحرية شديدة الأميرال نلسن إلى الالتجاء إلى جزيرة سردينيا . ولو حدث وتقابل الأسطولان لكانت الخسارة شديدة . وكانت العمارة الفرنسية تتكون من سفن حربية وناقلات جنود عددها ٤٠٠ سفينه فلو قابلها نلسن لأغرق منها عددا كبيرا ، وكان نلسن قد وصل قبلها إلى الاسكندرية وغادرها فورا عندما لم يجد الفرنسيين وذلك للبحث عنهم فاتجه إلى شواطى أسيا الصغرى ثم إلى صقلية ثم عاد

إلى الاسكندرية وفى أثناء ذلك اشتد قلق الرأى العام الأنجليزى لأن نلسن لم يستطع فى بحر ثلاثة أشهر قضاها فى عرض البحر أن يدرك الأسطول الفرنسى وترك بونابرت يستولى على مالطة ويحتل سواحل مصر .

واتجه نلسن على الفور إلى أبو قير حيث كان الأسطول الفرنسى راسيا فيه وقد تقدم أسطول نلسن عند اقترابه من أبو قير سفينة مصرية كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا الأسطول الأنجليزى إلى مسالك البحر فى تلك الجهة وقد تبين انه كان فى النية إرسال الأسطول الفرنسى إلى الجزر الأيونية بعد وصول الحملة إلى مصر وبعد أن احتلت الأسكندرية ولكن بونابرت حجزه بعض الوقت ، وقد حاول الأسطول أن يدخل ميناء الأسكندرية ولكن الفرنسيين أعتقدوا ن دخول الميناء متعذر لوجود الصخور فى ذلك الثغر وأعتقدوا أن المجارى الصالحة للملاحة بين هذه الصخور ليست عميقة وغير كافية لدخول السفن فرأى قائد الأسطول الفرنسى أن يرسو بالأسطول فى جهة قريبة من الشاطىء وقر رأية عند خليج أبى قير وهو خليج مفتوح ، ووقفت السفن بعيدة عن الشاطىء فلم تستفد من حماية الشاطىء لها ورسا الأسطول فى خط مواز للشاطىء ووجودهم الأنجليز راسين فى تلك الصورة .

فلما وصل نلسن بعد الظهر فى أول أغسطس سنه ١٧٩٨ صمم على الأشتباك المعركة فورا وأعتقد أمير البحر الفرنسى دى بروى Brueyes أن الأنجليز سيكتفون بحصار الأسطول الفرنسى وكان أمامه أما أن يحارب الأنجليز حربا متحركة أى تتحرك السفن وتخرج بعرض البحر وتكون الحرب أشبه بحرب الجيوش البرية فيقوى القائد مثلا القلب أو الجناح أو يتقدم أو يتأخر ويقوم بحركة التفاف ولكن دى بروى لم يرا اتخاذ حركة الحرب المتحركة لأن هذا النوع من الحرب يتطلب مهارة من البحارة وسرعة الحركة وهى غير متوفرة فى البحارة الفرنسيين ورأى دى بروى أن يقف فى مكانه ويتلقى هجوم الأنجليز ويرد بأطلاق المدافع وهذا وضع يشبه القلاع فالسفينه كقلعة ثابتة يهجم عليها العدو وترد عليه بأطلاق النار وكان من المحتمل أن تنجح هذه الخطة لولا أن الأنجليز انشطروا شطرين شطر تمكن من الولوج داخل الخليج أى وقف بين السفن الفرنسية والشاطىء داخل الخليج وقسم بقى خارج الخليج وحصر الأنجليز الجزء الأمامى من الأسطول بين نارين أحدهما من الشاطىء والآخر من الخارج .

ولسوء حظ الفرنسيين أن قذيفة مدفع أصابت مخزن البارود الموجود فى أكبر بارجة فرنسية وهى لوريان L'Orient وكان عليها الأميرال دى بروى فانفجر البارود ومات من كان فى السفينة ومنهم دى بروى نفسه وبعد ذلك لم تكن هناك قيادة عامه فى البحرية الفرنسية . إلى أن انجلت المعركة فى النهاية عن حرق وتحطيم معظم سفن الأسطول

الفرنسى الواقع بين نارين وهربت نحو خمس سفن فرنسية وكان سكان الأسكندرية ورشيد يرون النار طوال الليل مشتعلة فى البارجة الفرنسية ويسمى الأنجليز هذه المعركة معركة النيل the Battle of The Nile ويسميها الفرنسيون معركة أبو قير البحرية وكان لها وقع حاسم ، وتأثير كبير على بقاء الحملة الفرنسية فى مصر وبالتالى فى جلائها عنها .

فقد بونابرت أسباب الأتصال بأوربا عامة وفرنسا خاصة وضاع كل أمله فى إمكان وصول المدد والذخيرة من فرنسا إليه ، كما أن ضياع الأسطول حرم الفرنسين من أكبر ضمان يعتمدون عليه ويلجأون إليه إذا اضطرتهم الظروف فى مصر إلى التقهقر أو العودة ، وذلك لأن الأنجليز بعد هذه المعركة فرضوا على سواحل مصر الشمالية حصارا قويا قطع الأتصال بين فرنسا ومصر . وكان هذا الحصار عاملا أساسيا فى هذه الحملة فى النهاية . ولو أنه كان عاملا بطيئا ولأجل ذلك لايقدره كثير من الناس .

وكان هذا الحصار أحد العوامل التى جعلت الدولة العثمانية تعلن الحرب على فرنسا وكان من الجائز قبل ذلك أن تسلم الدولة العثمانية باستيلاء فرنسا على مصر وكان ذلك حساب فرنسا فى السياسة لأن بونابرت كان يحاول جاهدا أن يحصر الحرب بينه وبين المماليك فقط ، وحاولت فرنسا أن تقنع السلطان أن الحملة على مصر ليست عملا عدائيا موجها ضده واقترحت عليه مشروع اتفاق يقوم على أساس الأعتراف بسيادته على مصر فيظل نائبة فى القاهرة على أن يحتفظ الفرنسيون بمهمة الحكم الداخلى بالأستناد إلى قوة عسكرية لهم فى البلاد ويتعهدون بعدم الأساءة إلى ديانة المصريين ومعتقداتهم أى أن فرنسا كانت تريد أن تحكم مصر دون أن تغير فى مركزها ، وهذا ما فعله الأنجليز بعد احتلالهم لمصر سنة ١٨٨٢ م[1] وكان من المحتمل أن تسلم تركيا بهذا الأمر وتقبل أخف الضررين ولكن حدث أمران : -

الأول - موقعة النيل . وذلك أن حصار الأنجليز وتحطيم الأسطول الفرنسى معناه أن فرنسا لايمكنها أن تهدد تركيا فى جهة أخرى غير مصر .

الثانى : أن الروسيا قررت مساعدة تركيا وأعلان الحرب على فرنسا وهذا هو العامل الأساسى وهوأهم من انتصار الأنجليز . فالروسيا أعلنت أنها مستعدة للوقوف إلى جانب تركيا ومحاربة فرنسا ، وهذا الموقف جعل تركيا تأمن خطر روسيا وحربها ، وكانت الأشاعات فى ذلك الوقت قد راجت أن فرنسا متفقة مع الروسيا فاذا أصر السلطان على أرسال جيشة لمحاربة فرنسا فى مصر فستقوم الروسيا بالأغارة على أملاكه فى البلقان وإذن فقبل أن تتخذ تركيا خطة حاسمة وجب عليها أن تتأكد أولا من موقف روسيا وعدم عدائها لها .

(١) بونابرت فى مصر ص ١٤٢ - ص ١٨٦

وكانت الروسيا تحت حكم القيصر بول (Boul) وكان يكره تقدم فرنسا فى البحر المتوسط وينقم عليها سياستها فى الشرق حينما أحتلت الجزر الأيرنية ، وكذلك كان بونابرت أثناء وجوده فى إيطاليا قد بدأ ينشىء صلات وعلاقات وثيقة مع اليونان وكانت روسيا تريد أن تكون صاحبة النفوذ الأول فى بلاد البلقان وكره بول أيضا امتلاك الفرنسيين لمالطة ومصر وتهديدهم للشام أذ تصبح بذلك الدولة العثمانية تحت سيطرة الفرنسيين ولهذا قرر مساعدة الدولة العثمانية ودفاعا عن مصالح بلاده وتكون حينذاك التحالف الدولى الثانى من انجلترا وروسيا وتركيا . وقد اتخذت تركيا عده إجراءات عدائية ضد فرنسا ، عندما أعتقلت سكرتير السفارة الفرنسية والرعايا الفرنسيين .

وقد نظمت الدول الثلاث المقاومة ضد فرنسا باستنكار احتلال الفرنسيين لمصر وقرروا ألا تكون هناك مفاوضات صلح انفرادية بل لابد من اشتراك الجميع فيها . واعتقدت انجلترا أن العمل الذى قامت به سنه ١٧٩٨ حين دمرت الأسطول الفرنسى فى أبو قير يكفى وأنها سترابط فى البحر المتوسط ، وأرسلت بعثة عسكرية لتنظيم الجيش التركى وأورسلت لها شحنات من الأسلحة لتعزيز الجيش ، أما نصيب تركيا فقد أتفق على أن تقوم بأرسال جيش برى لأخراج الفرنسيين وأرسلت أيضا منشورا لأعلان الجهاد فى مصر ، وشجعت الممائيك على تقديم المساعدة الكافية ، وأمرت قوات الشام بقيادة الجزار بالتوجه إلى مصر لمهاجمة الفرنسيين ، أما روسيا فقد اعتقدت أن مصر بعيدة عنها ويجب عليها لذلك أن تحصر جهدها فى البحر المتوسط وذلك بأن تشترك مع العثمانيين فى إخراج الفرنسيين من الجزر الأيونية . وقام الأنجليز باحتلال مالطة . وكانت السياسة البريطانية فى ذلك الوقت تحرص على أن تبقى مصر ولاية عثمانية ومنع وقوعها فى أيدى أى دولة أجنبية قوية لأنها كانت تخشى أن تقدم هذه الدولة فتتخذ من موقع مصر الجغرافى سلاحا ضد الأنجليز . وظلت هذه هى أسس السياسة الأنجليزية طوال القرن التاسع عشر ثم بدأت تغير من موقفها هذا وعلى الأخص بعد فتح قناة السويس واحتلال فرنسا للجزائر وقيام إيطاليا فى البحر المتوسط .

ثورة القاهرة الأولى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ م

أن لثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين أسبابا عديدة وهذه الأسباب ترجع فى المقام الأول إلى كراهية المصريين للحكم الفرنسى فهو يمثل احتلال أجنبيا لبلادهم ولم تفلح تحايلات بونابرت على الشعب وتقربه فى القضاء على ذلك الكره ثم أن سلوك بونابرت كان متناقضا . فمع أنه تحبب إلى الشعب المصرى وتظاهر بحبه للأسلام وشارك فى الأعياد والمناسبات وتحبب إلى العلماء وأنشأ الديوان من علماء الأزهر إلا أنه من ناحية أخرى لم يقبض على ناصية جنوده الذين نهبوا الثروات والقرى وأعتدوا على الحرمات وعلى بيوت الناس .

ثم هو أخذ ينعى على المماليك سفههم وظلمهم وأخذ ينعى عليهم ضرائبهم العالية ومع ذلك فقد فرض هو ضرائب عجز المصريون عن الوفاء بها . فقد فرض على سكان القاهرة ضريبة عالية فى شكل سلفة أجبارية قدرها مائة ألف جنيه وعلى الرغم من معارضة الديوان وتوسطه فى تخفيضها فأن بونابرت لم يقبل ، كما فرض على تجار الأسكندرية ٣٠٠ ألف فرنك وعلى تجار رشيد ١٠٠ ألف فرنك وعلى تجار دمياط ٥٠ ألف فرنك وعلى تجار المنسوجات فى القاهرة ٦٠ ألف ريال نقدا و ٤٠ ألف ريال ملابس وأحذية للجنود وعلى تجار البن والبهار فى القاهرة ٢٠٠ ألف ريال وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب من الأقاليم ١٠٠ ألف ريال وعلى تجار خان الخليلى ١٠ آلاف ريال وعلى وكالات الصابون ١٠ آلاف ريال وعلى وكالات الفاكهة ٦ آلاف ريال والسائقين ١٥ ألف ريال وعلى تجار السكر ١٠ آلاف ريال وعلى تجار الأقمشة فى الغورية ١٥ ألف ريال .

كما أن بونابرت أجبر نساء المماليك على أفتداء أنفسهن بالمال كما قطع رواتب الأوقاف من مستحقيها الفقراء واستولى الفرنسيون على بعض المبانى بحجة حاجتهم إليها كما هدموا أبواب الحارات وبعض المساجد والمحال لتجميل القاهرة كما كانت سياستهم فى تسجيل العقود والمواليد والوفيات وفرض الرسوم نظير ذلك سببا فى زيادة غضب المصريين لأنهم لم يكونوا معتادين على هذه العادات . يضاف إلى كل هذا ممارسة الفرنسيين لبعض العادات مثل إقامة الحفلات والرقص وشرب الخمر وهذه الأفعال لم تكن تتفق مع تقاليد وعادات المصريين ومع دينهم .

ويحكى لنا الجبرتى أن المصريين قد شكلوا لجنة للثورة تديرها وتنشر دعوتها وتنظمَ صفوفها وأسندت رئاستها إلى الشيخ محمد الأنور السادات وكان نابليون يشك فيه وأنه رئيس للثورة ولكنه لم يرد القضاء عليه نظرا لمنزلته الكبيرة فى نفوس الناس وأجتمعت قيادة الثورة فى ليلة الأحد ٢١ أكتوبر سنه ١٧٩٨ لرسم خطه الثورة وكان أعضاء اللجنه ثلاثين عضوا وأتفقوا على بدء الثورة فى اليوم التالى .

أما حوادث الثورة فقد بدأت بأقفال الحوانيت ودعوة التجار والصناع للذهاب إلى مركز القيادة لرفع أصواتهم أحتجاجا على الضرائب الجديدة وفي يوم ٢١ أكتوبر كانت القاهرة في حالة هياج عظيم وخطب العلماء في جموع الناس وحمل الناس العصى والأسلحة وبدأت تصل الوفود من القرى المجاورة وذهب الناس إلى بيت القاضى التركى إبراهيم أدهم وأجبروه على السير معهم إلى بونابرت لمطالبته بألغاء الضرائب ولما رأى القاضى خطر التجمهر ورغب في العودة ضربه الناس .

ثم أن حاكم القاهرة ديبوى Dupuy خرج ومعه قله من الجند وياوره الخاص السير بودون وسار إلى بيت القاضى ليتعرف حقيقة الأمر ولما قابل المتظاهرين وحاول مهاجمتهم ضربوه بالحجارة والرماح وقتلوه وذاع خبر مقتله فقوى عزم الثوار واستولوا على جهات باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية وأقاموا المتاريس في الشوارع والحارات وخرج الجنود الفرنسيون يطلقون على المتظاهرين وطفقت جميع الناس تحتشد في جهة الإزهر وبداخله وحوله وبلغ عددهم أكثر من ٥٠ ألفا وعاد بونابرت على عجل عندما علم بخطورة الحال وكان يتفقد استحكامات مصر القديمة والروضة ولما تأكد من خطورة الثورة أمر بنصب المدافع على المقطم وعلى القلعة ونظم قيادة لجنوده في الأزبكية وأقام مخفرالهم لمراقبة الجماعات المجاورة وسير الطلائع المسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ووضع المدافع في الشوارع الهامة واستغل مجيء الليل في نصب مدافعه على سفح المقطم كما استغله المصريون في الذهاب إلى القرى يستصرخون الناس على الثورة فجاء ثوار من قليوب على رأسهم سليمان الشواربى شيخ قليوب كما جاء ثوار من مختلف الضواحى ولكن الجنود الفرنسيين رتبوا قواتهم للحيولة دون أنحياز سكان الضواحى لثوار القاهرة وحاصر بونابرت الثورة في القاهرة وعزلها عن البلاد الأخرى المجاورة .

ومن ظهر اليوم التالى ٢٢ / ١٠ وحتى الساعة الثامنه مساءا استمر الفرنسيون يضربون الأزهر والحى المجاور له بالمدافع فقتلوا الكثير من الناس وأوشكوا على هدم الجامع الأزهر وانهالت القنابل على الجهات المجاورة كالصنادقية والغورية والنحاسين فألقت الرعب في قلوب الناس ، وأحتل الفرنسيون الشوارع المتصلة إلى الإزهر فحصر الناس بين نارين ، وهكذا لم ينفع الحماس أمام قوة الحديد والنار وذهب الناس يطلبون من بونابرت العفو .

وقدرت خسائر الفرنسيين بنحو ٢٠٠ قتيل منهم الجنرال ديبوى والكولونيل سلكوسكى وبعض الضباط والمهندسين وقدرت خسائر المصريين بنحو أربعه آلاف شهيد . وهكذا قضت هذه الدماء التى سالت أنهاراً في شوارع القاهرة على كل آمال بونابرت في اكتساب قلوب المصريين ونزلت الجنود الفرنسية إلى الأزهر ورابطت فيه

ونهبت الكثير من البيوت بحجة التفتيش عن سلاح حتى اضطر سكان تلك الجهات إلى الرحيل بعيدا والنجاه بأنفسهم .

وبدأ الفرنسيون سلسلة من الأنتقام الرهيب وأعدموا ثمانية من لجان الثورة بعد سجنهم بالقلعة كثيرا من النساء والقوا بجثثهن فى زكائب فى النيل وحاكم بونابرت خمسة من علماء الأزهر وسجنهم فى القلعة ، وفى اليوم الرابع ذهب وفد من العلماء إلى بونابرت يطلب العفو فأخذ يعده دون أن يجيبهم وطلبوا إخراج الجند من الأزهر فأجابهم إلى ذلك وأبقى سبعين جنديا فى منطقة الأزهر للمحافظة على النظام وأستولى الفرنسيون على المساكن حول الأزبكية ليقيموا فيها لأنهم لم يعودوا يأمنون على أرواحهم وأصدر بونابرت أمرا بحظر أصلاح السلاح عند المواطنين .

وكانت ثورة القاهرة هذه سببا فى انتزاع الثقة التى كانت قائمة بين الجنود والأهالى وباعدت إلى الأبد بين مصر والجيش الفرنسى ، ولم يستطع الجنود الفرنسيون أن يسيروا فى الشوارع بغير سلاح ونفروا من المصريين وعاملوهم بقسوة وشرعوا فى أحصاء الأملاك والمطالبة بالضرائب وساد الأرهاب جو المدينة وأبطل بونابرت عقد الديوان وأنصرف إلى تحصين القاهرة فأقام القلاع على التلال المحيطة بها ونصب عليها المدافع وهدم الكثير من الأماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وبلغ ما أقامه من القلاع تسعه عشر قلعة .

الحملة الفرنسية على الشام

بدأ العثمانيون والأنجليز يعملون لأخراج الفرنسيين من مصر وقررت الحكومة العثمانية إرسال جيشين لأخراج بونابرت من مصر أحدهما يأتى من المشرق من الشام والآخر يأتى من الشمال وتحمله السفن الأنجليزية أو العثمانية وتهبط به شمال الدلتا ، وعلم بونابرت بذلك فقرر القيام بحملته على سورية قبل أن يتمكن الجيش العثمانى من الأغارة على مصر وقاد هو بنفسه هذا الجيش وتعددت الآراء حول غايته من هذه الحملة ، وبعض المؤرخين يغالى فيها لدرجة أن بعضهم يقول أنه أراد التوغل فى آسيا والوصول إلى الهند وبعضهم ذكر أنه أراد أن يتجه إلى آسيا الصغرى ومنها إلى القسطنطينية وبعدها يتوغل فى أوربا حتى يصل إلى باريس وطبعا لايعقل هذا لأن عدد الجيش الذى صحب بونابرت كان عشرة آلاف وهو لايكفى لفتح هذه البلاد وضمان حكم الفرنسيين فيها . ثم أن هناك معلومات تفيد أن بونابرت كان عازما على الرجوع الى فرنسا فى الوقت المناسب وكان ينتظر تطور الأحداث فيها . ومن ثم فلا يمكن أن يقوم بفتوحات عظيمة وهو فى نفس الوقت يعزم على العودة إلى فرنسا .

ولذلك فالأسباب الحقيقية لهذه الحملة تكمن في أن بونابرت أراد الدفاع عن مصر ضد العثمانيين وتوطيد الحكم الفرنسى فيها لأنه كان كما قلنا اتفقت الدولة العثمانية مع الروسيا وانجلترا وتحالفوا على إرسال قوات من الشام لغزو مصر فرأى بونابرت أن يقاوم هذه الجهود فيذهب إلى الشام ويهزم قوات العثمانيين ويمنع تقدمهم إلى مصر وقد يستطيع أن يجبر الدولة العثمانية على ترك حلفائها ، كذلك كان الأسطول الأنجليزى يحاصر شواطى مصر وكانت السفن الحربية فى ذلك الوقت تحتاج إلى الماء الصالح للشرب والمؤن اللازمة وتحتاج إلى الموانى تحتمى بها من اشتداد الزوابع ولو أن بونابرت استولى على الشام وسقطت موانى عكا ويافا وحيفا فى يد الفرنسيين فانه يحرم الأنجليز من هذه المرافق الهامة ويصبح حصار الأنجليز لمصر صعبا . وكان لهذا الاعتبار أهمية كبيره فى ذلك الوقت وذكر بونابرت فى تقريره لحكومة الأدارة فى ١٠ فبراير سنه ١٧٩٩ (..... منع الاسطول الانجليزى من التموين الذى يحصل عليه من سوريا وذلك بالأستفادة من الشهرين الباقيين من الشتاء حتى يمكن تحويل كل الشاطىء الى صديق لى بالحرب والمفاوضات .) .

وقد خرج بونابرت من مصر فى أوائل فبراير وفى ٢٠ منه أحتل العريش بعد أن هزم الجيش الثانى العثمانى بها ثم واصل زحفه إلى يافا فحاصرها وأستولى عليها فى ٧ مارس بعد معركة شديدة ثم سلمت له حاميتها وعددها أربعة آلاف وفى يافا بدأ يظهر الطاعون بين جنوده ، وهنا ارتكب بونابرت خطأ يحاسبه عليه التاريخ مر الحساب إذ أنه قتل هذا العدد الكبير من الأسرى المغاربة والترك والمماليك مخالفا بذلك كل القوانين والنظم المعروفة فى الأمم المتمدينة ، وقد قتل هؤلاء الأسرى لأنه ضاق بهم ذرعا ووجد أنهم موضع مضايقة له فلو أرجعهم إلى مصر لاحتاجوا إلى قوة تحرسهم ولو أبقاهم لاحتاج إلى قوة تحرسهم ولاحتاج لأطعامهم فى الوقت الذى يحتاج فيه هو إلى الطعام واختصر الأمر وأطلق عليهم هو بنادقه فقتلهم جملة .

ثم تقدم الفرنسيون إلى حيفا ولم يجدوا مقاومة جدية وساروا بعدها إلى عكا مقر الحاكم العثمانى أحمد باشا الجزار فحاصرها وكانت مدينة محصنة وجعلها بونابرت هدفا لهجومة لأنها تفتح الطريق أمامه إلى سورية وتقضى على نفوذ الجزار فى تلك الجهات فبدأ حصاره لها يوم ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ ولكنه فشل فى التغلب عليها وأرتد عنها وكان ارتداده هذا هو أول هزيمة له فأثر هذا فى نفسه تأثيرا كبيرا وخشى عواقب ذلك فى مصر . وكان بونابرت كلما أحرز نصرا أرسل البشرى إلى القاهرة وأرسل الأعلام التركية والمملوكية لتنصب على مساجد القاهرة والجامع الأزهر .

ويرجع فشل بونابرت فى حصارة لعكا إلى أن الفرنسيين استهانوا بعكا فى اول الامر فحفروا عدة خنادق غير عميقة ولم يكن من الممكن الاحتماء بها من النيران ،

كذلك كان موقع عكا حصينا فلم يتمكن الفرنسيون من الإحاطه بها من جميع الجهات فهى تقع على رأس جسر بارز فى البحر ولذلك فقد حوصرت من جانب واحد وهو الجانب البرى ، ولما حاولوا التقدم تعرضوا لهجوم السفن الراسية فى البحر ، كما لم يستطع بونابرت اتباع طريقة التجميع لأن المؤن كانت ترد الى المدينة بانتظام عن طريق سفن الاسطول الأنجليزى ، ولما حاول الفرنسيون التغلب عليها بسرعة ودك اسوارها والدخول اليها عنوة فشلوا .

كما ان الفرنسيون صحبوا معهم أدوات الحصار على تسع سفن فاستولى عليها السير سدنى سميت واستعملت ضد الفرنسيين وكانت هذه ضربة كبرى لبونابرت . إلى جانب أن سيدنى سميث ارسل الى الجزار مهندسا فرنسيا اشتهر فى بناء الاستحكامات الحربية وهو فيليبيو Phéllipeau كان زميلا لبونابرت فى المدرسة الحربية ومن اشد منافسية وهو من الأشراف الذين هاجروا من بلادهم وانضموا الى الحلفاء وإلى هذا المهندس يرجع الفضل فى استمرار مقاومة عكا وقوة تحصينها ، وكانت نفس هذا المهندس ممتلئه حقدا على بونابرت وجيوش فرنسا الحديثة . ومن ثم كان الحصار قليل الجدوى .

وعندما طال الحصار ارادت تركيا أن تحصر القوة الفرنسية بين نارين وتضطرهم الى رفع الحصار عن عكا فأرسلت قوة بقيادة والى دمشق فأرسل بونابرت قوة قليلة العدد بقيادة كليبر لملاقاتها وكادت تلحق الهزيمة بكليبر فأسرع اليه بونابرت وأحرز النصر فى تل طابور بالقرب من بحيرة طبرية وحدث بعد انتصار بونابرت فى هذه المعركة أن دخل دير الرهبان الفرنسيسكان وطلب من رئيس الدير أن يقيم الصلاة بصفة رسمية شكرا لله على انتصاره ودخل هو نفسه الكنيسة وجثى على ركبته أثناء الصلاة فلما علم سميث بمساعدة المسيحيين الفرنسيسكان له بعث اليهم بعدة منشورات من التى وزعها بونابرت على المصريين ومنها منشورة الاول الذى يقول فيه أن هدم أركان الدين المسيحى وشل عرين البابوية فدهش السوريون المسيحيون وأمتنع اللبنانيون عن توريد الخمور والبارود والمساعده له .

ولما وجد بونابرت ذلك قرر رفع الحصار والعودة إلى مصر . وقد لاقى وحملته مصاعب جمة أثناء رجوعهم إلى مصر عن طريق الصحراء بسبب تفشى الطاعون وشدة الحرارة وفى أثناء عودته حصلت مسألة تسميم الجرحى فقد طلب بونابرت من كبير أطباء الجيش تسميم الجرحى الميئوس من شفائهم ولكنه رفض القيام بهذه المهمة وقال أن مهمته هى انقاذ الجرحى وقد قبل أحد صيادلة الجيش القيام بهذا العمل بأن اعطاهم مخدرا وترتب على ذلك أن حقد الجيش الفرنسى على هذا الصيدلى ولم يتمكن من العودة إلى فرنسا وظل طول حياته فى مصر حتى بعد جلاء الفرنسيين عنها ولكن

هؤلاء الجرحى لم يموتوا رغم أخذهم هذا المخدر . وكانت النتيجة النهائية لحملة الشام أنها نجحت فى تحقيق الأغراض التى من اجلها قامت ماعدا مسألة حرمان الانجليز من الشواطىء الشامية ، ولكن الفرنسيين نجحوا فى إفساد تدابير العثمانيين وتعطيل هجومهم على مصر .

موقعة أبى قير البرية

بعد عودة بونابرت من الشام شرع فى تنظيم البلاد واصلاح حالها لأن حالتها كانت قد ساءت لاضطراب الأمن ونشوب الفتن المختلفة فى الاقاليم ولكن حدث فى ذلك الوقت أن أغارت القوات البحرية التركية على مصر سنة ١٧٩٩م أما الحملة البرية من الشرق فقد تعطلت لسبب حملة بونابرت على الشام ، وكان الهجوم البحرى بالاتفاق والتعاون مع انجلترا ونزل الجيش التركى فى ساحل أبى قير شرق الاسكندرية تحت حراسة الاسطول الانجليزى الذى كان يرأسه سدنى سميث ، وكان يقود الحملة مصطفى باشا ، وبدلا من تقدم هذا الجيش نحو الدلتا عسكر فى أبى قير بحجة حاجة الجنود الى الراحة من السفر ، أما بونابرت فجريا على خطته ابتدأ فى جمع الفرق الفرنسية المتفرقة فى كافة جهات القطر فى نقطة واحدة . وبدأ زحفه ووجد أن مصطفى باشا قد استولى على قلعة أبى قير وتحصن بها فأخذ بونابرت يهاجمه بعد أن نظم جيشه وتدخل الاسطول الانجليزى فى المعركة وأخذت كفة الترك ترجح فى البداية ولكن نابليون سرعان مانظم صفوفه وأحرز النصر ووقع مصطفى باشا اسيرا فى هذه الواقعة (موقعة أبو قير البرية) فى اغسطس سنة ١٧٩٩ اما انتصار الفرنسيين فيرجع الى سوء تصرف الترك لأن قائدهم وعد بمكافأة مالية لمن يأتى أو يحضر رأس فرنسى فانهمك الجنود العثمانيين فى قطع رؤوس الفرنسيين القتلى واختلت صفوفهم وانتهز الفرنسيون الفرصة وأحرزوا النصر ثم دخلوا على القائد التركى فى خيمته وبذلك استطاع بونابرت بحسن تدبيره أن يفسد تدبير الترك فى حملتهم على الشام من جهة وعلى مصر من جهة أخرى .

وبينما كان بونابرت يتفاوض مع سيدنى سميث لتبادل الاسرى أرسل له مجموعة من الصحف الأوربية التى كانت تفيض بأنباء الهزائم التى لحقت بفرنسا وفقدانها للأراضى التى فتحتها ويقول البعض أن سيدنى سميث كان يريد بذلك إخراج نابليون من مصر لأنه عندما يعلم حالة فرنسا سيعود اليها ويستطيع سميث أن يقبض عليه فى عرض البحر ولكن هذا الكلام مشكوك فيه . فسميث خياله اوسع من هذا وانما هى مجاملة القواد لبعضهم حتى فى حالة الحرب . وكانت أهم مجاملة يؤديها القائد الانجليزى للقائد الفرنسى هى اخباره بأخبار بلاده المقطوعة عنه .

ولما اطلع بونابرت على هذه الأخبار عزم على ترك مصر والعودة الى فرنسا لإتمام أهدافة الاهلية وهى الاستيلاء على السلطة فى فرنسا . وبالفعل دبر هذا الخروج ولم يخبر به أحد حتى الاشخاص الذين اختارهم للعودة معه . وقد غافل الانجليز وتمكن من الخروج من الاسكندرية والوصول الى فرنسا وعقب وصوله استطاع الاتصال بالافراد الناقمين على حكومة الادارة وتمكن من اسقاط حكومة الادارة واقامة النظام القنصلى بعد القيام بانقلاب بروميير سنة ١٧٩٩ فأصبح هو أحد ثلاثة قناصل يتولون السلطة وكان هو القنصل الاول .

كليبر والحملة الفرنسية فى مصر

ترك بونابرت قيادة الحملة الى كليبر وذلك لكفاءته وجدارته وكان كل منهما يكره الاخر ، وترك بونابرت لكليبر تعليمات ملخصها الاحتفاظ بمصر ما أمكن وسمح له بالدخول فى مفاوضات مع الدولة العثمانية لاعادة مصر اليها لو استمر المرض منتشرا بين الجنود ، ولو استمرت فرنسا عاجزة عن انقاذ الحملة ، ولكن اذا أدى الامر الى الانسحاب فيجب على كليبر ألا ينفذ ذلك الا بعد عودة السلام الى اوربا .

أما كليبر فقد كان ناقما لخروج بونابرت أولا : - لانه كان يعتقد فى فشل الحملة وثانيا - لانه كان يكره الاقامة فى مصر كسائر الفرنسيين وكان يرى أنه من الافضل العوده للعمل على انقاذ بلاده من الاخطار المحدقه بها بدلا من تعرض هذا الجيش الكبير للامراض والاوبئه وهجمات . لهذا كان كليبر يشعر بيأس شديد لما كان يواجه الحكم الفرنسى فى مصر من مصاعب منها حاجته الى السلاح والذخائر . وحاجة الجيش الى الجند الجدد ثم لسخط المصريين على الفرنسيين وترقبهم الفرص السانحة للثورة ، وكان كليبر كذلك يكره بونابرت لنواياه الدكتاتورية لانه كان من أنصار الجمهورية .

كتب كليبر الى حكومته تقريرا مسهبا يصف ميه حالة الحملة وملاء هذا التقرير بعبارات كلها يأس وطلب فى نهاية التقرير السماح له باجراء المفاوضات مع الترك فورا للجلاء عن مصر ، ولسوء حظه وقع ذلك التقرير فى يد الانجليز فشروه فى انجلترا وذلك دعاية ضد الفرنسيين ، ولم ينتظر وكتب للترك يبدى استعداده لان يدخل معهم فى مفاوضات ورد عليه الترك أن قواعد الدين تستلزم النظر فى الامر اولا . مع أنهم كانوا مسرورين فى حقيقة الامر من هذا العرض .

وكان كليبر يهدف الى التفاوض مع الترك رأسا وتوسيع دائرة المفاوضات للانتهاء الى عقد صلح بين فرنسا وتركيا ولكنه لم يكن يملك الكلام باسم فرنسا وانما كان يجوز له التفاوض فيما يختص بمصر فقط وتدخل سدنى سميث وأوضح أنه لا يجوز لكليبر أن يتكلم عن فرنسا وأن تركيا متحالفة مع انجلترا وروسيا فى معاهدة لا تسمح لتركيا بعقد صلح انفرادى وقال أيضا كيف يسوغ لفرنسا أن تسحب جنودها من مصر دون الاتفاق مع الانجليز لأن عبور البحر المتوسط كان مستحيلا بغير الاتفاق معهم . وكانت هذه العوامل تجعل المفاوضات مع الترك عديمة الفائدة ومع ذلك فقد بدأت المفاوضات تاره فى خيمة الصدر الاعظم وتاره فى أحدى سفن سيدنى سميث المسماه Tiger وكانت قد ألقت مراسيها بالقرب من العريش .

أما العوامل التى دفعت سميث الى التدخل فى هذه المفاوضات . أولها : اعتقاده أنه من الخطر ترك العثمانيين مع الفرنسيين وحدهم لأنه يخشى من أن يتمكن الفرنسيون من استمالة الترك اليهم والترك فى ذلك الوقت كانوا يخشون الروسيا لانها بعد دخولها فى التحالف الدولى الثانى اهتمت باخراج الفرنسيين من الجزر الايونية ، وسمح الترك للروس بامتياز خطير وهو المرور من البسفور كما أن الترك كانوا مشهورين بقبول الرشوة والهدايا . وخشى سدنى بذلك من حدوث أتفاق مجحف بمصالح روسيا وانجلترا . ولذلك رأى منع الباب العالى من أن يرتمى فى أحضان الجمهورية الفرنسية ومن أعطاء الفرنسيين كل ما يطلبون فى سبيل التخلص منهم لجهلهم السياسى وقله درايتهم .

وثانيها : – أعتقاد سميث أن تركيا لن تنجح حربيا فى إخراج الجيش الفرنسى من مصر بالقوة والطريقة الوحيدة لنجاح تركيا هى أن ترسل انجلترا قوة حربية لمساعدتها فأراد أن يحقق بالمفاوضات ما يعتقد أن الترك عاجزون عن تحقيقه بالحرب وزاد سوء ظنه فى الترك عندما أتصل بهم ورأى الفساد والانحلال الموجود فى الجيش كما أدى اختلاطه بالصدر الاعظم يوسف ضيا باشا الى فكره عدم كفاءته .

وثالثها : – أن سميث كان يرى أن الجند الترك لا تدخل مصر إلا للسلب والنهب والسرقة وضربة واحدة من كليبر تمزق شمل الجيش التركى ورأى أنه مادام الفرنسيون يريدون الخروج فلا داعى لتعويض الانجليز للمرض والأوبئه .

ورابعهما : – أنه مع اعتقاده فى أن خروج القوة الفرنسية من مصر زيادة لقوة الجيوش الفرنسية فى أوربا إلا أنه يرى إمكانية تشتيت هؤلاء الجنود فى موانى أوربا المختلفة وعدم تجميعهم بحيث يصعب على حكومة فرنسا تنظيمهم فرقا واعادة الروح العسكرية إلى صفوفهم ونفوسهم .

خامسها :– كان هناك سبب شخصى وهو اعتزاز سميث بذكائه وكفائته السياسية وكان يرى أنه لم يخلق ليقود بعض السفن الحربية فقط وانما يمكن أن يكون له نصيب فى السياسة فهو يطمع فى أن يضيف إلى مركزه الحربى دورا سياسيا وفعلا رفعته حكومته إلى وزير مفوض لترقية مركزه فى الدوائر العثمانية ولكن لم يكن قصدها أن يتولى المفاوضات بنفسه بل يشترك فيها فقط .

أما وجه نظر الأنجليز فى ذلك الوقت بالنسبة لجلاء الحملة الفرنسية فهو اذا كان الفرنسيون يريدون الخروج من مصر فانما يتم ذلك بتسليمهم انفسهم كأسرى حرب ويحررون من سلاحهم أما العثمانيون فقد رحبوا فعلا وفى الباطن برغبه كليبر لانهم هزموا فى الشام وفى سواحل مصر وأخفقت محاولات نزولهم فى دمياط ، وبعد المفاوضات عقدت اتفاقية العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ وتقضى بجلاء الفرنسيين عن

مصر بكامل سلاحهم وعتادهم وعودتهم الى فرنسا على نفقه الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم احد فى البحر . وشرع الفرنسييون فعلا فى أخلاء بعض المواقع استعدادا للجلاء كما شرع العثمانيون يتأهبون لدخول مصر ونزلت قوة انجليزية فى ميناء السويس ولم يكن هذا الاتفاق فى حقيقته معاهدة صلح بين انجلترا وتركيا بل كان يقتصر فقط على مبدأ الجلاء وتنظيم الجلاء والمدة المقررة له وليس له علاقة بإعادة السلام بين فرنسا والدولة العثمانية .

وبينما كان كل شىء يسير فى هذا السبيل أذ جاء بلاغ من القائد العام الانجليزى فى البحر المتوسط كيث Keith يقرر أن الحكومة الانجليزية لا تسمح إلا بخروج الفرنسين كأسرى حرب فأعتبر كليبر أنه فى حل من اتفاق العريش ورحب بذلك بعد أن بدأ يشك فى صحة عمله ، ولكنه كرجل شريف أراد أن يحترم كلمته التى أعطاها فى هذا الاتفاق ، أما وقد جاءته الأخبار بسقوط حكومة الأدارة وأن بونابرت أصبح القنصل الأول والحاكم الفعلى لفرنسا فانه لابد سيحاكمه ويعتبر خروجه من مصر هروبا ، وأستطاع كليبر أن يسترد الاماكن التى تركها وأصدر منشورا لجيشه ذكر فيه التقرير الانجليزى ودعا الى حمل السيف للرد عليه .

وأصبح موقف سدنى سميث فى هذا الوقت حرجا لان المفاوضات جرت على سفينته وجعلت كليبر يعتقد أن انجلترا توافق على خروج الفرنسيين ثم جاء البلاغ الأخير يناقض ذلك وحاول سميث بهذا أن يهدىء كليبر من ناحية الدولة العثمانية ، ورجاه أن ينتظر قليلا لان الحكومة الانجليزية لا تعرف أن الاتفاق قد تم فعلا وأنه بعد وصوله اليها لابد وأن توافق عليه . وعارضت تركيا فى الانتظار ورفضت والسبب فى ذلك أن الصدر الاعظم لم يكن قادرا على إخضاع جيشه وهو معسكر فى صحراء العباسية فرغب فى الدخول الى القاهرة ويعتبر نفسه فى حالة جهاد دينى ولذلك كانوا يضغطون على الصدر الاعظم وقد وصف بعض الانجليز حالة الفوضى فى جيش الصدر الاعظم بأنه كان يصدر الاوامر والرصاص ينطلق على خيمته ليلا . ووقعت المناوشات بين الترك والفرنسيين ثم اشتبكوا فى موقعة المطرية (عين شمس) فى ٢٠ مارس سنه ١٨٠٠ وسحق كليبر الجيش التركى وهرب العثمانيون الذين بقوا على قيد الحياة الى الشام وعلى رأسهم الصدر الاعظم ، وأعتقد كليبر أن هذه الموقعة قضت على اتفاق العريش ، وفى أثناء سير المعركة تمكن بعض المماليك من دخول القاهرة وأثاروا المصريين فقاموا بثورة جديدة كانت أعنف من ثورة القاهرة الاولى ولما انتهى كليبر من الجيش العثمانى التفت الى القاهرة فوجدها تشتعل بنار الثورة .

ثورة القاهرة الثانية ٢٠ مارس ١٨٠٠

شبت هذه الثورة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعركة عين شمس قائمة وتزعمها العلماء وعلى رأسهم السيد محمد السادات واحمد المحروقى والشيخ الجوهرى ومصطفى البشتيلى وكان مركزها بولاق ، وكان البشتيلى محل شك الفرنسيين وقد سبق أعتقاله وضبطت الأسلحة فى وكالته التجارية ، وهذه الثورة كانت أعنف وأكثر استعدادا من الثورة السابقة ذلك أن الناس حملت البنادق والسيوف والرماح وبسرعة أقيمت مصانع البارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، وأنشأوا مصنعا لاصلاح الاسلحة والمدافع ومعملا آخر لصنع القنابل وصب المدافع من حديد المساجد والحوانيت وآلات الموازين وبقايا القنابل المتساقطة من مدافع الفرنسيين .

وفى بداية الثورة حاول الثوار مهاجمة معسكر الفرنسيين فى الأزبكية فى نحو عشرة الآف ثائر فردتهم المدافع وبسرعة أمتدت الثورة فى أنحاء القاهرة وتحصن الناس فى الشوارع والميادين والاسطح وأقاموا المتاريس واشترك فى الثورة الرجال والنساء والأطفال وترددت الهتافات العالية من نحو خمسين ألف ثائر فكانت تصم الآذان وعاد الثوار لمهاجمة معسكر الأزبكية وكان معهم ثلاثة مدافع عثمانية تلقى صنج الموازين لعدم وجود قنابل وظل القتال يومين ولكن المدافع الفرنسية الشديدة أطلقت على أحياء المدينة المختلفة وفى اليوم التالى وصل المدد الفرنسى بعد الظهر واكتسح الشوارع حتى معسكر الأزبكية تغذية الحماسة التى جاءت عقب الانتصار على العثمانيين فى عين شمس ، وظلت الثورة مشتعلة فى القاهرة حتى وصل كليبر يوم ٢٧ مارس ووجد أن القاهرة وضواحيها تغطى بنار ثورة عامة عنيفة وأن الشوارع والحارات محصنة بالمتاريس وأن الثوار اتخذوا من الوكالات والمخازن قلاعا يتحصنون بها .

وتختلف هذه الثورة عن ثورة القاهرة الأولى فى أنها كانت أعنف وكان كليبر غائبا عن القاهرة فى بدايتها ولأن العرب والمماليك والأتراك اشتركوا مع المصريين فيها . ووجد كليبر أنه من الصعب اكتساح الشوارع فلجأ الى الحيلة وأخذ يفاوض زعماء الترك والمماليك ولم يلتفت إلى زعماء الشعب المصرى الذى تنبه الى هذه الحيلة وفطن الى أن زعماء الترك والمماليك يعبثون بهم فأخذ دعاة الثورة يحرضون الاهالى على الاستمرار وعدم الالتفات الى التفاوض ونادوا بخيانة الترك والمماليك .

وبينما كانت الثورة على أشدها وقع مراد بك الصلح مع كليبر فى ٥ ابريل سنة ١٨٠٠ على أساس أن يحكم الصعيد تحت سيادة فرنسا وبدأ يسعى لضم المماليك فى القاهرة الى صفوفه ففشل وحينذاك اشار على كليبر بحرق القاهرة . ولما كانت المدافع الفرنسية تصب قنابلها على أحياء المدينة وتصل الامداد تباعا حتى احاط الفرنسيون بالقاهرة شمالا وشرقا وبدأ الفرنسيون يتقدمون من جهة باب الحديد وكوم أبو الريش والحسينية وباب النصر .... وشيئا فشيئا بدأت القوات الفرنسية تتقدم حتى كان يوم ١٠ ابريل إذ بدأ كليبر يوطد سلطته واستطاع فى ١٢ منه أن يحتل كوم أبو الريش بالفجالة وكانت نقطة ارتكاز قوية للثوار ووصل بليار من دمياط وعسكر أمام بولاق معسكر الثورة الرئيسى وفى يوم ١٤ ابريل قرر كليبر الهجوم على بولاق مع مطلع شمس اليوم التالى بدأ الهجوم بالمدافع فتحطمت المتاريس والبيوت المحصنة اندفع الجنود يشعلون النار فى البيوت فطلب الاهالى التسليم وانتهز كليبر فرصة هذا الهلع الذى استولى على الاهالى وقام بالهجوم العام يوم ١٨ ابريل وكان كلما استولى على منطقة اشعل فيها النار فأحدث تخريبا رهيبا بالقاهرة ودفنت عائلات بأكملها تحت الأنقاض وخاصة فى أحياء الأزبكية والساكت والفواله والرويعى بولاق وبركة الرطلى وباب البحر والخروبى والعدوى وباب الشعرية ....

وعقد الصلح فى ٢١ من ابريل ووقف القتال الذى تعهد فيه كليبر بالعفو العام عن الاهالى واشترط الا يغادر أحد من الاهالى القاهرة للانضمام للعثمانيين . ولكن المصريون لم يكونوا يثقون فى كلام الفرنسيين فرحل بعضهم عن القاهرة حتى بلغ عددهم نحو ستة آلاف ثم سادت السكينة الوجه البحرى والقبلى وأصبح كليبر بعد قليل مسيطرا على الحالة . ثم عندما وجد أنه قد تمكن من الأمور أخذ يقتص بعنف من أهالى القاهرة ففرض على الناس ١٢ مليون فرنك وطلب منهم عشرين الف بندقية وعشرين الف طبنجة وعشرة آلاف سيف ثم صادر أملاك الزعماء وخاصة المحروقى . وفرض غرامات عالية على الشيخ السادات والصاوى ومحمد الجوهرى وفتوح وأعتقل العديد من الاهالى وفتش الفرنسيون المنازل وأخذوا يذلون المصريين واعتقلوا الشيخ السادات وضربوه وعذبوه وفرضوا علية غرامة فادحة ٨٠٠ ألف فرنك وظل فى معتقله حتى يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٠٠ حتى سدد هذه الغرامة .

كان هذا الانتقام الرهيب بلا شك عاملا على ازدياد سخط المصريين ومن بين العرب عامة من ثار لكرامته ولوطنيته وبعض المؤرخين يعزون الى الشيخ السادات أنه فكر فى الانتقام من كليبر وقتله ويذهبون الى أن سليمان الحلبى الذى قتل كليبر عاش فى الجامع الأزهر ثلاثين يوما يدبر لهذا القتل فكان من الطبيعى أن يعلم السادات بهذا . وفى يوم السبت ١٤ من يوليه ١٨٠٠ أودى سليمان الحلبى بحياة كليبر ليخلفه مينو فى قيادة الحملة .

مينو والحملة الفرنسية على مصر

تولى مينو قيادة الحملة فى مصر بعد مقتل كليبر ولم يكن ذلك لكفاءته وانما كان لانه أقدم الضباط فقط ، وسرعان ما وصل قرار بونابرت بتثبيته فى هذا المركز ، وكانت قلة كفاءته العسكرية سببا فى عدم كسبه لاحترام الضباط والجند وذلك لانه قضى أكثر حياته العملية فى مناصب ادارية وكان مينو منذ وصول الحملة قد عين حاكما لرشيد حتى يونية سنه ١٨٠٠ ثم نقل بعدها قائدا لمنطقة القاهرة وقد أنف أغلب الضباط من العمل تحت رايته ولم يرتاحوا لارائه وسياسته فى حكم البلاد .

فقد كان من الرجال الذين استهواهم حب الاستعمار وكان يرى أن مصر خير مستعمرة تستطيع بتنوع مصادرها ومواردها تعويض فرنسا عما فقدته من مستعمرات ، وكان على العكس من كليبر يثق فى نجاح الحملة وفى قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمصر والقيام على استغلالها وظهر تحمسه للبقاء فى مصر منذ كان حاكما لرشيد فقد أرسل لبونابرت التقارير والمذكرات عن موارد مصر والسياسة التى ينبغى انتهاجها لحكم المصريين والوسائل اللازمة لايجاد علاقات تجارية بين مصر وداخل افريقية وفى رشيد أعلن اسلامه وتزوج السيدة زبيدة أبنة محمد البواب أحد أعيان رشيد . وأدى هذا الى كره الجند له .

وقد باشر مينو سياسته القائمة على الظلم والجبروت ففرض الضرائب والاتاوات الفادحة واشتد فى جمعها فكرهه المصريون بشده . وبعد تولى مينو القيادة أعلن الضباط والجند عزمه على البقاء فى مصر ووصف اتفاق العريش بأنه خيانه وتسليم من كليبر وكان هذا مدعاة لحدوث الانقسام والفرقة بين الجيش فريق يحبذ الجلاء وفريق يحبذ البقاء وهكذا أدى هذا إلى الضعف والتعجيل بهزيمه الفرنسيين .

وكانت انجلترا قد وافقت على مرور القوات الفرنسية فى البحر المتوسط ولكن مينو أعلن عن طريق السير سيدنى سميث أن أمر الجلاء من اختصاص الحكومة الفرنسية وحدها وأنصرف مينو الى الاهتمام بمالية مصر لسد العجز المالى وجدد الديوان الذى أهمل منذ موقعه عين شمس وثورة القاهرة الثانية وفكر فى الغاء نظام الالتزام وأصدار صحيفة عربية هى (النبيه) وسار فى حكمه على سياسة الحزم ولكن عدم توافر الثقه بينه وبين كبار الضباط كان ينغص عليه حياته ثم أن جهله بالامور الحربية جعله يرتاب فى آراء زملائه وفى أخلاصهم له ، ودبر الضباط مؤامره لخلعه ولكنه علم بها

واخرج بعض المتآمرين من مصر وطرد البعض الاخر من القيادة ، وحين تأكدت انجلترا من ضعف تركيا وعجزها صممت على الدخول فى الحرب بنفسها وفى أواخر عام ١٨٠٠ فكرت فى ارسال حملة لاخراج الفرنسيين من مصر أما السبب فى هذا التطور فى موقفها فيرجع الى أن الرأى العام فى أوربا كان يميل الى عقد الصلح فرأى الانجليز أنه لابد من استرداد مصر بحيث لا تبدأ مفاوضات الصلح فى أوربا ومصر فى يد فرنسا حتى لا يكون موقف المفاوض الفرنسى قويا اذ يحتمل أن يرفض بونابرت الخروج من مصر الا اذا نال عنها تعويضا فى منطقة أخرى .

جاءت الحملة الانجليزية بقيادة السيررالف ابركرومى sir Ralph Apercromy كما جاءت حملة أخرى من الهند من البحر الاحمر لتشترك فى محاصرة الفرنسيين ، وهكذا ظهر الترابط بين مصر والهند حيث أيقنت انجلترا أن وجود فرنسا فى مصر يهدد الهند ، وتقدم العثمانيون بالجيش الثالث بقيادة الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا وبذلك أصبحت مهددة ومحاصرة من عدة نواحى . وظهر حيئنذ موقف مينو ضعيفا وظهر سوء تدبيره وعناده مما لا يتفق مع خطورة الموقف اذ رفض الاستماع الى آراء الخبراء وأصر على تقسيم جيشه بدلا من جمعه لمواجهة الانجليز ومنعهم من النزول أو التقدم الى القاهرة وكان مينو يخشى تقدم الترك من الشام فترك الحاميات فى داخل البلاد كما ترك بالقاهرة قوة برية كبيرة وتوجه هو على رأس قوة أخرى الى الاسكندرية فوجد الانجليز والجيش بقيادة حسين باشا قبطان ولو كان مينو قد هاجم بكل قوته لكان أجدى له لأن عدوه زاد عن ١٢ ألف جندى .

وفى موقعه **كانوب** فى ٢١ مارس لقى الجيش الفرنسى هزيمة وأعتصم بعدها بالاسكندرية وأغلق أبوابها عليه مستعدا لتلقى الحصار وفقد الأنجليز قائدهم فتولى القيادة مكانه هتشنسن Huthinson وكان أمامه أحد أمرين أما التقدم الى داخل البلاد الى القاهرة أو التقدم الى الاسكندرية ورأى أن الحل الاول أفضل حتى – يستطيع مقابلة الجيش التركى القادم من الشام ورأى أولا أن يعزل مينو فى الاسكندرية عن بقية جيشه حتى لا يستطيع مغادرتها فقطع البرزخ بين مريوط وادكو وبذلك أغرق الارض بين الاسكندرية ورشيد وعزل الاسكندرية ثم سار قاصدا الى القاهرة .

وكان المماليك قد أنضموا الى الحملة القادمة وزاد عددها ولما وصلت الحملة الى الرحمانية انضم الانجليز للحملة العثمانية السائرة فى النيل وواصل الجيشان سيرهما ببطء نحو القاهرة وازداد مركز الفرنسيون هرجا وضعفت روحهم المعنوية حيث لم تصلهم مساعدة بونابرت من فرنسا بعد أن وعدهم بها – وبدأ كذلك يصل **جيش** الصدر الاعظم الى **مشارف القاهرة** . وكانت القوات الهندية على مشارف خليج السويس عند القصير وعلى وشك أن تعبر الصحراء الى قنا وتبحر فى النيل شمالا

لتطبق على الفرنسيين فى القاهرة وكانت هناك قوة رابعة قائمة من جنوب افريقية ثم أن مراد بك مات وهو فى طريقة الى الانضمام الى الفرنسيين وكان معسكوا فى طره وكان قد وقع مع كليبر عن طريق مندوبه عثمان بك البرديسى اتفاقية ٥ أبريل سنه ١٨٠٠ التى أعترف فيها كليبر بمراد بك حاكما على الصعيد وحليفا له ، وهزم الفرنسيون فى **الزوامل** من الجيش العثمانى بقيادة الصدر الاعظم .

ولما رأى بليار Belliard وهو من أنصار الجلاء هذا الموقف السيىء أثر التسليم بدون مقاومة مع أنه كانت معه قوة كبيرة وكان يستطيع الخروج من القاهرة وضرب الجيش العثمانى قبل أن يصل اليهم الانجليز لو أنه جمع جيشه ، وسلم بليار القاهرة للانجليز والصدر الاعظم وفق شروط اتفاقية العريش ، وبذلك تفرغ الانجليز لقتال مينو فى الاسكندرية الذى اضطر لقلة المؤونه الى التسليم على شروط الجلاء بنفس شروط القاهرة ووقع عليها كل من الجنرال هتشنس واللورد كايث وحسين باشا قبطان والجنرال مينو وتقضى بجلاء الجيش الفرنسى عن المدينة وقلاعها فى عشرة أيام وتسليم الفرنسيين سفنهم وينقلون الى أحد موانى فرنسا ومعهم أمتعتهم وعشرة من مدافعهم فقط ويسلمون الباقى كما يسلم أعضاء المجمع العلمى الفرنسى أبحاثهم ودراساتهم وخرائطهم ورسومهم ومخطوطاتهم التى جمعوها فى مصر ولكنهم رفضوا ذلك وطلبوا من القائد الانجليزى الاقلاع عن هذا الطلب والا قاموا باحراقها فقبل طلبهم ... وهكذا خرجت فرنسا من مصر .

نتائج الحملة

١) واذا كانت الحملة الفرنسية على مصر قد فشلت فى تحقيق أهدافها فى قطع مواصلات انجلترا مع الهند وتهديد مستعمراتها وأنشاء مستعمرة فرنسية فى مصر كما كانت تبتغى فان مرد ذلك بدون شك يرجع الى أن كفاءة خلفاء بونابرت فى القيادة كانت دون كفاءته هو السياسية والحربية كذلك فانه مما لاشك فيه أن تفوق انجلترا البحرى وتدميرها للاسطول الفرنسى فى أبو قير وحصارها لشواطىء مصر ووقوفها فى وجه بونابرت والاستيلاء على عكا وقيامها بالتعاون مع تركيا فى طرد الحملة اخيرا من مصر بالاضافة الى ثورات المصريين المتوالية واستبسالهم فى الدفاع عن بلادهم كل ذلك جعل بقاء الحملة الفرنسية فى مصر واستمرار احتلال الفرنسيين لها أمرا غير ميسور .

٢) واذا كانت الحملة الفرنسية قد فشلت فى الاحتفاظ بمصر مستعمرة فرنسية فأنها لفتت نظر انجلترا إلى أهمية موقع مصر لمواصلاتها مع آسيا والهند ومن ثم فقد حرصت حتى أواخر القرن التاسع عشر على الحيلولة دون قيام دولة قوية فى مصر

أو وقوع فى يد دولة أخرى تهدد هذه المواصلات كما أن فرنسا نفسها لم تنسى مصر فقد ظلت تتجه ببصرها نحو مصر وكان لها فى عصر محمد على مركز أدبى مرموق وزاد من نفوذها أنشاء قناة السويس وظلت هى الدولة ذات الحظوة فى مصر حتى قامت انجلترا باحتلال مصر عسكريا فى سنة ١٨٨٢ ميلادية .

٣) **كان الرأى العام المصرى تحت قيادة طبقة العلماء الذين كانوا تعبيرا عن الضيق الذى عاناه المصريون طوال قرون فى ظل الحكم التركى فلما جاء الفرنسيون الى مصر زاد هذا الوعى نموا وأفاق المصريون من سباتهم ليروا محتلا غاصبا فوقفوا فى وجهه وكانوا من العوامل القوية التى اقضت مضاجع الفرنسيين فى مصر وتستطيع أن تقول بثقة أن هذه الحملة خلقت من بين المصريين فئه أيقنت أنه اذا لم يكن لاهل البلد صوت فى بلدهم فلن تتخلص البلاد من الظلم والطغيان الذى عاشت فيه فترة طويلة ولعبت هذه النخبة التى انضجتها الحملة الفرنسية دورا بارزا فى توليه محمد على حكم مصر . خاصة وأن بونابرت أسند بعض المناصب الكبيرة التى كان يتولاها ترك الى المصريين .**

٤) أما النتائج العلمية فقد كانت ايضا ذات قيمة كبيرة وابقى أثرا فالحملة كانت قد أحضرت معها عددا من العلماء الفرنسيين قاموا بالعديد من الابحاث والدراسات ورسموا الخرائط وكان بينهم علماء فى الرياضة وفى الهندسة وفى مجال الاختراع والكيمياء مما أتاح لبونابرت أن يكون عددا من اللجان العلمية نشطت بصفة خاصة فى عهد كليبر ومينو وكان من أهمها :-

لجنة للتشريح والديانه والعادات ولجنة للادارة ولجنه لنظام الشرطة ولجنه للتاريخ والحكومة ولجنة للدراسات العسكرية ولجنة للتجارة والصناعة ولجنة للزراعة ولجنة للتاريخ الطبيعى ولجنة للاثار القديمة ولجنه للنيل والفيضان وهذه اللجان العشر تعطينا صورة لنوع الدراسات التى قام بها الفرنسيون فى مصر وأهميتها وكل هذه الدراسات التى قاموا بها ضمنوها سفرهم الكبير الذى أسموه (وصف مصر) ورسموا خريطة جغرافية دقيقة لمصر قام برسمها عدد من المهندسين كلفوا بمسح البلاد وجمع المعلومات اللازمة لهذه الخريطة . وكانت الحملة الفرنسية تهدف عند مجيئها لدراسة مشروع توصيل البحرين الاحمر والابيض وكلف المهندس الفرنسى الكبير ليبير Lepere بدراسة الموضوع على الطبيعة وزار بونابرت بنفسه هذا المكان ولكن هذا المهندس أخطا فى الحساب وأدى خطأه إلى اعتبار البحر الاحمر أعلى سطحا من البحر المتوسط وبذلك قالت اللجنة أن حفر هذه القناة يؤدى الى أغراق الدلتا . ونحن نلاحظ أن الفرنسيين لم يهملوا هذا الموضوع مطلقا بل الفت الجمعيات وأعدت الدراسات والتقارير حول هذا الموضوع حتى جاء ديلسبس ونفذ المشروع هذا

بالاضافة الى الابحاث العلمية والدراسات التى أعدها الفرنسيون حول الاثار والمعابد المصرية القديمة وفى طيبة وأبيدوس والعرابة المدفونة وعين شمس .

وفى سنة ١٧٩٩ عثر الضابط الفرنسى بوشار Bouchard على حجر قرب رشيد عليه كتابات قديمة ووقع هذا الحجر فى أيدى الانجليز فنقلوه الى المتحف البريطانى وظل هناك حتى تمكن العالم الاثرى الفرنسى شمبليون من فك طلاسمة سنة ١٨٢٢ وكانت الكتابات المدونه عليه باللغات الهيروغليفية والديموطيقية والاغريقية وكان هو يعرف اللغه الاغريقية ومقارنة اللغتين الاوليتين بهذه اللغة تمكن من فك طلاسمها وعرفت الكثير من المعلومات عن تاريخ مصر القديمة .

الفصل الثانى

عصر محمد على

- مقدمة
- تولية محمد على حكم مصر
- بناء الدولة الحديثة فى مصر

أولا : توطيد حكم محمد على

ثانيا : بناء القوة الحربية

أ ـ الجيش

ب ـ الأسطول

ثالثا : نظام الحكم

رابعا : تدعيم اقتصاديات البلاد

خامسا : العناية بالعلوم والثقافة

مقدمـة :

ماكاد الفرنسيون يجلون عن مصر حتى أصبحت البلاد مسرحا لصراع عنيف بين الترك والمماليك على السلطه فيها .

١) فالترك كانوا يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ويريدون استعادة نفوذهم وحكمهم الذى كان لهم قبل مجيء الحملة الفرنسية .

٢) والمماليك يريدون الوصول الى النفوذ والسلطة أيضا فهم يريدون كذلك السلطة والسلطان فابراهيم بك ، وعثمان بك الطمبورجى وريثا مراد لاينسون ماكان لهم من نفوذ وسلطان قبل مجيء الحملة ومن ثم فهم يعملون لاستعادة هذا النفوذ . ولكنهم أنقسموا حول أنفسهم ففريق منهم كان يشايع فرنسا ويرى أنها الدولة التى يستطيع الوصول الى السلطان بمساعدتهم وهم خلفاء مراد وعلى رأسهم الطمبورجى بك ، وفريق آخر كان يرى الاستعانة بانجلترا وعلى رأسهم محمد بك الالفى وفريق ثالث كان يحالف الترك وكان ذلك أثناء الحملة وعلى رأسهم ابراهيم بك .

٣) وفى وسط هذا الصراع لم يكن يخفى على انجلترا أهمية موقع مصر لمواصلاتها الى الشرق ولذلك فقد ظلت السياسة البريطانية تعمل على زيادة النفوذ الانجليزى فى مصر والحيلولة دون قيام أية دولة حديثة قوية فيها سواء أكانت هذه الدولة وطنية أم خارجية وذلك حتى لاتهدد مواصلاتها ومصالحها فى الشرق .

٤) وفرنسا وهى أن كانت قد خرجت من مصر فانها لم تنسها وظلت تنظر اليها وتحاول استعادة نفوذها وتحقيق لها نفوذ أدبى كبير بعد وصول محمد على الى الحكم .

٥) ومع ذلك فهذه القوى الاربع كان الشعب المصرى قد ازداد وعيه ونمت روح الاستقلال لدية وأراد أن يكون له دور واضح فى حكم وطنه ، فقد كان العلماء يمثلون صرخة الشعب ضد الظلم والطغيان قبل مجيء بونابرت وفى عهد الحملة نما هذا الوعى ونضج وأصبح العلماء وكبار التجار يمثلون الشعب المصرى ويتكلمون بأسمه ويدافعون عن مصالحه وأرادوا أن يكون لهم دورهم .

٦) وفى وسط هذا الصراع كانت هناك قوة سادسة مترقبه هى محمد على فقد كان هذا الضابط أحد الجنود الترك الذين جاءوا لطرد الحملة الفرنسية من مصر وكان يمتاز بالشجاعة وبعد النظر فأدرك أن هذه القوى المتصارعة لن تستطيع أن تحقق مآربها بدون الاستعانه بالشعب المصرى ورأى انقسام المماليك ورأى أن الترك قد ضعفت قوتهم وجنودهم فى مصر من عناصر رديئة تنهب القرى وتعتدى على الارواح والشعب المصرى لن يعطى ثقته الا لمن عمل لمصلحة مصر ومن ثم عمل على الاستعانة بهذه القوة النامية والظهور بمظهر المحامى لها والمدافع عنها ونجح فى خطته ووصل الى الحكم فى مصر بمعونتها .

وكان الترك بعد طرد الاجانب الفرنسيين قد بقوا فى البلاد بقيادة الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا فى القاهرة يسيطرون على شئون البلاد وكان قائد العمارة البحرية العثمانية فى أبو قير هو حسين قبطان باشا ، وسعى الصدر الاعظم فى توليه خسروا باشا واليا على مصر . وأدرك الترك خطر المماليك على نفوذهم فعملوا على الايقاع بهم والتخلص منهم . فاتفق الصدر الاعظم مع حسين قبطان على دعوة الطمبورجى لزيارة أبو قير وايهامه بأن حسين قبطان سيتفاهم معه على تسليمه السلطة فى مصر حسب فرمان سلطانى وصل اليه كما يدعو الصدر الاعظم ابراهيم بك واتباعه الى القاهرة لنفس الغرض وتردد المماليك ثم أجابوا هذه الدعوة أخيرا .

وفى أبو قير قابلهم حسين قبطان بالترحاب ثم دعاهم لزيارة القائد الانجليزى فى البحر فلما ركبوا القوارب وابتعدوا عن الشاطىء لحق بهم قارب أخر يطلب القبطان لتسليمه بعض الرسائل الهامه فانصرف ولما ابتعد قاربه هاجم البحارة والجندبكوات المماليك وأوقعوا بالكثير منهم وعلى رأسهم الطمبورجى بك وجرح عثمان بك البرديسى وفى القاهرة نفذت فيهم مؤمراة مثلها فى نفس الوقت وقتل بعضهم وأودع البعض الاخر سجن القلعة ، ولما وصل هذا الخبر الى القائد الانجليزى هنشسن غضب وطلب فك أسر المعتقلين حالا وتسليم جثث القتلى وخضع الترك للامر بعد أن كادت الحرب تقع بين الفريقين وبذلك كسب الانجليز مودة المماليك فى حين وقعت الفرقة وسؤ الظن بين المماليك والترك . وأخذ المماليك ينظمون انفسهم للدفاع فانتقلوا الى الوجه القبلى فى الوقت الذى حضر فيه خسرو باشا من أبوقير الى القاهرة وتسلم زمام الامور بنفسه ورحل الصدر الاعظم ومعه جزء من الجيش العثمانى الى سورية فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢ م .

أما الانجليز فقد ظلوا فى مصر يرفضون الخروج منها الى أن حدث الصلح بين تركيا وفرنسا فاشتد تمسك الانجليز ببقائهم فى مصر ثم تم توقيع صلح أميان فى مارس سنة١٨٠٢ بين انجلترا وفرنسا وفيه تعهدت انجلترا بالجلاء عن مصر ولكنها مع ذلك تلكأت حتى مارس سنه ١٨٠٣ ثم خرجت أمام إلحاح بونابرت المتكرر وأما المماليك فقد انقسموا - شأنهم دائما - إلى فريقين . فبينما أتفق الألفى مع الانجليز على ان يساعدهم الانجليز فى الوصول الى حكم مصر - ويصبح للانجليز حكم الاسكندرية والسواحل ويتمتعون فى مصر بالنفوذ ويصبح المماليك صنيعه لهم وأخذ هؤلاء ينتشرون فى الوجه البحرى وخاصة مديرية البحيرة نرى أن عثمان بك البرديسى خليفة الطمبورجى يرسل الى نابليون يستنجده ويرجو مساعدته فى اعادة المماليك الى سلطانهم الاول على أن يكون للفرنسيين الامتيازات التى يرغبون فيها ولكنه كان مشغولا عنهم بشئون أوربا وهؤلاء المماليك كانوا منتشرين فى الوجه القبلى وخاصة فى جهات الفيوم وبنى سويف والمنيا وأسيوط .

تولية محمد على حكم مصر

ماكاد خسرو باشا يستقر فى الحكم حتى أرسل جيشا لمقاتلة المماليك فى الوجه القبلى ولكن المماليك إزاء هذا الخطر المشترك وحدوا صفوفهم وهزموا الترك ثم زحفوا على الوجه البحرى واتصلوا بالأنجليز فى الأسكندرية وهزموا الترك مرة أخرى فى دمنهور فى ٢٠ نوفمبر سنه ١٨٠٢ ولكن الانجليز جلوا عن البلاد وصحبهم الألفى فأصبحت الأسكندرية فى قبضة الترك ولم تعد ملجأ للمماليك فعادوا الى الوجه القبلى وأخذوا يهاجمون قوات الترك ويلقون الرعب فى قلب خسرو فجرد ضدهم حملة بقيادة أحمد طاهر باشا ومحمد على ودخلت قوات طاهر القاهرة وبقيت قوات محمد على خارجها .

وكانت هذه الفرصه مسمارا فى نعش خسرو باشا لأن محمد على انتهزها فرصة للتخلص منه فأوعز إلى الجند بطلب رواتبهم وصادف هذا هوى فى نفوسهم ولم يستطع خسرو تلبية مطالبهم فثارت ثائرتهم فأطلق عليهم خسرو باشا مدافع القلعة ولم يقبل توسط طاهر فى الأمر ولكن الجند استطاعوا الأستيلاء على القلعة بقيادة طاهر باشا ففر خسرو إلى دمياط وكان واليا سىء التدبير لايحسن التصرف وجمع طاهر العلماء والاعيان الذين أتفقوا على تولية طاهر السلطة حتى صدر الأمر السلطانى فى مايو سنه ١٨٠٣ ووقع طاهر فى نفس الحفرة التى حفرها محمد على لخسرو باشا فقد ثار الجند الانكشارية بقيادة أحمد باشا وطلبوا رواتبهم وقامت الحرب بين الجند الارنؤود والانكشارية واستطاع أثنان من الانكشارية قتل طاهر ولما يمضى على ولايته أكثر من ٢٢ يوما وتولى أحمد باشا مكانه وحاول استمالة محمد على إلى جانبه وقد تولى قيادة الجند الارنؤود بعد موت طاهر وكان عددهم نحو أربعة آلاف جندى .

وكان محمد على أثناء القتال بين الوالى والمماليك لايتحرك للمساعدة ويلتزم الحياد بين الجند والوالى وكان يرى فى هذا تفاهه الاغراض التى يقاتل من أجلها الوالى والمماليك فالوالى يعمل لأخضاع المماليك ليجعل مصر عزبة للسلطان العثمانى والمماليك يريدون استعادة وضعهم ليجعلوا من البلاد مصدرا لثروتهم ومن أهل البلاد مطية لشهواتهم العدوانية ، وأنتظر محمد على الفرصة المناسبة فهو لايساعد على تقوية حزب ضد حزب آخر وانما عمل ليضعف كل فريق الفريق الآخر ليكون له فى النهاية وبمساعدة الشعب المصرى الحكم .

ولذلك فانه بعد قتل طاهر باشا وتولية أحمد باشا قائد الانكشارية حكم مصر دعا البرديسى وابراهيم بك فدخل المماليك الى القاهرة بعد أن اتفق معهم محمد على

وتسلم البرديسى الحكم وطرد الانكشارية وقائدهم أحمد باشا وأصبح الامر بيد المماليك ولكنهم لم يكونوا يعملون إلا من خلال رأى محمد على وبأشارة منه فأخذ يتقرب من العلماء والأعيان والمماليك واستطاع البرديسى القبض على خسرو باشا وسجنه فى القلعة وفتح محمد على والبرديسى مخازن الغلال ووزعا الصدقات على الناس .

وفى ذلك الوقت كان السلطان العثمانى قد عين على باشا الجزائرلى واليا على مصر فحضر إلى الأسكندرية ولم يستطع التقدم إلى القاهرة فأخذ يكاتب المماليك للاتفاق معهم ثم سار إلى القاهرة ومعه عدد كبير من الجند وفطن المماليك لغرضه فترصدوه فى الطريق وأجبروه على التراجع ثم قتلوه فى الطريق . ولكن الألفى عاد من انجلترا وبدون مساعدة منها لأنها لم تعد راغبة فى أغضاب تركيا ونزل الألفى بأبو قير فقابله البرديسى الذى دب فى قلبه الحسد وتمكن من تشتيت شمله فسار مع أتباعه إلى الوجه القبلى ليتمكن من تجميع قوته من جديد .

وخشى محمد على أن يكيد له المماليك وانتهز الفرصة حين فرض البرديسى الضرائب الجديدة وأرسل رسله لجمعها وذعر الناس وقام السخط فأظهر محمد على غضبه من ذلك وحرصه على مصلحة الناس فأرسل جنده لحصار البرديسى فى منزله وكذلك لحصار زميله ابراهيم بك ولكنهما تمكنا من الرحيل إلى الوجه القبلى مع أتباعهما خلسة واستمر فى خدعته فلم يتول الأمر أولا : لأنه أدرك أن المماليك لابد مجتمعون للتحالف ضده . وثانيا : لأن جنده ضعيف قليل العدد لايتمكن من مقاومة المماليك والجند الآخرين . وثالثا : ـ لأن السلطان العثمانى كان ينظر إليه على أنه شريك للمماليك فى أضعاف نفوذ الدولة فى مصر فقام وأخرج خسرو من القلعة ووضعه فى الحكم وبرهن للشعب المصرى على أنه ليس بطامع فى الولاية .

ولكن الجند لم يكونوا يرضون بخسرو واليا فأرغموه على الخروج من مصر فاستقر رأى محمد على والعلماء على تولية خورشيد باشا حاكم اسكندرية فتسلم عمله فى أخر مارس سنة ١٨٠٤ وصدق ظن محمد على فان المماليك سرعان ما جمعوا قواهم ودارت الحرب عدة أشهر ثم تراجعوا إلى الصعيد وأدرك خورشيد أن محمد على هو المنافس الحقيقى له وأنه يجب التخلص منه فاستصدر فرمانا من السلطان ـ باستدعائة مع جنده الألبانيين وفهم محمد على المكيدة فتظاهر بالخضوع وأخذ يستعد للسفر ولكن العلماء لم يتركوه يرحل وأخفق خورشيد فى مسعاه فدبر أمرا أخر وأرسله إلى الصعيد لمقاتلة المماليك وأخذ يدبر له المكائد أثناء غيابه .

أرسل خورشيد إلى الاستانة يطلب جيشا لمساعدته على تحقيق غرضه فأرسلوا له فرقة الدلاة وكانت هذه الفرقة فى حالة من الجوع والعرى جعلتها لمجرد أن رأت

مصر وخيراتها حتى أخذت تنهب وتسلب الأملاك وتزهق أرواح الناس وكأن خورشيد قد شيد قبره بنفسه لأنه جلب بذلك سخط الشعب المصرى وزعمائه وعجل بعودة محمد على من الصعيد ليدخل القاهرة منتصرا بعد أن اصطنع زعماء الجند بالأموال والهدايا وأمر جنده بالأبتعاد عن النهب والسلب ولكن السلطان العثمانى لم يكن يرضى بذلك فأصدر فرمانا بتولية محمد على ولاية جده فذهب إليه العلماء وزعماء البلاد يطلبون منه أن يكون واليا عليهم بشروطهم فأظهر أولا الأمتناع ثم عاد فقبل ، ولكن خورشيد لم يقبل هذا العزل وقال أنه لايعزل بأمر الفلاحين وانما يجب أن يكون عزله بأمر السلطان فهو والى من قبل السلطان .

وكان معنى ذلك قيام صراع عنيف بينه وبين الشعب المصرى الذى يناصر محمد على وحمل العلماء قرار العزل إلى خورشيد فأبى فحاصر الشعب المصرى ومن أنضم إليه من فرق الجند التى تؤيد محمد على خورشيد فى القلعة واستمر الحصار حتى يولية سنه ١٨٠٥ وأخيرا وصل فرمان من السلطان بتولية محمد على مصر أزاء إصرار العلماء وحيث رضى بذلك العلماء والرعية وعزل خورشيد باشا فخضع أخيرا ورحل عن البلاد وتولى محمد على حكم مصر اعتبارا من ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ بعد أن عاهد الشعب المصرى وعلماءه على ألا يفرض ضريبه جديدة ولايصدر أمرا من الأمور ولايتصرف فى شىء إلا بعد أخذ رأى الزعماء والعلماء الذين أصبحوا مستشاروه فى حكم البلاد .

بناء الدولة الحديثه فى مصر

أولا : ـ توطيد حكم محمد على :

لم يكد محمد على يتسلم الحكم فى مصر فى ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ بمعونة الشعب المصرى وزعمائه حتى فوجىء بالقلاقل ، والمشاكل تقوم فى وجهه ، المماليك لم يستقر لهم قرار لن يسلموا السلطه لمحمد على بسهولة ولازالوا يطمعون فى استعادة نفوذهم ومركزهم السابق ويرون أنهم أحق بالحكم منه وأنه دخيل على البلاد ، كما أن السلطان العثمانى لم يوافق على تولية محمد على إلا مجبرا وهو لن يخضع للشعب المصرى ولابد سيتحين الفرصة المناسبة للأطاحة بهذا الوالى .

وانجلترا لازالت ترنو ببصرها نحو مصر وتهدف على الأقل إلى أعطاء السلطة للمماليك حتى يكونوا طوع أمرها ، وجند محمد على كانوا من الدلاة والأرنؤود والألبانيين وهى عناصر متهورة اشتهرت بالسلب والنهب ومحمد على يحتاج لكى يتغلب على كل ذلك فى حاجة إلى جند والجند فى حاجة إلى نظام والى رواتب والخزينة خاوية وزعماء الشعب له بالمرصاد وهو يريد أن يحكم ولكن ليس تحت وصاية أحد حتى ولو كان الشعب الذى أولاه ثقته وساعده للوصول إلى الحكم .

والسلطان العثمانى اذا كان قد وافق على تولية محمد على فقد كان ذلك فى انتظار الفرصة المناسبة لينتهزها السلطان لطرد محمد على وتولية والى آخر يصدر فرمان من السلطان بتوليته وليس بأرادة الشعب المصرى وذلك الشعب الذى لم يقم له السلطان منذ أن فتح السلطان سليم مصر سنه ١٥١٧ أى أهتمام أو أى وزن ومن ثم يجب العمل على خلع نفوذ محمد على ويحين الفرصة المناسبة لعزله ، ومن أجل ذلك أرسل السلطان العثمانى عمارة بحرية فى ١٧ يولية سنه ١٨٠٥ أى بعد استلام محمد على للسلطة بنحو شهرين فقط وكانت تتكون من ٢٥٠٠ جندى بقيادة القبطان عبد الله رامز وذلك ليراقب الحالة فى مصر حتى تتخذ تركيا فى ضوء الأحداث ماتراه موافقا لمصلحتها وخول القبطان عبد الله عزل محمد على أو تثبيته فى الحكم حسب الظروف .

وكان المماليك عندما رأوا هذه العمارة قد اتصلوا بها إذ أسرع محمد بك الألفى يعرض على مندوب السلطان رغبة البكوات المماليك فى الأنحياز إلى صفه ليزحفوا معا إلى القاهرة فينتزعونها من محمد على ، والأنجليز وهم كما عرفنا يؤيدون مطالب الألفى

أخذوا يوضحون له أن المماليك فقط هم القادرون على أعادة الأمن والنظام إلى البلاد ، وأنه مابقى محمد على فى حكم مصر فأن ذلك سيجر إلى الفتنة بينه وبين المماليك ووصل الأمر إلى حد تهديدهم بتجريد حمله لتأييد نفوذهم .

لم يكن محمد على بالرجل القصير النظر أو الضعيف بل أنه تحرك بسرعه وبدأ يقنع قبطان باشا بأنه مؤيد من قبل زعماء الشعب وأنه هو وحده الكفيل بانتشال البلاد من براثن الفوضى ، ووقف عمر مكرم والشعب المصرى يؤيد محمد على فى حين حاول المماليك استمالته إلى صفهم . وأسرع المماليك فى ١٦ أغسطس سنه ١٨٠٥ يوم الأحتفال وفاء النيل الى التآمر سرا مع بعض رؤساء الجند ليسهل له هؤلاء دخول القاهرة للقضاء على محمد على .

ولكن محمد على علم بذلك ودبر للأيقاع بهم ورد كيدهم فأتفق مع رجاله المخلصين بالأستمرار فى التظاهر بأتفاقهم مع المماليك ودخل عثمان بك حسن وأحمد بك كاشف إلى القاهرة من باب الفتوح على رأس جماعة من المماليك وقصدوا إلى عمر مكرم الذى رفض مقابلتهم واتجهوا إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى وصرح لهم بألا ينتظروا عونه فانقلبوا خائبين وبينما هم يتقدمون نحو الدرب الاحمر فأجأهم الجند بالرصاص فقتلوا منهم نحو الخمسين وأسر منهم نحو الثمانين قتلهم محمد على وأنتهز هذه الفرصة وأستولى على الجيزة فى سبتمبر وقضى على المماليك بها . وعلى أعوان خورشيد باشا ، وكان هذا النجاح سببا فى اقتناع قبطان باشا بأحقية محمد على فى الحكم فرحل عن البلاد فى أكتوبر ومعه خورشيد باشا المخلوع .

وفى ذلك الوقت كان محمد على فى حاجة إلى المال وكان يرجع إلى زعماء الشعب فى مهمات الأمور فلما أراد فرض ضريبة جديدة ليدفع رواتب الجند اقتنع زعماء الشعب بذلك لأنهم رأوا الخطر الذى يتهدد البلاد ولأن محمد على تعهد لهم بعدم تكرار فرض مثل هذه الضريبة ، واستولى محمد على بذلك على ثلث فائض الألتزام ، ثم حاول الحصول على ٤٠ ألف ريال من ١٣ من كبار تجار رشيد فجاء هؤلاء التجار يشتكون إلى الشيوخ فتشاور عمر مكرم والعلماء واتفقوا مع محمد على لتخفيضها إلى النصف وفى مايو سنة ١٨٠٦ طلب محمد على قرضا من الملتزمين والتجار فضاق بذلك الناس وتدخل عمر مكرم لتخفيف هذا القرض وأقسم محمد على أمام عمر مكرم والشيوخ بألا يعود إلى فرض الضرائب مرة أخرى ، وعظم بذلك نفوذ عمر مكرم لدى محمد على وعلت منزلته بين الناس حتى أن المماليك أخذوا يوسطونه بينهم وبين محمد على ليصفوا لهم فيقطعهم جهه يقيمون بها ويستغلونها ولكن محمد على لم يكن ليطمئن إليهم .

وفى ذلك الوقت كان المماليك أصحاب النفوذ والحكم فى الصعيد ، فالألفى فى الفيوم وسليمان فى أسيوط وعثمان بك حسن فى أسنا وابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى فى أسيوط والمنيا فرأى محمد على أن الأمر لايصفو له بدون القضاء عليهم فجرد عليهم جيشا يقوده حسن باشا الأرنؤودى فانتصر على الألفى الذى انسحب إلى الرقة ثم إلى البحيرة بينما انسحب حسن باشا إلى بنى سويف وتقدم إبراهيم بك والبرديسى إلى محاصرة المنيا وأمدها حسن باشا بنجدة بقيادة عابدين بك ولكن حدث فى ذلك الوقت أن تعرضت مصر وتعرض نفوذ محمد على لخطر حقيقى .

فقد كانت انجلترا قد أحرزت النصر على فرنسا فى موقعة الطرف الأغر تجاه شواطىء أسبانيا وصارت صاحبة السلطان البحرى المطلق فى البحر المتوسط وبدأت تفكر فى بسط نفوذها من جديد فى مصر بواسطة المماليك ، واستطاع ممثلها فى الآستانة إقناع السلطان بعزل محمد على لأنه لن يخضع للسلطان ولن يدفع له الجزيه بينما إذا أعطيت السلطة للمماليك فسيدفعون له ١٥٠٠ كيس (٧٥٠٠ جنيه) تضمنها انجلترا ويتعهد المماليك بالطاعة والولاء للسلطان ويكون فى ذلك فاتحة تقدم فى المعاملات التجارية بين البلدين ويتم ذلك بأن يوفد السلطان والى تركى إلى مصر ويترك للمماليك ماكان لهم من نفوذ قبل الحملة الفرنسية وهؤلاء طبعا سيصبحون حلفاء لانجلترا ومنفذين لسياستها فى مصر ، وصادف ذلك هوى فى نفس السلطان فأصدر فرمانا بعزل محمد على ونقله إلى ولاية سالونيك وتعيين موسى باشا فى مكانه ، وكان هناك اتفاق أن موسى باشا سيسمح للمماليك بشراء الرقيق ومن ثم سيزداد نفوذهم ويتحقق للأنجليز ماكانوا يصبون إليه .

وأرسل السلطان العثمانى عمارة بحرية بقيادة صالح باشا وابتهج الألفى لوصول صالح باشا فى أول يولية سنه ١٨٠٦ على رأس ثلاثة آلاف جندى وعلى ظهر أربع بوارج وفرقا طتين أخرين والتقى صالح باشا بالأنجليز والألفى فى حوش عيسى وأرسل صالح باشا إلى محمد على ينبئه بالمطلوب ويأمره بالذهاب إلى سالونيك فتظاهر محمد على بالطاعة ولكنه تأهب سرا للمقاومة وكان الجند الذين لم يقبضوا مرتباتهم ولهم عشرون ألف كيس قد عارضوا رحيل محمد على وكانت فرصة أتخذها محمد على ذريعة واتجه إلى عمر مكرم يستنجده وأفضى إليه بتفاصيل المؤامرة . فقام عمر مكرم والعلماء وكتبوا التماسا للسلطان يعترضون فيه على عزل محمد على ويحتجون على تولية موسى باشا وعلى رجوع السلطان إلى المماليك لأنهم لايثقون فيهم ولايستطيعون تحمل ضرائبهم وعددوا مساوئهم ومظالمهم وفوضوا الآمر للسلطان .

أما المماليك فقد قاموا بزعامة الألفى يحاصرون دمنهور ويطلبون إلى الأهالى تسليم المدينة ولكن الأهالى رفضوا وقاموا وطلبوا النجدة من عمر مكرم .

أما صالح باشا قد أرسل إلى محمد على يطلب منه تنفيذ الأوامر والطاعة وترك الحكم لموسى باشا وأرسل إلى عمر مكرم وإلى الشيخ السادات بنفس المعنى فلم يتلق منهم جوابا صريحا حيث أنهم تذرعوا بعصيان الجند وأن ذلك سيؤدى إلى تعرض البلاد للخطر ولكن صالح باشا لم يقبل أعتذارهم فعادوا فى أغسطس سنة ١٨٠٦ يذكرون صراحة أنهم لايقبلون غير محمد على واليا .

وأما محمد على فأخذ يستعد للمقاومة وصادف هذا هوى فى نفس الجند الذين خشوا سقوط مرتباتهم إذا عادوا إلى الآستانة وعاد محمد على وتركهم وعاهدوا محمد على على الأخلاص والطاعة وأخذ محمد على يحصن الطوابى وأنفذ حسن باشا إلى الرحمانية بعد أن استدعاه من الصعيد ولكن قوات الألفى هزمت جنود محمد على فى النجيلة فى ١٢ أغسطس سنه ١٨٠٦ واستولى على الرحمانية وعاود حصار دمنهور بمدافعه التى حصل عليها من أعوانه فى حين انسحب جند محمد على إلى منوف بعد أن فقدوا نحو ستمائة بين قتيل وأسير ، أما دمنهور فقاتلت ببسالة وأمدها عمر مكرم بالذخيرة والميرة .

وكان محمد على الذى يعلم ويفهم الترك فى ذاك الوقت قد أتصل بحاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليجذبهم إلى صفه وفعلا نجح فى خطته وبدأ المماليك ينقسمون على أنفسهم فقد كان البرديسى يحقد على الألفى وكان من أنصار الفرنسيين وبذلك تبين لصالح باشا أنه من العبث الأعتماد على المماليك فأن الألفى لم يستطع أن يؤدى إليه مبلغ ١٥٠٠ كيس المتفق عليها ولم يعاونه ابراهيم بك والبرديسى وعثمان بك حسن فى ذلك .

وكان السلطان قد أرسل رساله لصالح باشا يترك له حرية التصرف فى ضوء ما يراه صالحا ومعنى ذلك موافقتها على تثبيت محمد على فاتفق صالح باشا مع محمد على على البقاء واليا على مصر بشرط دفع ٤٠٠٠ كيس وأن يكون ابنه ابراهيم رهينه لدى السلطان حتى يتم دفع هذا المبلغ ووصل فرمان التولية حيث رضى العلماء والعامة وأشراف الناس حكم محمد على ورجع صالح باشا الى الاستانة فى ١٨ أكتوبر سنه ١٨٠٦ ومعه ابراهيم بعد أن ترك وكيله ليتعجل محمد على فى دفع المبلغ وفى أول نوفمبر دفعها محمد على كاملة ووصل فرمانانمن السلطان الاول يقر محمد على فى الحكم والثانى يأمره بتسفير المحمل وارسال القمح المطلوب الى جده .

نعود الى المماليك فنجد أن البرديسى قد توفى فى نوفمبر سنه ١٨٠٦ وتبعه الالفى بعد شهرين بينما احتشدت بقية قوات المماليك فى المنيا فعاجلهم محمد على بجيش من ثلاثه آلاف من المشاه وثلاثة آلاف من الفرسان ساروا فى النيل فى ٨٠٠ سفينة ولكن هذه القوات لم تكد تصل الى بنى سويف حتى أرسل الى المماليك يعرض عليهم الصلح

ولم يكن فى الحقيقه يريد الصلح والعفو لهم وانما كان يخدعهم لانه فى الوقت نفسه أتصل بالعربان الموالين لهم بالمال وبارشاد هؤلاء العربان أنقض عليهم على حين غفلة فأوقع بهم وأستولى على كل مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين منهم الى الصحراء وأحتل أسيوط وأتخذ معسكره فيها وهنا وصلت الأنباء التى اضطرب لها أيما اضطراب فقد كانت حملة فريزر على مصر فى مارس سنة ١٨٠٧ م .

كانت هذه الحملة ترجمة لنية أنجلترا الحقيقية نحو مصر ووقوع الجفاء بينها وبين تركيا فقد تم الصلح بين فرنسا وتركيا فاتفقت انجلترا و روسيا على الانتقام منها ودخول الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال دوكورث Dick Worth الى بوغاز الدردنيل وأرسلت انجلترا حملة الى مصر لاذلال تركيا وتحقيق أطماعها فى مصر ومساعدة المماليك بعد أن فشلت تركيا وتخلت عن نصرتهم . وجاءت هذه الحملة فى مارس بقيادة الجنرال فريزر لتثبيت الالفى على الحكم فى مصر ولم تكن انجلترا تعلم أن الألفى قد مات وأن جيشه قد تشتت .

ووصل الانجليز أول مارس فى شكل سفينه واحدة تلتها أخرى فى ١٤ مارس تحمل رسائل الى المماليك ثم تعود هذه السفينه بعد يومين ومعها بارجة كبيرة وعدد آخر من السفن الى مياه الاسكندرية وتعميه للموقف أتصلوا بأمين أغا سرا يفاوضونه على تسليم الاسكندرية اليهم وفى اليوم التالى وصلت ٢٥ سفينه أخرى ونزل الانجليز الى الشاطىء فى منطقة العجمى ، وبعد مفاوضة صورية سلم أمين أغا وحامية المدينة المكونة من ٣٠٠ جندى بدون مقاومة .

كانت الحملة الانجليزية من ٦ آلاف جندى ومكونة من فرقتين الاولى يقودها الجنرال ستيورات Setwart والثانية بقيادة الجنرال ويكوب Wecop وكان معنى ذلك أن الانجليز كانوا يستندون على قوات المماليك فى مصر ويظنون أنهم سوف لايجدون مقاومة حقيقية من المصريين .

وانتفض الشعب المصرى للمقاومة ولجأ محمد على إلى الدهاء فى كسر شوكة المماليك والتخلص منهم للتفرغ للانجليز واتفق معهم بعد المفاوضة على أن يترك لهم الصعيد حسب رغبتهم يحكمونه ويدفعون له خراج الصعيد ويعاونونه فى محاربة الانجليز ، وكان المماليك قد **خشوا** اتهامهم بالخيانه إذا لم يقبلوا شروط محمد على للصلح كما كان الالفى قد مات وهو حليفا للأنجليز ومع ذلك لم يكونوا صادقين فى أخلاصهم وانما كانوا يضمرون التربص بمحمد على ، فان انتصر عليهم فهم معه وعلى حلفهم وأن انتصر الانجليز انحازوا اليهم وعاد محمد على الى الجيزة .

قام القنصل الانجليزى بتروتشى Petrucci بأعداد تقرير حسب طلب فريزر شرح فيه حالة مصر وما بها من قوات . وأرسل فريزر الجنرال ويكوب على رأس قوة من ألفى جندى الى رشيد ليتخذها قاعدة حربية يزود منها جيشه وتحرك ويكوب يوم ٢٩ مارس الى رشيد وكان يحكمها رجل شجاع ثاقب الرأى مخلص فى وطنيته هو على بك السلانكلى وكان بها حامية من ٧٠٠ جندى فأعتمد على هذه القوة وعلى الاهالى فى المقاومة وأبعد المراكب الى البر الشرقى ليمنع ارتداد الاهالى والجند اذا ماحدثتهم نفوسهم بالتسليم ولكن عزيمة الاهالى صحت على المقاومة ودبر السلانكلى مع الاهالى خطة المقاومة وكانت تقضى باعتصام الاهالى بالمنازل والتظاهر بالتسليم حتى اذا ما اطمأن الانجليز وألقوا سلاحهم أمطرهم الاهالى بوابل من الرصاص من خلف النوافذ ومن أسطح المنازل وفعلا حدث ما توقعوه فدب الرعب فى قلوب الانجليز وأرتد من نجا منهم فى حالة يأس وفشل الى الاسكندرية وبعد أن فقدوا ١٧ قتيل ، ٢٥٠ جريح ١٢٠ أسير .

وكان أهل رشيد قد رفضوا معونة الجند الدلاة وآثروا الاعتماد على أنفسهم حتى لايتعرضوا لشرورهم ، وأمتلات قلوب المصريين بالحماسة والفخر بينما أصيب المماليك بخيبة أمل شديدة أضعفت من أملهم فى نجاح الانجليز . وأرسل على بك الاسرى ورءوس القتلى الى القاهرة أعلانا للنصر وليبعث الثقة والامل فى نفس الجند والشعب .

فى القاهرة أخذ الاهالى ومحمد على يحفرون الخنادق ويقيمون الاستحكامات ويستعدون للقتال بزعامة عمر مكرم ويحفرون الخنادق بين باب الحديد وبولاق ويفرقون المراكب فى النيل بين جزيرة بولاق والشاطىء لمنع الانجليز اذا ما حاولوا التقدم الى القاهرة ونصبوا المدافع بين شبرا وامبابة وبولاق وجمع الاهالى ٩٠٠ كيس وأعد محمد على حملته الى رشيد وقوامها اربعة الاف من المشاه ، ١٥٠٠ من الفرسان .

نعود الى رشيد فنجد أن الانجليز فقد ضربوا الحصار حول رشيد بقيادة ستيوارت محاولين أن يمحوا أثر الهزيمة ووضعوا مدافعهم حول أكام ابن مندور وأطلقوها على المدينة فهدموا الكثير من بيوتها وقتلوا الكثير من أهلها فأرسل نقيب الاشراف حسن كريت يستنجد عمر مكرم واستجاب له الناس وتطوعوا لحمل السلاح ورحلوا اليها رغم معارضة كتخدا بك نائب محمد على .

وفى الحماد وصل استيوارت على رأس ٤ آلاف مقاتل مجهزين بالمدافع والاسلحة واستولى عليها فى طريقه الى رشيد وطوقها من الجنوب لمنع وصول المدد

اليها والى رشيد وأخذ منذ السابع من ابريل فى محاصرة رشيد وأطلاق المدافع عليها وانتظر نجدة المماليك . ولكن ممن تأتيه هذه النجده .

أما أهالى الحماد فقد أخذوا يناوشون الانجليز فأرسل نجدة بقيادة ماكدونالد Macdonald الذى استولى على موقع المصريين فى أبى مندور فى السادس عشر من ابريل ولكنه انسحب بعد وصول المدد الى المصريين بقيادة طبوز أوغلى الذى نزل بالبر الشرقى أمام الحماد وحسن باشا الذى نزل بالبر الغربى وعسكر طبوز أوغلى فى برنبال وفى ٢٠ ابريل هاجم حسن باشا الموقع الانجليزى فقتل وأسر بعضهم ولكن الانجليز أمدوا قوتهم بقيادة ماك لويد Mac Leod وكانوا حتى ذلك الوقت ينتظرون المدد من المماليك ولكنهم رأوا تفوق المصريين عليهم فى العدد ففكروا فى الانسحاب ورفع حصارهم عن رشيد والحماد والعودة الى الاسكندرية ثم وصل لهم المدد فأسرع طبوز أوغلى بالأنقضاض على الانجليز واستطاعوا احتلال الحماد وتعقب قوات ماك لويد عند انسحابها والقضاء على القوات الاخرى وقتلوا من الانجليز ٤١٦ وأسروا ٤٠٠ .

أدرك ستيوارت مايتهدده من خطر وما حل بجيشه من نكبة فانسحب الى الاسكندرية بينما طاف المصريون بـ ٤٨٠ أسيرا انجليزى فى شوارع القاهرة من بينهم الميجور مور Moor والميجور جلسند Wegelsend بالاضافة الى ٤٥٠ من رؤوس القتلى وأسقط فى يد فريزر ورأى أنه من العبث مواصلة القتال فامتنع بالاسكندرية وأخذ فى تحصينها وأرسل الى المماليك مرة أخرى يذكرهم بوعود الالفى ويطلب منهم المساعدة ولكن هيهات فقد تفرقت كلمتهم ومات حليفهم . وقطع فريزر سد أبو قير ليحيط بالاسكندرية بالمياه ثم أرسل الى محمد على يطلب الصلح على أن يجلوا عن الاسكندرية بينما محمد على يجهز نفسه للزحف على الاسكندرية .

أما الذى دعا انجلترا الى اتخاذ هذا الموقف والتراجع فقد كان لسبب تغير الحالة فى أوربا وتحولها لغير صالحها واندلاع الصراع عنيفا بينها وبين نابليون ذلك الذى دانت له معظم أوربا وعقد الصداقة مع قيصر روسيا الذى كان منذ وقت قريب حليفا لها ثم حلول الهزيمة بقواتها فى رشيد والحماد وتفرق كلمة المماليك وموت الالفى حليفها فرأت أنه من الخير لها الانسحاب من مصر وارجاء تحقيق أملها فى مصر الى فرصة أخرى . وأبرمت الاتفاق مع محمد على فى ١٤ سبتمبر سنه ١٨٠٧ على أن يصحبوا معهم أسراهم وجرحاهم وتم جلاؤهم فى ١٩ منه . وضمت الاسكندرية الى محمد على بفرمان سلطانى بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان وحاكمها يعين من قبله .

واذا كان محمد على قد أنتصر على المماليك ، وأنتصر بواسطة الشعب المصرى

ومعونته على الانجليز واسترضى السلطان وعقد مع جنده اتفاقا فان هذا الاتفاق كان مؤقتا لانهم كانوا من نوع ردىء فالدلاة كانوا من عناصر رديئة فاسمهم يعنى بالتركيه (مجنون) والأرنؤود ليسوا بأفضل منهم وطالما عاثوا في البلاد فساد ونهبوا المنازل ثم أن محمد على لم يعطهم مرتباتهم فرجعوا إلى فسادهم والى نهب القرى ثم تجمهروا فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ وهاجموا محمد على فى قصره بالازبكية وأطلقوا النار على أبواب القصر ونوافذه ففزع الناس وأدرك محمد على خطر هذه الفتنة .

انتقل محمد على سرا الى القلعة لانها كانت أكثر تحصينا وأستمرت فتنة الجند سبعة أيام وتدخل عمر مكرم والعلماء وبحثوا الامر واتفقوا على أعطاء الجند جزءا من مرتباتهم قدروه بألفى كيس جمعوها من التجار والملاك والصناع وأصحاب الحرف لخلو خزانة الحكومة من المال ، وبعدها قرر محمد على نفى رجب أغا أحد رؤساء الجند الارناؤود حيث كان أشدهم نزوعا الى العصيان وخالجت محمد على منذ ذلك الوقت فكرة التخلص من الجنود غير النظاميين وساعدته حروبه فى الحجاز والسودان فى التخلص من جزء منهم وعمل على انشاء جيش حديث .

وما كان محمد على يرضى أن يكون تحت مراقبة زعماء الشعب المصرى هؤلاء الذين ساعدوه فى تولى الحكم وساعدوه فى التغلب على المحن التى واجهته ، أما وقد تخلص من هذه المحن أو كاد فقد آن الأوان ليتخلص من رقابة الشعب على تصرفاته وهو الرجل الذى يريد دولة قوية له ولعقبه من بعده والامر يستدعى فى رأيه أن يكون مطلق التصرف فشعر بغضاضة من تدخل العلماء والزعماء فى شئون الحكم حتى ولو كان تدخلهم شرعيا وعادلا ، وهناك حقيقة يجب ألا ننساها وهى أن زعماء الشعب هم الذين هدموا أنفسهم بأنفسهم بعد أن دب الحسد والتنافس والمطامع الشخصية بينهم وبعد أن نقموا على عمر مكرم ما أصبح يتمتع به من منزلة .

وكانت البداية عندما أراد محمد على فرض ضريبة المال الميرى سنة ١٨٠٩ على الأراضى الموقوفه وعلى اراضى الوسيه التى كانت ملكا خاصا للملتزمين كما بحث موضوع أطيان الرزق (الموقوفة للفقراء) والأوقاف وقرر تحصيل نصف الفائض من الالتزام فى الوقت الذى تعرضت فيه البلاد لازمة اقتصادية نتيجة لنقص مياه النيل فى اغسطس سنه ١٨٠٨ وبعد ان تعهد محمد على من قبل بعدم فرض ضرائب بدون موافقة زعماء الشعب .

تبرم الملاك ونظار الاوقاف والمستحقون والملتزمون وذهبوا لمقابلة العلماء ليوسطونهم فى الامر وعقد العلماء مؤتمرا فى ٢٠ يونيه سنة ١٨٠٩ وتداولوا فيه واستقر رأيهم على الاعتراض على هذه الاعمال من جانب محمد على وتقدموا بعريضة

احتجاج وعلم محمد على وأرسل سكرتيره الخاص ديوان افندى لتعرف نيات الشيوخ فوجد منهم فى أول الامر اتحادا فى الرأى والكلمة واصرارا على عدم مقابلة محمد على والاكتفاء بعرض شكايتهم عليه ، فأخذ محمد على يدبر المكائد لفصم عرى هذا الاتحاد وتداول فى ذلك مع الشيخين المهدى ومحمد الدواخلى وناظر المهمات محمد افندى طيل واتفق على ان يذهب الشيخان بيرئان محمد على مما نسب اليه وفطن عمر مكرم الى المكيدة فالزمهما الحجة ، وبرهن لهما بما كان تحت يده من اوراق على صحة ما نسب اليه .

أدرك محمد على أن عمر مكرم لا تلين له قناة فبدأ يخشاه وبدأ يقرب إليه أصحاب المظاهر وطلاب المصالح والمنافع وخاصة حينما هدد عمر مكرم بالكتابة الى السلطان وإثارة الشعب على محمد على بل وعزله اذا ما اقتضى الامر كما أجلسه على عرشه ، واعاد المهدى والدواخلى المحاولة وأصر عمر مكرم على عدم مقابلة محمد على واستطاع محمد على بفطنته ان يكشف ما فى نفس الشيخين من حقد لعمر مكرم فانتهزها فرصة للوقيعة بعمر مكرم ومره ثالثة عاد الشيخان يهدفان لادخال الرهبه فى نفس عمر مكرم حتى يذعن للامر أو يسجلان عليه العصيان ، وتكررت محاولاتهما فاقسم لهما عمر مكرم انه لا يطلع لمحمد على ولا يرى وجهه حتى يبطل ما أحدثه .

حاول العلماء مفاوضة محمد على فى إبطال هذه الضرائب فوافق بشرط ان يأخذ ربح فايض ايراد الملتزمين ولكن عمر مكرم اصر على رفع كل الضرائب وهنا أيقن محمد على أنه لا فائدة فحاول اغراءه بالمال وأرسل اليه وكيله يعرض ٥ جنيهات يوميا ، ١٥٠٠ جنيه فورا فلم يقبل فلم يكن بالرجل الذى يغريه المال بعكس غيره ، وبدأت رسل السؤ تزيد شقة الخلاف وأخذت الجواسيس تحيط بمنزل عمر مكرم وأراد محمد على أن يرسل الى السلطان تقريرا مفاده انه قد صرف أربعة آلاف كيس فى أوجه مختلفه من الاصلاحات وارسل التقرير الى عمر مكرم لتوقيعه فرفض بل وأظهر الشك فى محتويات التقرير فاشتد حنق محمد على الذى لم يكن ليرضى بذلك .

ونزل محمد على فى ٩ أغسطس سنة ١٨٠٩ إلى منزل ابنه ابراهيم وارسل الى القاضى والعلماء وعمر مكرم ليحتكما إليهم فأدرك عمر مكرم المؤامرة فلن يحكم هؤلاء له حتى ولو كان محقا فى موقفه واعتذر بمرضه فأمر محمد على بحضور الجميع وتقرر عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه بعيدا عن القاهرة فتشفع الشيوخ أن يسافر عمر مكرم إلى مسقط رأسه أسيوط فرفض محمد على وأصر على ان يكون النفى إما إلى دمياط أو الاسكندرية ورحب عمر مكرم بالعزل والنفى ولكنه رجا ان يكون خروجه إلى طرابلس أو الى الطور فرفض محمد على وخرج عمر مكرم الى دمياط تاركا للمحروقى إدارة أملاكه ورعاية أهل بيته وعاش فى دمياط تحت المراقبة إلى أن تشفع له قاضى

قضاة مصر صديق أفندى فأذن له فى الانتقال إلى طنطا .

قضى عمر مكرم فى دمياط أربع سنوات وقضى فى طنطا سبع سنوات حتى ديسمبر سنة ١٨١٨ ثم طلب الأذن له بالحج فإذن له محمد على وكان فى قمة سلطانه وسمح له بالعودة إلى القاهرة حتى يحين أوان الحج وفى القاهرة تبين محمد على ان حب الناس له لم يقل بل ازداد واقبل الشعراء يرحبون به . ولما قامت الفتنه والهياج سنة ١٨٢٢ حين فرض محمد على ضرائب جديده على المنازل فى القاهرة بعد أن فرضها على المدن الاخرى ووقعت المصادمات بين الاهالى والموظفين الموكول اليهم تقدير الضريبة ظن محمد على ان عمر مكرم وراء هذه الفتنه فنفاه مره أخرى إلى طنطا وارسل له يطلب منه السفر فورا فتلقى هذه المحنة بصبر وتوفى فى نفس السنة .

لم يبق أمام محمد على الا بقايا المماليك . وبعد التخلص منهم يستطيع أن يكون مطلق اليد فى شئون مصر ويستطيع تنفيذ ما يريد من مشروعات ويحصل على المال من الموارد المختلفة التى يراها دون أن يعارضة أحد أو يتآمر عليه أحد ، ونحن تركنا المماليك من قبل فى الصعيد يحكمونه مقابل خراج الفيوم وثلاثين قريه فى البهنسا وعشرة قرى فى الجيزه بشرط ان يؤدون ما عليها من ضرائب الميرى ، واعطى محمد على لشاهين بك الألفى خليفة محمد الالفى قصرا فى الجيزة فى ديسمبر سنة ١٨٠٧ ثم حذا حذوه الكثير من بكوات المماليك فاستقر الأمر فى الصعيد .

هذا ما كان من بكوات المماليك الجدد الذين وصلوا الى الزعامة حديثا اما أولئك الذين محصتهم التجربة مثل ابراهيم بك وقد عرفناه من قبل ، وعثمان بك حسن فقد ظلا زعماء المماليك الحقيقيين دون منافس وظلا على شكهما فى محمد على ويضمران له الكراهيه ويريان انه لن يسلم لهما بسهوله ولن يرضى ببقاء المماليك يشاركونه ولو ظل السلطة وكان محمد على من ناحيته يفهم مافى نفوسهما ، وكان اتفاقه هذا مع المماليك بسبب تعرض مصر لخطر الحمله الانجليزيه ليس الا . أما وقد تخلص منها فقد بدأ يوقع بين المماليك وخاصة بين زعماء الصغار منهم فأخذ يخلع عليهم ويجتذبهم إلى صفة .

وكان المماليك من ناحيتهم يفضلون قبول الامر الواقع ولكنهم لم يؤدوا ما عليهم من مال الميرى فأخذ محمد على يتهددهم فتوسط شاهين بك على ان يؤدى المماليك ثلث ماعليهم وقدر بـ ١٠٧ ألف اردب ومع ذلك فلم يؤدوه فجرد عليهم محمد على جيشا فى سبتمبر سنة ١٨٠٩ لاخضاعهم واستخلاص الصعيد منهم فانسحب المماليك الى الجبال القريبة من جرجا واسيوط ولكنه سار اليهم فى اكتوبر فى جيش بلغ ستة آلاف مقاتل ولم يكد يبلغ اسيوط حتى طلب المماليك الصلح فاشترط عليهم مغادرة الصعيد

إلى القاهرة والاقامة فيها وتم الاتفاق في نوفمبر بعد ان طلبوا مهلة ثلاثة اشهر يقضون فيها مصالحهم .

سار ابراهيم بك فعلا إلى القاهرة حيث أقام في الجيزة ثم امتعض عن المقابلة التي قوبل بها اذ لم تطلع المدافع لتحيته فانسل من الجيزة بعد أن اقنع شاهين بك بنقض الاتفاق مع محمد على وتبعهما كثير من المماليك الى الصعيد وبذلك تجدد الاتفاق بين المماليك وتجدد القتال واحرز عليهم محمد على النصر في البهنسا واللاهون واستولى على الفيوم فانسحب المماليك الى اسوان فعاد شاهين بك يطلب العفو فعفا عنه محمد على وأقطعه دارا جميلة في الازبكية ولكنه كان يدبر في نفسه أمرا .

وعاش المماليك في القاهرة في رغد وأخلدوا فعلا إلى الشرف والهدوء . اما محمد على فقد انتهز فرصة تقليد ابنه طوسون قيادة الحملة الموجهة الى بلاد العرب سنة ١٨١١ فأقام مهرجانا عظيما لتقليد طوسون القيادة فدعا أمراء المماليك مع بقية الكشاف والأمراء لحضور هذا المهرجان واستقبلهم محمد على في قاعة الاستقبال بترحاب وبشر واعتذر هؤلاء عن تخلف بقية زملائهم في الصعيد فتظاهر بقبول أعتذارهم ولما بدأ الموكب سار في مقدمته فرسان الدلاة ثم مشاة الدلاة يليهم فرسان المماليك ثم بقية الجنود من ارنؤود ولم يكد الموكب يخرج من باب الغرب حتى استمر الباب مفتوحا ليخرج منه الفوج الأول من الجنود وكذلك رئيس الشرطة والمحافظ والوجا قليه ثم أغلق الباب قبل مرور أول المماليك ولما رأى المماليك ان الباب قد اغلق تضامت صفوفهم ولكن الجند الذين كانوا قد تسوروا صخور القلعة وأسوارها امطروهم بوابل من الرصاص ولم يستطع المماليك الدفاع عن أنفسهم فلم يكونوا يحملون سوى السيوف وبعد الثلث الأول من الليل انتهت المجزرة عن ٤٧٠ قتيل من المماليك ولم ينج منهم سوى أمين بك الذى قفز بفرسه واستطاع النجاة بعد أن قتل حصانه ثم سار في الصحراء حتى وصل سوريا .

وفي شوارع القاهرة أخذ الجنود ينهبون البيوت ويغتصبون النساء (نساء المماليك) حتى بلغ عدد المنازل التي نهبوها خمسمائة منزل واستمر النهب يومين حتى نزل محمد على إلى المدينة لوضع حد لهذا العدوان وهذه الفوضى .

وفي الأقاليم صدرت أوامر محمد على بقتل المماليك . أما ابراهيم فقد بلغه نبأ الفاجعة فسار ومعه بقية من المماليك إلى النوبة ودنقلة بينما فر نحو ستين مملوكا من القاهرة والاقاليم إلى سوريا .

ثانيا : بناء القوة الحربية

أ) الجيش :

كانت القوات العسكرية فى مصر فى بداية القرن الثامن عشر تتكون من عدد من الفرق أهمها فرقة (المتفرقة) وعددها الفان من الخيالة وكانت تؤلف حرس الوالى وفرقة (العزب) ويتراوح عددها بين ثلاثة آلاف من الخيالة وفرقة (الباشجاويشيه) وتضم ٥٠٠ من المشاة وفرقة (الأنكشارية) وعدد رجالها ستة آلاف أو ثمانية آلاف أحيانا وكان يضاف إلى هذه الفرق قوة أخرى من الأعراب كان يبلغ عددها نحو عشرين ألف ولكن هذه القوة لم تكن نظامية وشكلت خطرا يهدد الأمن وحياة السكان واستعان بها المماليك أثناء الحملة الفرنسية فى مصر وسرعان ما أصاب هذه القوة الضعف بضعف النفوذ العثمانى فى مصر وإهمال هذه القوات وانشغالها فى أعمال أخرى غير أعمال الحرب والقتال وما يستدعيه ذلك من مداومة التدريب والتسليح والتمشى مع النظم الحديثه فى الحرب وتطورها .

وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ كانت قوات المماليك وهى التى تؤلف العنصر المحارب فى ذلك الوقت لاتزيد عن ٨٥٠٠ رجل من بكوات المماليك والكشافين والمعتوقين والمماليك العبيد ، وكان هؤلاء إما أنصاراً لأبراهيم بك وكان يمتلك ٦٠٠ منهم وإما أنصار مراد بك وكان يمتلك ٤٠٠ منهم وكان الباقى مقسم بين ١٨ بيتا منهم يضم كل بيت مايتراوح بين ٥٠ ، ٢٠٠ مملوك بالأضافة إلى عدد آخر من المماليك المستقلين لا تعرف تبعيتهم لأحد .

ولم يكن المماليك يعرفون نظام المشاة لأن هذا النظام كان محتقرا عندهم . ولما استقر الأمر لمحمد على فى مصر سنة ١٨٠٥ لم يكن لمصر فى ذلك الوقت جيش مؤلف من أبنائها وإنما كان الجيش الذى اعتمد عليه محمد على فى ذلك الوقت يتكون من عناصر من الترك والألبانيين والدلاه والسوريين والمغاربة والأنكشارية وكان هؤلاء الجند لايمتون بصلة لأهل البلاد ولايشعرون ولايؤلفون معهم وحدة فى العواطف والأغراض وهم مع ذلك عرفوا بالشهامة فى القتال ولكنها لم تكن تآلف شيئا ولم تشب على نظام بل كانت حياتهم مشبعة بالفوضى والأثرة واشتهروا بالسطو وارتكاب الرذائل .

أدرك محمد على أن هذه العناصر لن تفيده بل قد تكون خطرا عليه وهو الرجل الذى يعمل لتكوين دولة مستقلة فى مصر دولة حديثة قويه وهو لابد سيلاقى الصعوبات والعداء فى سبيل ذلك فرأى للتخلص من تلك الظغمة الفاسدة لكى يكون له

جيش حديث ولكن كيف السبيل إلى ذلك ومصر تزدحم بهؤلاء الجنود بالأضافة إلى الحامية العثمانية وعددها نحو عشرة آلاف من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان و ١٢٠٠ من رجال المدفعية . ومصر بدون جيش لن تستطيع أن تقف على قدميها فى وسط هذا الصراع والأطماع الخارجية فانجلترا تقف لمصر بالمرصاد وتركيا لن تسمح لمحمد على بالخروج على طاعتها والأستقلال بشئون مصر وروسيا والنمسا لن تخرج من هذا الصراع صفر اليدين وفرنسا لن تترك انجلترا تنفرد بالنفوذ فى مصر .

كما أدرك محمد على أنه لن يستطيع أن يحقق آماله بهذا الجيش الذى يرفض النظام الحديث والتدريب الحديث والذى لم يتعود على الطاعة وهى قوام الجيوش الحديثة . اذن فماذا يفعل محمد على أيكتفى بهذا الجيش وخطره أشد من منفعته ؟ أم يقضى عليه ويكون جيشا حديثا ولكن من أين له برجال هذا الجيش وقد رأى أن مصر بدون جيش وطنى وانما هى تعتمد على العناصر الأجنبية منذ نحو ثلاثمائة سنة وبدأ محمد على يفكر وجاءه الحل فقد سرحت القوات الفرنسية التى قاتلت مع بونابرت فى فرنسا بعد هزيمته فى ووترلو وهذه العناصر قد اكتسبت خبرة فى الحروب الحديثة ويمكن لمحمد على أن يفتح السودان ويحصل منه على الجند اللازم لجيشه كما يمكن له الأستعانة بعناصر تركية ومملوكية شابة تكون نواة الضباط الذين يحتاج إليهم .

ولم يطل محمد على التفكير فجرب أولا تدرب هذه العناصر الموجوده لديه على النظم الحديثة ولكنهم ثاروا وتمردوا عليه ونجا من ثورتهم هذه بفضل عابدين بك الذى أخبره بهذه المؤامره ورأى محمد على كفاءة العنصر الفرنسى واطمأن إليه فقد خبره عندما صحب الضابط الفرنسى فيسير Vaissiere ابنه إبراهيم فى حملته على الحجاز وأثبت من الأخلاص والكفاءة ما أدخل الأطمئنان إلى نفس محمد على ثم إن ضابطا أخر هو انتلم سيف Anthelme Save جاء إلى محمد على بتوصية فأقبل محمد على على تجربته الجديدة بعزيمة قوية ، وبدأ يوزع هذه القوات المتمردة على الثغور فى شمال الدلتا ليبعدهم عن القاهرة حتى لايكونوا مصدر قلق له وفتح السودان سنة ١٨٢٠ وفى هذه الحرب وفى الحرب ضد الوهابيين سنة ١٨١١ كان قد فقد جزءا من هذا الجيش فجلب من السودانيين نحو ثلاثين الف حاول تكوين جيشه الحديث منهم ولكن المرض انتشر بينهم حتى كاد أن يقضى عليهم جميعا .

ولم يوفق محمد على فى تجربته الثانية هذه ففكر فى الأمر الطبيعى وهو ضرورة أن يعتمد على أهل البلاد أنفسهم . فأخذ يستدعى الخبراء (التعليمجية) من أوربا وسرعان ما وصل له الفوج الأول يضم بين صفوفه بكير أنا ، مارى Mari ، داراجون Daragon سيرين Seirin بوسا Bussa وكيسون Kaisson وشاتى Schatie وعلى

رأس هؤلاء كما ذكرنا الرجل الذى اعتمد عليه واقترنت شهرته بانشاء نواة الجيش الحديث وهو الكولونل سيف الذى أخلص فى عمله ونجح نجاحا باهرا ووصل إلى أقصى مناصب الجيش وحاز ثقة محمد على وأسلم وتسمى سليمان .

بدأ سيف العمل مع أربعمائة من مماليك محمد على وكذلك عدد آخر من مماليك كبار المصريين وابناء محمد على نفسه وعلى رأسهم ابراهيم وبلغ الجميع ألف شخص ومنهم تكونت نواة الجيش بعد أن تخرج هؤلاء ضباطا له ، ورأى محمد على بثاقب نظره أن يكون المعسكر الأول لهذا الجيش فى أسوان بعيدا عن القاهرة وطغيها من لهو وعبث حيث أقام لهم هناك أربع من الثكنات الفسيحة .

ومع ذلك فلم تكن التجربة سهلة خالية من المصاعب فأن الضباط الذين صحبوا إبراهيم إلى بلاد العرب عارضوا هذه التجربة فضرب لهم إبراهيم أروع الأمثلة فى الطاعة والنظام فانخرط فى التجربة جنديا عاديا واستجاب لرغبة سيف فى أن يطيعه طاعة عمياء تثبيتا للضبط والربط فى الجيش . وكما أن المصريين لم يكونوا مستعدين للطاعة والأمتثال للأوامر من معلمين أجانب ولم يتعودا منذ قرون عديدة على الجندية ولم يرق لهم الصمت والنظام أثناء المناورات حتى أنهم دبروا المؤمرات لأغتيال سيف وفشلوا وأثبت لهم من الرباطة وقوة الجأش ما أخجلهم وجعلهم يحبونه بعد قليل ويصبحون مثالا للطاعة والنظام وساعده فى عمله ابراهيم باشا بطاعته ومساهمته الفعالة فى دراسة الأسلحة بالحركات العسكرية الحديثة هذا وقد نقلت هذه التجربة بعد ذلك إلى أماكن أخرى فمن أسوان إلى إسنا إلى أخميم ثم أخيرا إلى بنى عدى قرب منفلوط .

وتم تدريب هؤلاء الضباط فى نهاية شهر ديسمبر سنة ١٨٢٢ فأصبحوا مع مطلع عام ١٨٢٣ رؤوساء لست أورط عسكرية من الجند المصريين الذين سرعان ما استجابوا لمحمد على بعد أن لاقى منهم العنت والمعارضة والتمرد فى بادىء الأمر والنزوع إلى الهياج والنظر إلى الجندية كشىء غير مستحب ولكنهم عندما رأوا حسن الرعاية والعناية فى المأكل والملبس ورأى أهل القرى أن من جند عاد وقد لبس بذلة أنيقة نظيفة يعتز بها وعاد وقد ألم بثقافة جعلته يتيه على غيره من بنى بلدته فبدأ الناس رويدا رويدا تخف مقاومتهم للتجنيد وتهربهم من الجندية وفى ذلك العام كان الجيش المصرى يضم ست آلايات يشتمل كل آلاى على خمس أورط تتألف الأورطه من ٨٠٠ جندى وبذلك صارت هذه القوة تتألف من ٢٤ ألف جندى .

لما استعرض محمد على فى ديسمبر سنة ١٨٢٣ هذه القوة وكان معه قنصلا فرنسا وانجلترا سر بنجاح هذه التجربة وبما بذله إبراهيم وسليمان فى هذا المجال

وأخذ محمد على يوزع هذه القوات فأرسل الآلاى الأول إلى سنار وكردفان والآلاى الثانى إلى الحجاز والآلايات الأربعة الباقية إلى بلاد اليونان وبعدها بدأت القوة الثانية فى بنى عدى من ثلاثة آلايات من المشاة وأخذت كفاءة الجندى المصرى تظهر بوضوح وأبدى من الكفاءة والبسالة والتفوق ما جعله يعلو على غيره من العناصر التى اشتركت معه وأخذ محمد على ينعم على المتفوقين منهم تشجيعا لهم على بسالتهم وحسن سلوكهم .

لما تقدم الأمر وأخذ عدد الجند يزيد وجد محمد على أنه لابد من إقامة معسكر التدريب قرب القاهرة فأقامة أولا فى أثر النبى بالجيزة ثم نقله إلى القبة لتعرض المكان الأول للغرق بالمياه (مياه الفيضان) ثم عاد ونقله إلى الخانكة وأبى زعبل ليكون بعيدا عن ملاهى المدينة وسمى هذا المعسكر (جهاد أماد) وأتمت هذه الدفعة تدريبها فى أغسطس سنة ١٨٢٥ وبدأ تدريب القوة الثالثة من ثلاثة الايات أيضا وأتمت تدريبها فى نهاية عام ١٨٢٥ وبذل هذا الجيش تفوقا وشجاعة فى إخماد ثورة المورة التى فشلت جيوش تركيا فى إخمادها إلا أن الدول وخاصة انجلترا لم تكن لتترك هذه القوة النامية وهى التى حرصت على أن تظل مصر ضعيفة ليظل طريقها إلى الهند آمنا لاتهدده أية قوة داخلية أو خارجية فى مصر . فأجبرت محمد على على سحب جيشه من الموره بعد أن خاض بنجاح حربا أوربية اكتسب فيها المران على فنون الحرب الحديثة وخطط القتال الحديثة ورفع اسم مصر بين الدول .

إلى هنا ولم يكن الأمر كافيا فأن الجيش الحديث يحتاج بجانب التدريب الى قيادة واعية وإلى أسلحة حديثة وإلى جهاز يعد له ما يحتاجه من علاج لأفراده وتموين بالغداء والملبس وإلى ثكنات صحية يقيم فيها ثم إلى خبرات متطوره وفق أحدث نظم القتال ووجد محمد على أنه إذا ما استورد هذه الخبره وهذا السلاح واكتفى بذلك فأنه سيصبح تحت رحمة هذه الدول أعطوه أو منعوه رغبتهم وحسب مشيئتهم فأدرك وهو الرجل البعيد النظر أنه لابد من أن يعتمد على ابناء مصر فى بناء دولتهم وحضارتها الحديثة . فأنشأ ديوان الجهادية ويرجع إليه فى إدارة شئون الجند وتعليمهم وضبط حركاتهم وبناء الثكنات لهم والمستشفيات لعلاجهم وإعداد المهمات والأغذية والأسلحة اللازمة . وكان هذا الديوان يتلقى الأوامر من محمد على رأسا ليتولى تنفيذها فورا واختار لهذا الديوان رجلا كفؤا هو محمد بك لازوغلى وجد فيه سيف وزملاءه كل تعاون فقد كان رجلا قوى الشخصية على جانب كبير من الجدارة وأصبح السند الحقيقى لمحمد على فى تحقيق مآربه إلا أنه مات بعد قليل فخلفه محمود بك عزت الذى خلع بعد مدة وجيزة بعد أن تعرض للمؤمرات وحل محله أحمد باشا المناخلى .

ولما كان العنصر الفرنسى هو الغالب فى تدريب الجيش والأشراف عليه فقد تم تنسيق الجيش الجديد بمختلف أسلحته على نمط الجيش الفرنسى وطبقت على رجاله القوانين واللوائح الفرنسية السارية فى الجيش الفرنسى تطبيقا دقيقا محكما وترجم من أجل ذلك القانون العسكرى الفرنسى إلى اللغة التركية للعمل بمقتضاه . وتوالت البعثات الفرنسية التى طلبها محمد على فجاء إليه فى ٦ اكتوبر سنة ١٨٢٤ ست من الضباط برئاسة ليفتانت جنرال بير بوييه فرانسوا Beer Boyer Franceis وعقدوا مع محمد على عقد لمدة عشر سنوات ثم انتدب فى العام التالى سبعة ضباط آخرين وفى عام ١٨٢٩ جاءت بعثة ثالثة من ست ضباط ووضع محمد على أمام هؤلاء الخبراء كافة التسهيلات ومنحهم المرتبات العالية ووفر لهم وسائل المعيشة المناسبة وترك لهم حرية التدين . وكانت البعثة الأولى تحمل معها خمسمائة بندقية هدية من ملك فرنسا .

وبذل الجنرال بوييه جهدا واضحا فأسس مدرسة أركان الحرب وقدم مشروعا لاعادة تنظيم المدفعية وسلاح المهندسين العسكريين . وسانده فى عمله الكولونيل جودا Gandin الذى حاز ثقة الضباط وصداقتهم وأصبح كبير المدربين ثم أشار بوييه على محمد على باستدعاء سبعة ضباط آخرين إلا أن جشع بوييه وحبه الشديد للمال ودبيب البغضاء فى نفوس الضباط والتنافر بينهم أدى إلى استقالته ومعه تسعة من الضباط فى ١٤ اغسطس سنة ١٨٢٦ وعودتهم إلى فرنسا .

وكان لابد من فتح المدارس لتعليم الفنون العسكرية التى يتخرج منها الضباط فأحضر محمد على من الدول الأوربية عددا من المدرسين والأطباء والصيادلة والمدربين واستعان بهم فى فتح العديد من المدارس العسكرية والأشراف على المستشفيات ، وكانت هناك هيئة تشرف على تعليم الجيش وتدريبه تسمى ديوان المدارس تحت إشراف ناظر الجهادية يساعده عدد من الضباط ومهمته البحث فى شئون تعليم الجيش ووضع القوانين والتعليمات وتعديلها من حين لآخر واسندت رئاسة هذا الديوان إلى اللواء مصطفى مختار بك .

بدأت المدارس تفتح أبوابها ففى سنة ١٨٢٢ افتتحت المدرسة الحربية فى أسوان فى ٢٥ يناير ومدرسة فرشوط الحربية فى ٢٦ فبراير وفى سنة ١٨٢٥ افتتحت مدرسة إعدادية هى مدرسة قصر العينى انتخب لها مابين ٥٠٠ - ٦٠٠ تلميذا من أبناء الترك والمصريين ليتعلموا فيها اللغات والرسم والحساب والهندسة ويعدون لكى يدخلوا بعد ذلك مدرسة المشاة ثم مدرسة الكبارى والطرق العسكرية ويختار من المدرسة الآخيرة المتفوقون لمدرسة أركان الحرب أو المهندسين وتسمى مدرسة الجهادية ويتبعها مدرستا التجهيز والطب البشرى وأشرف كلوت بك رئيس أطباء الجيش على إنشاء مدرسة الطب فى مستشفى أقيم بين الخانكة وأبى زعبل ثم أقيم مستشفى أخر

فى ميدان الأزبكية كما أقيم مجلس صحى من مشاهير الأطباء برئاسته . وبالقرب من مستشفى الخانكة أقيمت مدرسة الطب البيطرى على يد السيد م . هامون سنة ١٨٣٧ .

وفى الخانكة كذلك أنشئت مدرسة المشاة عام ١٨٣٢ ثم نقلت هذه المدرسة إلى دمياط عام ١٨٣٤ م وأعدت على أحدث النظم لتعليم ٤٠٠ شاب مصرى ثم نقلت مرة ثالثة إلى أبى زعبل عام ١٨٤١ كما أنشىء مكتب للبيادة عام ١٨٣٢ فى جرجا يتلقى فيه التلاميذ مبادىء مهاجمة الحصون والدفاع عنها ويدرسون الطبوغرافيا (الجغرافيا العسكرية) ونظريات وحركات البيادة على استخدام السلاح وواجبات الخدمة الداخلية والبوليس ونظام الحاميات والأورط والبلوكات . وكان مديرها يوسف أغا خلفا لضابط بيد منتى خدم فى جيش نابليون هو بولجنينو Bolognino كما كان تلاميذها يقرأون كتبا فى النحو والصرف واللغتين الفارسية والتركيه ويدرسون الحساب ونقلت هذه المدرسة إلى الجيزة فى عهد عباس باشا ثم ألغيت وسرح تلاميذها .

وفى سنة ١٨٢١ أنشئت مدرسة السوارى فى قصر مراد بك ليتلقى فيها ٢٠٠ طالب اللغات والفنون العسكرية والموسيقى وفنون الفروسية كما التحق بها عدد من الضباط ليصبحوا معلمين بالجيش وعدد من تلاميذ المدرسة التجهيزية وكانت مدة الدراسة بها ٣ أو ٤ سنوات يتخرج منها ضباط فى فرق الفرسان واختير لها التلاميذ فى بداية الأمر من الترك وأبناء المماليك ثم أخذ العنصر المصرى ينمو بها ويزداد كما زاد عدد تلاميذها حتى بلغ نحو أربع أورط وقد أغلقت هذه المدرسة فى عهد عباس .

وفى طره فى عام ١٨٢١ أسست مدرسة المدفعية على يد الكولونيل الأسبانى دون انطونيو سيجويرا Don Antonio Sequerra وانتخب لها ٣٠٠ تلميذ من مدرسة قصر العينى التجهيزية يتلقون مبادىء اللغات ودروس الرياضه والرسم ومبادىء فن المدفعية وألحق بها مستشفى خاص عسكرى ولكن مستواها انحط بعد ترك سيجويرا لها وبعد أن أحرزت نجاحا فى عهده شهده الأميرال الألمانى بوكلر موسكو . وبعد أن ساهمت فى تقدم فن المدفعية فى الجيش المصرى ولكن الترك والفرنسيون كما عرف عنهم فى ذلك الوقت ـ حاكوا الدسائس والمؤمرات حول سيجويرا فتخلى عن عمله بعد أربع سنوات . وبعد أن ألحق بها مطبعة لتطبع الكتب التى عربها رفاعة الطهطاوى . وكانت هذه المدرسة يلحق بها مدرسة المهندسين العسكريين ثم استقلت هذه المدرسة سنة ١٨٤٤ فى بولاق وأعد طلبتها للتخصص فى أعمال هندسة الترع والألغام والكبارى والطرق والأستحكامات .

وكان محمد على قد استعان سنة ١٨٢١ بعثمان نور الدين أحد أعضاء البعثة المصرية إلى فرنسا فى إنشاء مدرسة أركان الحرب فى الخانكة وأسندت إدارتها إلى

الكولونيل الفرنسى بلانا Planat سنة ١٨٢٥ وكان طلبتها يدرسون علوم المدفعية والأستحكامات والمساحة والأستكشاف والرياضة وفنون المشاة واللغة الفرنسية والقيت فيها محاضرات فى علوم الأستراتيجية والطبيعة والكيمياء والجغرافية والتاريخ العسكرى وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات . وحتى يكون لكل آلاى فرقته للموسيقى فقد أنشئت مدرسة الموسيقى بالخانكة وجلب محمد على الآلات الموسيقية والمعلمين من فرنسا تحت إشراف مسيو كاريه ولكن هذه المدرسة ألغيت سنة ١٨٤١ ووزع تلاميذها على المدارس الحربية الأخرى .

كان هذا الجيش بهذه الصورة الضخمة يحتاج إلى سلاح وإلى ملابس كما ذكرنا ومن ثم فقد أقام محمد على المصانع الخاصنة لأمداد جيشه بما يلزمه من سلاح وآلات القتال والملابس والطرابيش وأقام له معامل البارود فى جزيرة الروضة . ثم سرعان ما تعددت هذه المعامل تحت إشراف المسيو مارتل وكانت تسمى كهرجالات فأقيمت المعامل فى القاهرة والبدرشين والأشمونين والفيوم وأهناسيا والطرانة .

أما إيفاد محمد على للبعوث فكان إلى فرنسا للأطلاع والتدريب ونقل العلوم والثقافة العسكرية الحديثه وهو الرجل الذى تعددت أطماعه وقويت همته فكان أعضاء البعثة الأولى مختار بك ناظر المعارف ومحمد مظهر ناظر مدرسة المدفعية بطره وأحمد يكن مصطفى القللى رائد صناعة الذخيرة فى مصر . وفى البعثة الثانية سنة ١٨١٨ نبغ عثمان نور الدين الذى أصبح رئيس العمارة البحرية سنة ١٨٢٨ وفى البعثة الثالثة سنة ١٨٢٦ كان الهدف هو الصبغة الصناعية العلمية وتخصص بعض طلبتها فى الأدارة الحربية وفى البعثة الرابعة سنة ١٨٤٤ ذهب ٧٠ طالبا فيهم بعض أبنائه وأحفاده . وبلغ من عمق العلاقات بين مصر وفرنسا أن أقامت فرنسا من أجلهم المدرسة المصرية الحربية بباريس تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية وعين لها الأميرال بوانسو Poincot ناظرا وكانت للتخصص فى العلوم الحربية ونبغ من تلاميذها أحمد حلمى والخديو إسماعيل والأمراء حسن ومحمد عبد الحليم وعلى إبراهيم باشا الذى يرجع إليه الفضل فى نهضة التعليم فى عهد إسماعيل وعلى مبارك وهو غنى عن التعريف ومحمد شرف باشا الوزير المشهور .

ولما كان محمد على يعرف مكانة الجيش فى الدولة الحديثة وأن سعادة الوطن فى سعادة الجيش وقوته لم يبخل على الجيش بالأموال الطائلة لأنه كان يعلم أنه سيبلغ بجيشه القوى المركز الذى خلق له وفى أقل من ربع قرن أعد جيشا قويا منظما جيد التعليم والتدريب حسن التسليح تخشى الدول بأسه وتضعف تركيا أمامه ووجد له فى ابنه ابراهيم قائد كفؤا ورأسا مفكرا . ونظرة إلى ميزانية مصر سنة ١٨٣٣ نجد أن إيرادات مصر كانت ٦٢.٧٧٨.٧٥٠ فرنك وبلغت جملة المصروفات ٥٠.٠٠٠.٠٠٠

فرنك منها ١٥ مليون فرنك للجيش و ١٠.٥ مليون فرنك للأسطول أى أنه كان يصرف على جيشه وأسطوله أكثر من نصف المصروفات ونحو $\frac{٥}{١٢}$ من جملة إيرادات البلاد .

وبقدر ماأعد محمد على جيشه ليكون قوة هجومية بقدر ما اهتم بتحصين البلاد وبخطة الدفاع عنها فقد كان يقيم فى قلعة محمد على فأعاد اليها الحياة ودب فيها النشاط وأصلح أسوارها ، وأبراجها وأبوابها وشيد فيها قصر الجوهرة وبنى بها ثكنات للجند ومصانع للذخيرة والاسلحة وعلى ذروة جبل مقطم أقام قلعة حصينة شيد بها صهريجا لخزن المياه العذبة على النمط التركى وكان هذا الحصن مربعا ضيق النطاق يستند إلى سور من الحجر فى وسطه برج محصن بالمدافع . كما حصن الأسكندرية فشيد بها الطوابى والقلاع واستفاد بخبرة جاليس بك وهو مهندس عسكرى فرنسى وبلغ عدد القلاع التى أقامها فى الاسكندرية ١٦ طابية عليها ٣٣٠ مدفعا ، ٥٩ هاونا سنة ١٨٤٠ زاد عددها سنة ١٨٥٥ إلى ٢٤ طابية بالأضافة إلى قلعة برج الظفر عليها ٦١٧ مدفعا و ٦٩ هاونا .

ولما تولى إبراهيم الحكم بعد أبيه أخذ فى استكمال هذه الأستحكامات والقلاع والحصون فى أبى قير والعجمى ومقابر اليهود وأمر باستكشاف ساحل مصر الشمالى من الأسكندرية إلى العريش وأقام طريقا عسكريا من طابية القبارى إلى باب العرب .

ولما جاء سعيد شيد القلعة السعيدية فى القناطر الخيرية وعزز إسماعيل باشا حصون الأسكندرية بمدافع حديثة من انجلترا وبلغ عددها مائتى مدفع من طراز مسترونج عيار ٧ بوصة .

وفى أبى قير كان هناك ٨ طوابى بها ٢٢٥ مدفعا يحتمل أن الذى أشرف على تقويتها هو عباس باشا استكمالا لخطة جاليس بك وشيد بها مخبزا وطواحين تدور بالهواء ومستشفى عسكرى .

وبلغ عدد الجيش المصرى سنة ١٨٢٨ ، ٤١٤٤ من رجال المدفعية و ١٣٠٠ من رجال الهندسة العسكرية و ١١٠،٥٣٠ من المشاة يشرف عليهم هيئة طبية تضم ستة من الأطباء ويتولى خدمتهم خمسة من الكتبة وأمام للصلاة . وكان هذا الجيش موزع بين المورة والسودان والقاهرة والحجاز وزاد عدد الجيش فبلغ فى سنة ١٨٣٢ ١٦٨,٨٨٩ جنديا من مختلف الأسلحة وبلغ فى سنة ١٨٣٧ ٩٦,٩٩٩ جنديا من المشاه و ١١,٦٠٠ من رجال المدفعية و ١١,٦٨٤ من الفرسان ، ٢,٩٤٢ من المهندسين فمعنى ذلك أن عدده نقص الى ١٢٣,٢٢٥ جنديا . وفى ١٨٣٩ كان عدد الجيش ٢٣٥,٨٨٠ منهم ٤١,٦٧٨ من الجنود غير النظامية (الباشبوزوق) وكانت ميزانية تعليم هذا الجيش فى تلك السنة ١٤,٣٤١ جنيها وعدد تلاميذ المدارس العسكرية ١٣٥٠ تلميذا يشرف على التدريس لهم ٥٢ معلما .

ب) الأسطول :

كانت تجربة محمد على العسكرية إلى بلاد العرب للقضاء على الوهابيين هى بداية الطريق إلى إنشاء الأسطول المصرى الحديث ذلك أنه أراد اتخاذ الطريق البحرى إلى ينبع و جدة ولما لم يجد السفن لنقل الجند فقد أصدر أوامره إلى جهات مصر لجمع الخشب وما يلزم لأنشاء خمسة عشر سفينة كبيرة وطلب من الآستانة إمداده بالأخشاب كذلك فقطعت الأشجار (النبق والتوت) وأحضرت إلى سواحل بولاق حيث أنشأ هناك دار صناعة مكونة من معامل مختلفة اجتمع فيها النجارون والنشارون والحدادون وبعد إعداد أجزاء السفينة كانت تحمل على ظهور الأبل إلى السويس وهناك يقوم الصناع بتركيب السفينة وإنزالها إلى البحر وأنشئت بذلك أربع سفن من النوع الكبير الذى عرف فى ذلك الوقت باسم (الأبريق) وإحدى عشرة سفينة من النوع المعروف باسم (الشونة) وباشر محمد على بنفسه هذا العمل بهمة عظيمة وأخذ يشترى السفن الحربية ويوصى على إنشائها فى الثغور الأوربية كممر سيليا وليفورن وتريستا وجهز لها المدافع وعهد بقيادتها إلى القباطنة من قواد السفن التجارية فى الأسكندرية ومن الترك وجلب لها الملاحين المتطوعين واستدعى لها الضباط الفرنسيين والأيطاليين لتعليم البحارة المصريين .

وكانت هناك فى الأسكندرية ترسانة قديمة لصناعة السفن وأراد محمد على إحيائها فعهد إلى رجل من أهل الاسكندرية يدعى شاكر للعمل على إحياء هذه الترسانة وكان يعاونه مهندس بارع فى صناعة السفن هو الحاج عمر جعله محمد على رئيسا للأنشاء وبخبره القبطان الفرنسى مسيو بيسون Besson الذى جاء إلى مصر سنة ١٨٢١ وعرض خدماته على محمد على وجعله ملاحظ للسفن التى أمر بصنعها فى موانى أوربا ونال هذا الرجل ثقة محمد على وجعل لاسطوله إدارة خاصة أسند رئاستها للأميرال محرم بك بالأضافة إلى عمله كمحافظ للاسكندرية .

لكن هذا الأسطول لم يسلم من خبث السياسة البريطانية فتآمرت على تدميره فى نوارين فلم يجد محمد على بدا من تكوين أسطول جديد وتم له هذا الأمر بفضل مهندس فرنسى كان صاحب مصانع لصناعة السفن فى طولون واسمه دى سريزى De Cerisy فعهد إليه محمد على إنشاء دار صناعة بحرية فى الأسكندرية على مساحة ستين فدانا بواجهة على البحر تبلغ نصف ميل طولا وبها حوض يسع أكبر السفن وكان يساعده الحاج عمر .

وكعادته هدف محمد على إلى إنشاء صناعة تغنيه عن الخارج وأن يتم هذا العمل سريعا ووضع سريزى مشروعه وشيد دار الصناعة البحرية حتى أصبحت

الاسكندرية تضارع طولون ولم يرد محمد على الأعتماد كلية على الأجانب بل أرادها صناعة مصرية وطنية فقام سريزى بتدريب العمال المصريين على الأعمال المختلفة **الخاصة بالسفن وإنشائها وتيسيرها وفى ٣ يناير سنه ١٨٣١ نزلت إلى البحر أول سفينة مصرية من هذه الترسانة وكان كلما تعلم المصريون عملا من الأعمال استغنى عمن يقومون به من الأجانب حتى لم يبق منهم إلا القليل وجاء موجيل بك ليؤسس مدرسة للملاحة وبالأرادة القوية والمثابرة على العمل وأنجز فى أربع سنوات عملا مجيدا وأصبح لمصر أسطولا من ٣٠ قطعة على كل منها ١٠٠ مدفع و ٧ قطع على كل منها ٦٠ مدفعا و ٣ بواخر وأصبح يعمل فى الأسطول ١٨ الف بحار منهم ٨٠٠ ضابط ويعمل فى الترسانة ثمانية آلاف عامل .**

ودرب محمد على البحارة على الخدمة فى الأسطول وإجادة القتال فى معسكر تدريب أنشأه لهم شرق رأس التين ويتدرب فيه عشرة آلاف جندى ، وأنشأ لهم مستشفى فى شبه جزيرة رأس التين وأخر فى الترسانة ، ولكى يمد محمد على أسطوله بالخبرات الأنجليزية والفرنسية أوفد بعوثا إليها للتدريب على الفنون الحربية فوق ظهر السفن الحربية وعادوا إلى مصر ليساهموا فى إنشاء حوض لترميم السفن كما أنشأ المهندس مظهر باشا فنار الاسكندرية فى رأس التين لأرشاد السفن وكان عملا عظيما أداه محمد على .

ثالثا : نظام الحكم :

لعل أقل ما يوصف به عهد محمد على أنه عهد قام على الأستقرار وخلص مصر من تلك الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد سنوات عديدة تلك الفوضى التى خلقت هذه الطبقة الواعية من العلماء وزعماء الشعب والتى وقفت درعا لمصر تحميه من تحكم الولاة العثمانيين وظلمهم لأهل البلاد كما قاومت البكوات المماليك وطغيانهم بقدر ما قاومت الفرنسيين ولعبت دورا رئيسيا لاينكره أحد فى تولية محمد على حكم مصر ، إلا أنه بدلا من أن يجعل محمد على هذه الطبقة عونه فى حكم البلاد رأيناه يعمل للتخلص منها وأنكر عليها حقها فى تمثيل الشعب المصرى تمثيلا حقيقيا فى حكومته الجديدة فبدأ يدبر لها المكائد تارة ويصانعها تارة أخرى حتى قضى عليها ولما ثبت له زعيمها الأكبر عمر مكرم نفاه خارج القاهرة ثم انفرد محمد على بالحكم يحكم هذه الدولة الحديثة التى أنشأها فى مصر حكما استبداديا مستعينا بقوته الحربية التى أنشأها فى البلاد وبجهاز استشارى أنشأه لم يكن له من السلطة الا إسمها فقط وبجهاز بيروقراطى إدارى ساعده على استتباب الأمن والنظام فى البلاد ففى القلعة أنشأ محمد على الديوان العالى كان يرأسه بنفسه أو يرأسه نائبه وكان هذا الديوان يجتمع بانتظام لينظر فى العرائض التى تقدم له ويدرس الشئون الحكومية المهمة قبل بدء

تنفيذها وبرئاسة ابنه ابراهيم أقام (الديوان الخاص) أو كما يسمى أحيانا المجلس المخصوص سنة ١٨٤٧ وذلك للنظر فى شئون البلاد الكبرى ولأصدار القوانين والتعليمات لصالح الحكومة . أما (مجلس الشورى) الذى كان قد أقامه سنة ١٨٢٩ فقد كان يجتمع مره واحده فى السنة وكان مجلسا مسلوب السلطة لم يظهر له أثر فى توجيه إدارة البلاد ومع أنه كان يمثل الشعب بصفه ما حيث تألف من ١٦٥ عضوا ولكنهم كانوا معينين وليسوا منتخبين منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩ من كبار اعيان البلاد ثم أنه لم يدم طويلا ولم يظهر له أثر فى إدارة البلاد ولم ينعقد فى عهد عباس أو سعيد .

ورأى محمد على أن خير وسيلة لتحسين الأدارة هى توزيع الأعمال الأدارية على نظارات (وزارات) مختلفة اختار لكل منها رجلا كفؤا كان يعينه المجلس المخصوص ولكن هؤلاء كانوا غالبا إما من الترك أو من الأجانب ، وجعل للأشراف على أعمال الأدارة فى مصر مجلس خاص يستشيره فى الشئون الهامة وجعل لكل إدارة فى الحكومة ديوان خاص فهناك ديوان الجهادية وديوان المدارس وديوان البحرية وديوان الأيرادات وديوان الأمور الخارجية وديوان الفابريقات وكانت كلها فروع للديوان العالى ولكل منها مجلس فنى يتكون من الأخصائيين ويرأس هذه المجالس ويشرف عليها (مجلس شورى الأمة) الذى كان يجتمع فيه كل رؤساء الأدارات المختلفة .

وكان محمد على قد قام بمسح الأراضى فى سنة ١٨١٣ وقسم البلاد إلى سبع مديريات أربع فى الوجه البحرى وثلاثة فى الوجه القبلى ويشرف على كل منها مدير وهذه المديريات تقسم إلى عدد من المراكز يرأسها مأمورو المراكز وكانت مهمتهم مراقبة الزراعة وجمع الأموال والمحصولات وأنفار القرعة والأشراف على عدد من القرى والأقسام حيث كان كل مركز يقسم إلى عدد من الأقسام يشرف على كل قسم (ناظر) وكان كل قسم يضم عددا من القرى يحكمها العمدة وشيخ البلد ويساعدهما الخولى لمسح الأراضى الزراعية والصراف لجمع المال الميرى والشاهد (المأذون) وحلاق الصحة للأشراف على الشئون الصحية . أما المدير فكان يتلقى الأوامر من محمد على فينفذها ويراقب تنفيذها فى مديريته كما كان يراقب أعمال الرى .

أما القاهرة والأسكندرية ودمياط ورشيد والسويس فقد جعلت مدنا مستقلة وسميت محافظات يحكم كل منها المحافظ يساعده ضابط (مدير الأمن) وإذا كان هذا النظام الذى أجراه محمد على لم يبلغ حد الكمال وقام على الأستبداد فأنه بما عرف عن محمد على من حزم أدى إلى تقدم البلاد والأرتقاء بالجهاز الأدارى .

رابعا : تدعيم اقتصاديات البلاد

عندما وصل محمد على إلى الحكم فى مصر وجد أن مصر البلد الزراعى من قديم الأزل قد انحطت فيها الزراعة وأقفرت فيها مساحات واسعة وهبط المزروع من أرضها إلى ٣,٦٨٥,٦١٣ فدانا وقل عدد سكانها حتى وصل إلى ٣,٤٣٠,٠٠٠ نسمه واهمل الرى وقلت العناية بذلك النهر العظيم شريان الحياة فى مصر طوال العصور فبدأ على الفور يعمل لأصلاح هذا المورد الطبيعى للأنتاج فى مصر وأعنى به الرى والزراعة .

كان أول ما عمد إليه محمد على هو إصلاح نظام الرى الذى أهمل فى القرون السابقة بشكل واسع وحول مساحات الزراعة فى الوجه البحرى إلى الرى الدائم وبدأ يغير نظام الرى الحوضى فى الوجه القبلى إلى الرى الدائم ، وكان ذلك يستدعى منه تطهير الترع حتى يتسع مجراها لتحمل كميات كبيرة من المياه ولكن هذا العمل قصر دون الرجاء فعمد إلى النيل نفسه ليرفع من مناسيب مياهه وكانت تلك المجموعة الكبيرة من الترع والقناطر حتى أننا لنستطيع أن نقول أن ما نرى الآن من ترع وفروع للنيل فى مصر أو قناطر أو جسور كان من عمل محمد على أو من تفكيره على الأقل .

وكان أعظم هذه المجموعة هو بناء القناطرالخيرية عند تفرع النيل عند رأس الدلتا تفرع ليضمن للوجه البحرى كله الرى الدائم . وكانت بداية لتلك السلسلة من الترع والرياحات التى تحمل المياه إلى الأراضى الواسعة فى الدلتا . وبدأ بناء تلك القناطر سنة ١٨٣٣ بمعرفة مسيو لينان ثم توقف بعد قليل ليستأنف من جديد سنة ١٨٤٢ عندما بدأه مسيو موجيل ومات محمد على قبل أن يتم المشروع وأدرك خلفاؤه أهمية هذه القناطر فأكملوها وأقام بها سعيد باشا القلعة السعيدية ثم تمت تقويتها سنة ١٨٨٧ فى عهد الخديو توفيق وتبين بعد ذلك وجود بعض الخلل بها فأقيمت إلى الشمال منها وعلى بعد أمتار قليلة القناطر الخيرية التى افتتحت سنة ١٩٣٩ وعرفت القناطر القديمة باسم قناطر محمد على .

وفى الوجه القبلى حفر محمد على ترعة الأبراهيمية التى تمتد من جنوب أسيوط وحتى الجيزة ويخرج منها عند ديروط بحر يوسف ليروى منطقة الفيوم ، وكذلك يعزى لمحمد على ذلك المشروع العظيم وهو ترعة المحمودية التى ساعدت على تقدم الأسكندرية فى الثروة والعمران وفى إصلاح مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ولكنه إذا كان هذا المشروع فى الثروة والعمران وفى إصلاح مساحات واسعة من الأراضى الزراعية قد أفاد كثيرا ويعتبر من الأعمال العظيمة إلا أن محمد على استخدم

السخرة فى حفر هذه الترعة التى انتهى العمل فيها سنة ١٨١٩ بعد أن هلك فى حفرها ١٢ ألف عامل فى عشرة شهور بسبب قلة الزاد والمؤونة وبلغ عدد العمال الذين استخدمهم محمد على فى حفرها ٣١٣ ألف عامل من الفلاحين أخذوا من مديريات الوجه البحرى والجيزة .

كذلك تمت فى عهده ترع الخطاطبه والمنصورية والشرقاوية والنعناعية والباجورية والوادى والباسوسية فى الوجه البحرى وفى الوجه القبلى ترع البرانقه والفشن والمرعشلى والرمادى وكانت هناك ترعة تسمى ترعة الفرعونية تصلهبين فرعى دمياط ورشيد فتحمل المياه من الأول إلى الثانى فتلحق الضرر بالأراضى شرقى فرع دمياط وبخاصة شمالى المنصورة واشتكى السكان من ذلك فأمر محمد على بسد هذه الترعة بجسر من الحجارة وامر بحفر عدة ترع لتمد أراضى البحيرة بالمياه ليعوض خسارتها فى المياه بعد سد ترعة الفرعونية . ووجد محمد على أنه يمكن الأستفادة من بحيرة أبى قير فأمر بسد الفتحة التى تصلها بالبحر وبدأ تجفيف البحيرة تدريجيا وتحولت إلى أراضى زراعية .

لاشك أن هذه المشروعات كانت بداية للمشروعات كانت بداية للمشروع العظيم مشروع خزان أسوان الذى أقيم سنة ١٨٩٦ والذى تمت تعليته سنتى ١٩٠٨ ، ١٩١٢ والذى كان بداية التفكير فى مشروع السد العالى . واذا كان عباس باشا قدأقام قناطر أسيوط سنة ١٩٠١ وقناطر زفتى سنة ١٩٠٢ وقناطر اسنا سنة ١٩٠٩ ونجع حمادى سنة ١٩٣٢ وذلك بقصد رفع المياه أمامها لتغذية الترع المتفرعة من النهر عندها فانها لاشك كانت إتماما لتلك السلسلة من الترع والأعمال التى بدأت مع مطلع القرن التاسع عشر . وكانت نتيجة ذلك كله أن زادت المساحة المنزرعة فى مصر فأصبحت بنسبة فدان لكل شخص واحد ثم عادت ونقصت سنة ١٨٨١ فأصبحت فدان واحد لكل ثلاثة أشخاص بعد ما زاد عدد السكان بينما لم يمكن زيادة المساحة المنزرعة بنفس النسبة .

التفت محمد على إلى الأرض الزراعية وإنتاجها وأخذ ينظم فرض الضرائب عليها وطرق جبايتها فاعتبر نفسه مالكا لكل الأراضى الزراعية فى مصر باعتباره نائبا للسلطان خليفة المسلمين وبدأ يوزعها على السكان فأعطى كل فلاح مابين ٣ إلى ٥ أفدنة وترك لمشايخ القرى ٤ ٪ من مجموع أراضى القرى ثمنا لقيامهم بضيافة عمال الحكومة ومادام الفلاح يدفع ما عليه من الضرائب فله حق التمتع بزراعة الأرض وانتاجها وأمد محمد على الفلاح بالآلات والمواشى ومياه الرى وحدد عن طريق مأمورو المراكز المساحة الواجب زراعتها لكل محصول إلا أنه احتكر إنتاج الأرض فأجبر الفلاح على توريد إنتاج أرضه بالكامل لمحمد على فيقدر ثمنه ويأخذ جزءا من الثمن

نظير ضريبة الخراج ويعطيه الباقى ، وكان محمد على يقدر الثمن حسب مشيئته وبعدها كان الفلاح يشترى ما يحتاجه من خزائن الدولة بالسعر الذى يحدده محمد على أيضا .

ولما كان محمد على فى حاجة إلى إدخال صناعات حديثة وهذه الصناعات تحتاج إلى المواد الخام فأنه عندما وجد أن القطن الذى كان يزرع بمصر منذ زمن بعيد من نوع غير جيد وبكميه لاتكفى الحاجة فأنه عنى بأدخال الأنواع الجديدة من القطن وتوسع فى زراعته وكان المسيو موجيل الذى استقدمه محمد على من فرنسا سنة ١٨٢١ ليستعين به فى تنظيم مصانع الغزل والنسيج فى مصر قد عثر على قطن من نوع جيد فى حدائق "محو بك" بمحض الصدفة فأعجب به وعرضه على محمد على واشار بالتوسع فى زراعته فأدرك ببعد نظره مايعود على البلاد من ذلك فعمل على تنشيط زراعته وتشجيع الفلاحين على ذلك فاشترى منهم المحصول بثمن مرتفع وبعد سنوات قلائل انتشرت زراعة القطن وخاصة بعد ما استورد نوعا آخر من أمريكا وأصبح القطن المصرى يحتل منزله رفيعه وتهافت على طلبه مصانع الغزل فى فرنسا وانجلترا وزاد إنتاجه فبعد أن كان محصوله سنة ١٨٢١ م ٩٤٤ قنطارا وصل بعد ست سنوات ٣٤,٢٠٠ قنطار ثم وثب وثبة سريعة سنة ١٨٦٦ أثناء الحرب الأهلية الأمريكية عندما قلت زرعته فى أمريكا وأصبح القطن المصرى وحتى اليوم الدعامة الأولى للزراعة فى مصر بعد أن كان القصب والقمح يحتلان المرتبة الأولى . واستمرت التجارب لأدخال الأنواع الجيدة وتحسينها وخاصه بعد ما أدخلت الجمعية الزراعية الملكية القطن طويل التيلة وبجانب زراعة القطن أدخلت محصولات أخرى مثل النيله (الأصباغ) والدخان والكتان لأنتاج خيوط التيل كما شجع محمد على زراعة التوت لتربية دودة القز من أجل خيوط الحرير .

أبطل محمد على نظام الألتزام فى جمع الضرائب وكان هذا النظام معمولا به فى مصر منذ عصر المماليك ويقوم على أساس أن يتكفل من يريد من أكابر البلد بتحصيل الخراج للحكومة فى بلدة معينة أو عدة بلاد بالمزايدة أو بالأتفاق فيدفع للخزينة مال سنة واحدة مقدما ويعطى وثيقة الألتزام فيصبح له بعدها حق التصرف فى القرية لأنه كان يحل محل الحكومة فى السيادة فى دائرة التزامه وأصبح يتصرف فى جباية الأموال كيف يشاء ويعطى نظير ذلك قطعة أرض عرفت باسم (الوسية) يزرعها الفلاحون لحسابه وبعد أن كان يعطى الألتزام فى بداية الأمر لمدة محدودة صار بعد ذلك يعطى طوال الحياة ثم أصبح يورث وزاد عدد الملتزمين حتى بلغ ستة آلاف ملتزم .

ولما جاء محمد على ألغى هذا النظام وأعطى الملتزمين راتبا معينا ولما قام الملتزمون فى الصعيد بثورة ضد محمد على ضم أراضى الوسية التى يملكونها إلى الدولة

أما أراضى الوسية بالوجه البحرى فقد تركها لأصحابها ، واحترم أراضى الأوقاف ولكنه عزل ما عليها من نظارها وعلمائها وعين نفسه ناظرا عليها وتعهد بتنفيذ الشعائر الدينية التى تتطلبها هذه الأوقاف وعين للشيوخ راتبا سنويا ولم يتعرض للعقار الموقوف والحدائق وأخذ محمد على ضريبة الخراج (الميرى) على الأرض من كل فلاح ماعدا (الأبعديات) وهى الأراضى الواسعة التى منحها لضباط وكبار رجال الدولة واختلف تقدير هذه الضريبة على حسب جودة الأرض وقد تراوحت بين ٢٤ ، ٤٠ ، ٦٠ قرشا للفلاح على الفدان وعلى حين ألغى نظام الألتزام فأنه اتبع النظام التضامنى فى جمع الضرائب ومعناه أن يلتزم سكان القرية الواحدة بدفع الضريبة عن قريتهم متضامنين فيدفع القادر عن غير القادر كما كانت ضريبة الرؤوس وهى التى سميت (فرضة الرءوس) وتراوحت بين ١٥ ، ٥٠ قرش عن كل شخص بلغ سن الثانية عشرة سنويا كما جبى عوائد المكوس على التجارة وعلى السفن وعلى الذبح .

ومع أن محمد على لم يكن يشترى من الفلاح كل محاصيله واقتصر على شراء القطن والأرز والصمغ والنيلة والأفيون والسكر وترك للفلاح باقى محاصيله يبيعها ويتصرف فيها كما يشاء فأن الفلاح باع هذه المحاصيل لمحمد على بثمن رخيص واشترى بثمن مرتفع وعانى فى سبيل ذلك من الفقر والجوع بينما امتلأت خزائن محمد على بالمال والسلع ولكن عندما جاء سعيد باشا إلى الحكم سنة ١٨٥٤ أصدر سنة ١٨٥٨ قانون الأصلاح الزراعى حيث وزع بمقتضاه الأراضى على الفلاحين يقومون بزراعتها ويتصرفون فيها وفى غلاتها حسبما يشتهون وعمل على تقييد هذه الملكية فى سجلات خاصة لأثبات الملكية فأدى هذا إلى إنعاش الزراعة بشكل واسع كما أمر سعيد بتعديل مواعيد جمع الضرائب وجعلها تتناسب مع زمن نضج المحاصيل وحدد قيمتها وألغى النظام التضامنى فى جمع الضرائب لما فيه من ظلم وغبن وتنازل عن جميع المتأخرات على الفلاحين وألغى بقايا الأحتكار فأصبح الفلاح يزرع ما يشاء ويبيع محصوله كيف شاء على أن يدفع المال الميرى مقدما ، وواصل إكمال مشروعات الرى التى بدأها محمد على فكان هذا العصر هو عصر الفلاح الذهبى .

ومشروعات محمد على الزراعية هذه تتضاءل أمام مشروع خطير اقترحه عليه قنصل السويد المسيو (بكتى) فقد ذكر هذا الرجل لمحمد على أن أعظم مظهر للاستقلال الحقيقى هو الأستقلال الاقتصادى فكما أن مصر غنية بمحصولاتها الزراعية فيجب كذلك أن تنتج مصانعها ما يحتاج إليه جيشها وأسطولها وماتحتاج إليه أسواقه وأملاكه من المصنوعات وحتى لايكون تحت رحمة دول أوربا وكان القطن المصرى وما أدخله عليه محمد على من تحسينات له دافعا على العناية بالغزل والنسج وكذلك كانت زراعة شجر التوت وتربية دودة القز وزراعة النيلة لأنتاج مواد الصباغة

وزراعة الكتان لأنتاج خيوط التيل مشجعا له على التوسع فى صناعة الغزل والنسج .

وإذا كان محمد على لم يجد فى الشعب المصرى عمالا فنيين لأعمال الصناعة الحديثة مدة قرون فأنه استورد الخبره من الخارج واستورد الطاقة من الفحم واستورد الحديد ووجد فى مصر أيدى عامله رخيصة ولكن كان ذلك على حساب الزراعة وأعانة نظام الأحتكار الذى اتبعه على توفير المال اللازم لتنفيذ مشروعاته الصناعية وامتلأت بولاق والخرنفش والمحله الكبرى وقليوب بالمغازل والمعامل والمصانع المختلفة فأصبح لديه (١٤٥ دولابا للغزل و ١٢١٥ نولا وعددا كبيرا من المصانع يعمل فيها عشرون ألف صانع فى الغزل والنسج والخراطة والحداده والسباكة والنجارة وعصر الزيوت وأنتجت مصانعه من الأقمشة البفته والشيت والشاش والجوخ والطرابيش كما أنتجت الأسلحة والبنادق وقطع الآلات الصغيرة وصناعات الصلب وكانت هذه المصنوعات تكفى جيشه ثم يوزع ماتبقى منه فى الأسواق الخارجيه .

ومن الطبيعى نظرا للمنافسة الخارجية لجودة المصنوعات الأوربية ورخصها أن كانت هذه المصانع وهذه المشروعات تكلف محمد على الكثير وكان محمد على يعلم ذلك ولكنه رغب فى النهوض بالصناعة الوطنية والأستقلال بالبلاد اقتصاديا عن أوربا تشبها بانجلترا وفرنسا . ومع توفر المال نجده لم يستطع الأستمرار فى هذه التجربة وفشل فى النهاية لضخامة هذا المشروع ولاعتماده على الوقود المستورد ولأن البلاد كانت تحتاج لكل يد عاملة فى الزراعة ولأن جيشه وأسطوله وهما قوام أماله وأمانيه قضت عليهما فى النهاية المؤامرات الأنجليزية التى وقفت تساند الدولة العثمانية فى الحد من أطماع محمد على ومع ذلك فلا نستطيع أن ننكر فضل هذا المشروع فى نمو ونشأة صناعة السكر والصابون والزجاج والغزل والنسج .

ولم يكن التعدين ليغرب عن بال محمد على وهو الذى أراد أن يستغل كل ما بالبلد لأنه كان يحتاج إلى كل قرش لتنفيذ مشروعاته وتغطية حروبه الواسعة فأخذ يشجع المنقبين من مختلف الجنسيات على إعادة اكتشاف الأماكن الصحراوية فعثر (برتون) و (لنكسون) على محاجر الحجر السماقى الامبراطورى ووجد (كايو) الزمرد واكتشف (بروتشى) مناجم الرصاص القديمة ثم أسدل الستار على هذه المناجم بعد وفاته وضاعت معالمها حتى بدأ البحث عنها من جديد سنة ١٨٩٧ م .

وإذا كان محمد على قد عنى بالأنتاج الزراعى واحتكره كما رأينا ، وإذا كان قد أقام مشروعات صناعية على نفقة الحكومة فقد أصبح لديه إنتاج زراعى وإنتاج صناعى استطاع أن يصدره إلى الخارج فوجد أنه لابد من أن يستفيد بموقع مصر الجغرافى ويفتح طريق التجارة بين الشرق والغرب عبر مصر وكانت التجارة قد كسدت

فى مصر بشكل واضح بعد أن تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب إلى رأس الرجاء فأراد محمد على أن يعيد هذا الطريق إلى سابق أهميته لأنه انتظر من ورائه ربحا عظيما للخزانة ووجد أنه لابد أولا من نشر الأمن واستتباب النظام وتسهيل المواصلات للتجار والمسافرين فضرب بشدة على اللصوص وكبح جماح عربان الصحراء الشرقية ثم أنشأ طريق النقل بين السويس والقاهرة على ظهور الأبل وشيد الاستراحات على طول الطريق لراحة المسافرين ، وساعدت ترعة المحمودية على فتح الطريق بين الأسكندرية والقاهرة وأصبحت المتاجر تنقل عبر مصر الأسكندرية إلى القاهرة بطريق النيل ثم إلى السويس على ظهور الأبل ، وأنشأ محطات للبريد والرسائل البرقية بين الأسكندرية والقاهرة تسهيلا للتجار .

وجاء توماس واجهورن Thomas Waghorn الذى كان فى خدمة شركة الهند الشرقية البريطانية وعرض على محمد على إعادة الطريق البرى بين قنا والقصير ورحب محمد على بالفكرة وافتتح هذا الطريق سنة ١٨٤٥ وبدأت أهميته تزداد بالتدريج حتى أنشأ محمد على مصلحة خاصة للعناية به ، وكان من الضرورى أن يلتفت محمد على إلى ميناء الأسكندرية حتى يستقبل هذا النشاط التجارى وحتى تتناسب أهمية الطريق الجديد وحتى يجلب إليه الأجانب وعهد بهذه المهمة إلى موجيل بك ونمت المدينة وخاصة بعد أن أنشأ دى سريزى بها صناعة السفن ، كما استفاد محمد على من كفاءة بوغوص بك يوسف فى إدارة شئون التجارة الخارجية وأنشاء الوكالات التجارية فى الأسكندرية والسويس ولكى يجذب الأنظار إلى هذه الطرق الجديدة عقد معاهدة مع انجلترا تعهد فيها بنقل البريد مقابل مبلغ خاص تدفعه وكسبت مصر بذلك كثيرا من حصيلة مصروفات النقل والمعيشة وضرائب المكوس ورواتب المصريين الذين خدموا فى هذه الطرق ، ولأن التجارة لا تقوم إلا على شيئين أساسيين وهما أسطول لنقل التجارة وحمايتها وأسواق لتصريف المنتجات فقد عمل محمد على للوصول لهذين الغرضين فبدأ ببناء الأسطول كما رأينا وأصبحت مصر بذلك محطة تجارية لها أسطولها العظيم .

خامسا : العناية بالعلوم والثقافة :

كان محمد على يريد أن يعد لاسطوله وجيشه عددا من الفنيين والاخصائيين فإذا كان قد استعان بالأجانب فى هذا المجال فأنه كان لابد من الأستعانة بأهل البلاد وخلق طبقة مثقفة تقدم للجيش والأسطول مايحتاجه من خدمات من معلمين ومهندسين وضباط وكتبة وأطباء فأنشأ كما رأينا المدارس الفنية العالية فى مختلف النواحى العسكرية وكان هناك عدد من الذين تعلموا فى الأزهر أصبحوا نواة لهذه النخبة التى

تعلمت فى هذه المدارس وأكملت ثقافتها فى أوربا وأظهرت نبوغا وتفوقا واضحا وبرهن محمد على بذلك على بعد نظره فى أن التعليم العالى والأقتباس من الثقافة الحديثة هو خير ماتنهض به الأمم .

ولم يكن خريجو الأزهر يكفون حاجة البلاد وحاجة محمد على فأنشأ خمسين مدرسة ابتدائية على نمط مدارس الليسيه بفرنسا ومدرستين تجهيزيتين إحداهما فى القاهرة والثانية فى الاسكندرية . إلا أن محمد على وجد معارضة شديدة من الأهالى على التعليم فحبب التلاميذ لهذه المدارس وقدم لهم الطعام والكساء والمسكن إلا أنه عاملهم معاملة الجنود حتى أن إدارة المدارس كانت تتبع ديوان الجهادية ولذلك فعندما قل اهتمامه بالجيش بعد سنة ١٨٤١ قل اهتمامه بالمدارس .

أما البعثات وخاصة إلى فرنسا فكانت من أعظم إنجازات محمد على ففى سنة ١٨٢٦ كانت اول بعثاته إلى الخارج وبلغ أعضاؤها ٤٤ طالبا وفى سنة ١٨٣٣ كانت بعثته الثانية التى ضمت ١١٤ طالبا وعاونت هذه البعثات محمد على كثيرا فى مشروعاته العظيمة ونقلت الثقافة الأوربية والخبرة الحديثة إلى مصر وكانت هذه البعثات تتم تحت إشراف المسيو "جومار" أحد علماء حملة بونابرت على مصر وهذه البعثات ضمت رجالا مثل رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة الأدبية فى القرن ١٩ وعلى مبارك أبو التعليم ومحمد شريف باشا الوزير المشهور ورجالا فى الهندسة والرياضيات أمثال محمد بيومى ومحمد مظهر وعلماء فى الطب والجراحة ورجال أكفاء فى الجيش والبحرية نخص بالذكر منهم الأميرال حسن الأسكندارنى ومصطفى مختار وعلماء فى الطبيعيات والكيمياء وعلماء فى الفنون الجميلة .

ولكن هذه المدارس كانت فى حاجة إلى الكتب والبلاد كانت تخلو من المطابع فأسند محمد على إلى أحد الخبراء وهو "مسابكى" الأشراف على تأسيس المطبعة الأميرية ببولاق فى نوفمبر سنة ١٨٢١ وأوفده إلى روما وميلانو للتخصص فى فن الطباعة ولم يبخل عليها محمد على بكل ماتحتاجه فطبعت آلاف الكتب فى مختلف العلوم والفنون والآداب ، وأسند إلى عدد من علماء الأزهر مهمة تصحيح هذه المطبوعات حتى جاءت صحيحة خالية من الأخطاء وأصبحت هذه المطبعة من أكبر دعائم النهضة العلمية فى مصر ولاتزال إلى اليوم تؤدى رسالتها كأكبر دار للطبع والنشر فى مصر .

وقامت البعثات التى أوفدها محمد على بنقل الكثير من العلوم والمعارف إلى اللغة العربية فنشطت حركة الترجمة ثم حركة التأليف وبدأت العلوم والمعارف الحديثة تنتشر بين الطبقات وخاصة حين لقيت التشجيع من محمد على الذى كان يكافىء

مؤلفيها بسخاء وطبع المؤلفات على نفقة الحكومة وأخذ يوزعها على المدارس والدواوين .

وقامت مطبعة بولاق كذلك بأنشاء مطابع أخرى صغيرة تابعة لها هى مطبعة مدرسة المدفعية بطرة وأخرى فى أبى زعبل وثالثة فى مدرسة الفرسان بالجيزة وأصدر محمد على الوقائع المصرية كجريدة رسمية فى ٢٥ جمادى الأولى ١٢٤٤ هـ ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ باللغة العربية وباللغة التركية وتطبع فى مطبعة بولاق وتنشر أخبار الحكومة ودواوينها ومصالحها وبعض الأنباء الخارجية وكانت أول جريدة مصرية فى تاريخها الحديث وبعد قليل صدرت باللغة العربية فقط وهى لاتزال تصدر إلى اليوم كجريدة رسمية للحكومة .

وهنا يخطر ببالنا سؤال .. إذا كان محمد على قد أصبح الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد ومن أجل جيشه ومن أجل أسطوله اهتم بالزراعة واهتم بالتجارة . فماذا كسبت مصر ؟

لاشك أن محمد على حين كون الجيش وحين بنى الأسطول كان يهدف إلى إقامة دولة مستقلة فى مصر له ولأبنائه من بعده . ومن ثم كان اهتمامه العظيم بالرى وبالصناعة وبالتجارة كان من أجل هذا الهدف ولم يكن حين بدأ هذه المشروعات يقدر لنفسه ولحكمه مثل المصير الذى آل إليه وإنما كان يحدوه الأمل فى دولة عربية مستقلة يكون الحكم فيها وراثيا له ولعقبه من بعده ، وكان محمد على تركيا تعصب لكل ما هو تركى ولذلك فقد نال الترك مدة حكمه أكثر مما نال المصريون ولكن سياسة محمد على فى توطيد نظام الحكم والأدارة والعناية بتدعيم الأقتصاد وشئون العلم والثقافة مهما كان هدفه منها قد خلق فى مصر دولة حديثة قوية عاد إليها الأمن واستطاعت أن تخمد ثورة الوهابيين وتفتح السودان وتخمد ثورة المورة وتخيف السلطان العثمانى فعلا شأنها بين الدول واكتسبت اسما ومركزا بعد أن كانت إحدى الولايات العثمانية التى يتخاطف الحكم فيها شرذمة من المماليك لم يفكروا فى مستقبل البلاد بقدر مافكروا فى مصلحتهم الشخصية ناهيك بهذه النخبة من الرجال الذين كانوا مخلصين لبلدهم أدوا إليها الخدمات التى لاتزال ماثلة أمام أعيننا مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ، ومصر التى عزلت عن العالم الحديث ومدنيته وحضارته طوال القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ بدأت تفتح عينها على الفكر الأوربى الحديث فتقتبس منه بقدر مايسرت لها ظروفها ولو أن انجلترا لم تقف لمحمد على وتلك القوة المصرية بالمرصاد ، ولو أن محمد على اتبع شيئا من الديمقراطية فى حكمه وتخلى عن إتباع السخرة فى تنفيذ بعض مشروعاته وتخلى عن تعصبه للترك لكان له منزلة أكبر وأعظم ومع ذلك فهو يعتبر بحق بانى مصر الحديثة .

الفصل الثالث

مصر بعد محمد على

- مقدمة
- حكومة عباس الأول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤ م)
- حكم سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ م)
- حكم اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م)



كانت تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ التى فرضت على محمد على عاملا على تقلص مشروعاته فى مصر ، وخيبة أمل كبيرة للرجل الذى بنى بالجهد والمال بناء شامخا ، فاذا به ينهار أمام عينيه ، مما كان له أثره السىء على صحته البدنية وصحته النفسية ، خاصة وأن المعاهدة قد فتحت بابا للتدخل الأجنبى فى شئون مصر .

وفى هذا الجو النفسى الذى عاشه محمد على بعد التسوية عهد فى عام ١٨٤٢ لأبنه ابراهيم بممارسة شئون الحكم ، التى قام بها خير قيام فى ضوء الامكانيات المتاحة ، وفى ضوء شروط التسوية ، ومن ثم أقفلت مدارس ومصانع لم يعد الجيش الذى انقص عدده فى حاجة اليها ، وفى عام ١٨٤٨ حصل محمد على لأبنه ابراهيم على فرمان بالولاية ولكن العمر لم يطل بابراهيم ، فقد حكم من يوليو حتى نوفمبر حيث مات ، فحصل محمد على لحفيده عباس بن طوسون على فرمان بالولاية فى ديسمبر ١٨٤٨ ، أما محمد على نفسة فقد فارق الحياة فى أغسطس من العام التالى[1] .

والحقيقة أنه اذا كانت تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ قد أثرت على مشروعات وحياة محمد على بهذا الشكل ، فقد كان لها تأثيرا أكثر خطرا على خلفائه من بعده . وعلى ذلك فاننا فى تتبعنا لتطور المسألة المصرية تحت حكم خلفاء محمد على سوف نرصد تفاعلا بين عدة عوامل :

أ ـ رغبة تركيا فى استرداد مصر ، يغريها ضعف مصر بعد التسوية ، ورغبة ولاة مصر فى التخلص من قبضة تركيا يغريهم قوة مصر قبل التسوية .

والرغبات هنا قاصرة لضعف الطرفين معا ، ولوصاية الدول الأوربية التى اشتركت اشتراكا فعليا فى تحديد وضع كل طرف ، ورغبتها فى بقاء الوضع كما هو ، تحقيقا لمآربها الخاصة على حساب كل من مصر وتركيا .

ب ـ تحول الوصايا الأوربية ـ مع الوقت ـ الى وصايا انجليزية فرنسية ـ متواترة ومتوترة ـ تعكسها المنافسة بينهما على الطريقين البرى والبحرى بين أوربا والشرق عبر مصر ، أو بين مد خطوط السكك الحديدية من الاسكندرية الى السويس (المشروع الانجليزى) وشق قناة السويس بين البحرين المتوسط والأحمر (المشروع الفرنسى) .

(١) د . رأفت الشيخ : مصر والسودان فى العلاقات الدولية . ص ٦٥ .

ومع تفوق أحد النفوذين فى مصر على الآخر ، أو تعايشهما مرحليا ، تبقى السيادة الاجنبية متفوقة عموما بفضل الامتيازات الأجنبية .

حـ - شخصية ولاة مصر وولاءاتهم ، وهى أقل هذه العوامل تأثيرا ، وقد يشتد أثرها فى الاتجاه المعاكس لمصلحة مصر . عموما ، وفى ظل ميزان "غير موزون" للقوى ، اقتصر دور ولاة مصر من خلفاء محمد على على تفضيل نفوذ على نفوذ ، أو الاستعانة بنفوذ ضد نفوذ ، فقط قد ينجح بعضهم - وتخسر مصر الكثير - فى مساومة الباب العالى - بمساندة احدى القوتين المشار اليهما ، لابد ، ومعارضة الأخرى بالقطع - لتغيير نظام الوراثة لصالح الورثة من صلب الوالى .

ولعلنا فى تتبعنا لنتائج هذا التفاعل ، نحدد المنحنى الذى أدى بمصر الى الوقوع تحت براثن الاحتلال البريطانى .

* * * *

حكومة عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) :

كانت ولاية مصر طبقا لبنود تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ ، تئول الى أكبر الذكور الأحياء من نسل الوالى ، وكان المنصب فى حالة وفاة ابراهيم يئول الى عباس بن طوسون ثانى أبناء محمد على ، وكان يليه مباشرة من الذكور اثنان هما سعيد بن محمد على الذى كان عمره حينذاك خمسة وعشرين عاما ، وأحمد أكبر أبناء ابراهيم الذى كان أصغر منه بعام تقريبا . وكان هناك أيضا اسماعيل ومصطفى فاضل أصغر أبناء ابراهيم ، اللذان كانا فى أواخر العقد الثانى من عمرهما .

وكان عباس ، بالاضافة الى أنه كان الأكبر ، أكثر الجميع خبرة أيضا ، لتوليه منصب حاكم القاهرة لعدة سنوات .

فلما مات ابراهيم فى نوفمبر ١٨٤٨ ، اتفق السفراء فى الاستانة مع الباب العالى ، بناء على توصية القناصل العموميين ، على أن يخلفه عباس ، فصدر بذلك "خط شريف" أرسل سريعا الى مصر ، يتضمن تعيين عباس نائبا لجده[١] .

كان عباس - الميال بطبعه الى العزلة والانطواء - أقل ميلا لمشروعات محمد على التى كانت خزانة مصر تنوء بعبئها . ولأنه شرقى النزعة والتعليم ، فقد نظر بعين الاستياء الى تغلغل النفوذ الغربى - والفرنسى بخاصة - فى شئون البلاد .

(٣١) جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر (١٧٩٨ - ١٨٨٢) ترجمة د . عبد العظيم رمضان . ص ص ، ٦٣ - ٦٤ .

وعلى عكس جده . كان عهده عهد جمود وركود ، انطفأت فيه البقية الباقية من جذوة النهضة السابقة ، فأغلق المكاتب الابتدائية والمدارس التجهيزية ولم يبق من المدارس الخصوصية سوى المهندسخانة والطب ، وشرد المتعلمين وشتت شمل مدرسيهم ، فأقصى خيارهم الى السودان بحجة انشاء مدرسة نظامية جديدة فى الخرطوم ، بينما انتقى نفرا محدودا من التلاميذ فى مدرسة واحدة أسماها "المفروزة" ، واستعاض بها عن المدارس الحربية . وعلاوة على ذلك فقد أهملت فى عهد عباس حركة التأليف والترجمة . وأوقف العمل فى بناء القناطر الخيرية .

ومن ناحية أخرى ، فقد الأجانب بتولية عباس التشجيع الذى كانوا يلقونه فى عهد محمد على ، وكان مجيء الأجانب قد تزايد كنتيجة للانقلاب الصناعى فى أوربا اتجاه الدول الى البحث عن مواطن للخامات جديدة ، أو أسواق لتصريف منتجاتها .

ولما كان عباس يخشى توطد النفوذ الفرنسى فى مصر ، فقد أخرج عددا من الفرنسين المشتغلين فى المعامل والمصانع وأعادهم الى بلادهم ، وقد قدر القنصل الأمريكى ماولى (Maculey) عدد الموظفين الأوربيين الذين طردهم عباس فى أوائل عهده (مارس١٨٤٩) بحوالى الستمائة[١] (ع٢) .

ومع هذا ، ومع الوقت ، يرحب عباس بازدياد النفوذ الانجليزى فى مصر . وحتى لايفسر هذا الترحيب بأنه احلال لنفوذ محل نفوذ - فهذا ضد مزاج عباس - فاننا نشير الى أنه - أى عباس - قد انتهز فرصة قطع العلاقات السياسية والتجارية بين الباب العالى واليونان فى عام ١٨٥٤ ، وأمر اليونانين المقيمين فى مصر - وعددهم اذ ذاك ٣٠٠٠ نسمة - بمغادرة البلاد فى مدى خمسة عشر يوما[٢] .

ما دوافع هذا التحول؟

لقد بدأت تركيا ما أصبح فيما بعد تقليدا عثمانيا بمحاولة انتقاص سيادة مصر باثارة الصعوبات والمشاكل فى وجه ولاة مصر . حتى يتسنى لها التدخل والغاء الامتيازات التى حصلت عليها مصر ، وجعلها ولاية ذات وضع خاص بين ولايات الدولة العثمانية .

أيضا ، اتبعت ماأ صبح فيما بعد تقليدا عثمانيا ، بدعوة عدد من أعضاء أسرة الوالى للاقامة فى الآستانة ، وتكوين نواة لمعارضة مستمرة ومركز للمؤامرات ضد الوالى الحاكم[٣] .

(١) د . السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث . ص ص ٢٨٩ - ٢٩١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٩١ .

(٣) جون مارلو : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

انه ضغط الاتراك اذن ، وهو ضغط أضر تركيا ومصر معا .

هكذا ، وبعد أن أكتسب عباس عداء فرنسا نتيجة لجموده ، إذا به يتحرك لتتلقاه انجلترا ، وتضمن تنفيذ طريقها البرى الى الهند .
ومع تجريح الفرنسيين لمشروع خط السكك الحديدية بين القاهرة والسويس[١] ، والذى وصفوه بأنه يمثل الأنانية الانجليزية لأنه يخدم أغراض انجلترا ، بينما لايخدم مصر فى شىء ، اذ أنه سيمر فى بقعة صحراوية جرداء ، أقترح القنصل الانجليزى فى مصر أن يمد الخط من الاسكندرية الى القاهرة أولا ، وبذلك يمر فى أخصب مديريات مصر ، ويحقق الفائدة لمصر وانجلترا معا[٢] .

لقد كان مد خطوط السكك الحديدية من الاسكندرية حتى السويس من المشروعات الهامة ، ولكنه لايعبر عن رغبة عباس فى اصلاح أحوال مصر بقدر مايعبر عن بداية تغلغل النفوذ الأجنبى، وهو النفوذ الذى أقلق عباس نفسه خاصة مع اندلاع حرب القرم المشهورة (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) بين تركيا وروسيا ، مما دفعه خوفا من موت "الرجل المريض" الى ارسال نجدات الى الحكومة العثمانية بحيث بلغ مجموع القوات التى اشتركت فى هذه الحرب ٠٠٠ ٣٠ جندى[٣] . وقد أبلت القوات المصرية بلاء حسنا فى هذه الحرب التى لم يشهد عباس نهايتها ، اذ مات فجأة ـ فى ١٣ يوليو ١٨٥٤ ـ بقصره فى بنها على أثر نوبة من الصرع[٤] .

وبموته انتهت فترة الانتكاسة الحضارية التى عاشتها مصر على عهده وقد كان يمكن التخفيف من أثرها ، لو أنه أغلق البلاد أمام التدخل الأجنبى . أما وقد حدث ماحدث من تدخل انجليزى ، فانه مما يزيد من مآسى حكمه .

الغريب أنه كان يقول : "كان جدى يعتبر نفسه حاكما أوتوقراطيا (مطلقا) ، وقد كان كذلك بالنسبة لرعاياه وأولاده ، أما بالنسبة لقناصل أوربا ، فلم يكن أكثر من حذاء فى أقدامهم ، واذا كان لابد من أن أخضع لأحد ، فلأكن اذن خادما للخليفة وليس للمسيحيين الذين أمقتهم"[٥] .

---

(١) كما سيفعل الانجليز نفس الشىء وشيكا مع المشروع الفرنسى (قناة السويس) .

(٢) د . شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر . ص ٣٢ .

(٣) جون مارلو : المرجع السابق . ص ٧٦ .

(٤) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق . ص ٣٠١ .

(٥) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث . ـ المبحث الأول : الخلفية التاريخية . جـ ١ . ص ٣٨ .

تناقض غريب ، وقد لا يكون غريبا ، أن يدرك ويردد ـ وهو الجاهل ـ أن الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم ، ولعله يفسر بنفسه الانتكاسة الحضارية التى صاحبت فترة حكمه لمصر ، والتى يكشفها ـ أيضا ـ انفتاح خلفه على الغرب .

حكم سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣)

منذ حملة بونابرت أعتبرت فرنسا مصر منطقة نفوذ لها وحدها ، مستوحية أمجاد هذه الحملة وماصنعته لتاريخ مصر ، ثم سندها لمحمد على سياسياً وادبيا . هذه الروابط العاطفية التى لها وزنها فى السياسة الفرنسية تجعلنا لانعجب اذا ما افتخر الفرنسيون "بمهمتهم الحضارية فى مصر" ناظرين اليها باعتبارها ابنا لفرنسا بالتبنى ، بل قائلين بأن فرنسا ـ بعد النيل ـ هى التى صنعت مصر . لهذا كانت فرنسا حتى هزائم ١٨٧٠ ـ ١٨٧١[١] ، على استعداد لمقاومة استفحال النفوذ الانجليزى فى مصر بكل ما لديها من وسائل : فقد أصبح أمرا مقررا بالنسبة الى السياسة الفرنسية أن مصر لها طابع خاص باعتبارها منطقة هامة من مناطق النفوذ الفرنسى . وعبر السياسى والمؤرخ الفرنسى دى فريسينيه (De Freycinet) عن هذه الحقيقة بقوله : "منذ عهد نابليون لم تغمض فرنسا عينيها عن مصر يوما واحدا[٢] .

سقنا هذه المقدمة ، لأن النفوذ الفرنسى وجد الطريق ممهدا بعد تولى سعيد ـ بثقافته وميوله الفرنسية ـ حكم مصر ، اذ كان على النقيض من سلفه مشجعا للأجانب متساهلا معهم ـ والفرنسيين بخاصة ـ حتى أن القنصل الفرنسى فى القاهرة كتب فى أكتوبر ١٨٥٤ ، أى بعد مضى حوالى ثلاثة شهور فقط من بداية حكم سعيد ، يقول : لقد تدفق على البلاد من جميع أنحاء أوربا ، بمجرد ذيوع الخبر عن وفاة عباس باشا ، جمهور كبير انقض على مصر كما لو كانت هذه كاليفورنيا جديدة[٣] .

كان تولى سعيد اذن فرصة سانحة لأنصار الطريق البحرى ، الذين فشلوا من قبل مع محمد على وعباس ، خوفا من الأول من التدخل الأجنبى عموما ، وابعادا من الثانى للنفوذ الفرنسى خصوصا .

وبدون وعى من سعيد عما اذا كان سيدخل التاريخ من باب كبار الناجحين أم كبار الفاشلين ، كان لدى ديلسبس وعى تام بأنه سيدخل من الباب الأول لدوره فى التاريخ العام ، أو ـ على الأقل ـ لدوره فى تاريخ فرنسا الخاص .

(١) امام الألمان .

(٢) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية . ص ص ١١ ـ ١٢.

(٣) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

مهما يكن من أمر ، فقد وقع سعيد لصديقه على امتياز بتأسيس شركة مساهمة عالمية لشق قناة السويس ، على ألا تبدأ أعمال حفر القناة قبل موافقة الباب العالى . وفى أكتوبر ١٨٥٥ تشكلت لجنة دولية لفحص مشروع القناة ، وعقدت هذه اللجنة جلساتها الأولى فى باريس ، ثم وفدت لجنة فرعية منها الى مصر لمواصلة دراستها فى منطقة القناة . وفى ٢ يناير ١٨٥٦ قدمت تقريرها الى سعيد ، وكان مما جاء فيه : "ان حفر قناة بين السويس وبورسعيد هو الحل الوحيد لمسألة ايصال البحر الأحمر بالبحر المتوسط[1] ، وأن حفر هذ القناة أمر سهل ، والنجاح مضمون" . ولم تمض ثلاثة أيام على هذا القرار المطمئن حتى منح سعيد الامتياز النهائى مى ٥ يناير ١٨٥٦[2] .

بقيت موافقة الباب العالى ، وقد وقفت دون هذه الموافقة ـ ولمدة عشر سنوات ـ صعوبة تعدت فزع الباب العالى من رؤية نفوذه يتلاشى على مصر ، سواء بوقوعها تحت نفوذ أجنبى مصاحب ـ بلاشك ـ لهذه القناة "الدولية" ، أو بابتعاد حاكم مصر عن الباب العالى نحو "الدولية" .

هذه الصعوبة تمثلت فى معارضة انجلترا للمشروع . وقد كان للانجليز اعتراضان محددان : "الأول ، انه فى حالة وقوع نزاع بين فرنسا وانجلترا ، فان فرنسا باعتبارها أقرب الى القناة سوف تسبقنا فى ارسال سفنها وخبرائها الى البحار الهندية . والثانى ، أنه من الواضح تماما أن المشروع قد بنى على نوايا معادية لوجهة النظر والمصالح الانجليزية ، وأن النية المبيتة هى دون شك وضع الأساس لأقتطاع مصر من تر يا فى المستقبل ووضعها تحت الحماية الفرنسية .. وان وجود قناة عميقة وواسعة تفصل بين مصر والشام ، وتقام عليها التحصينات يعتبر خطا دفاعيا عسكريا يجعل مهمة الجيش التركى صعبة جدا ، خصوصا وأمامها الصحراء .. واذا ماأعطيت الأرض للشركة الفرنسية ، فان مستعمرة فرنسية سوف تقوم على أراض فرنسية لتعترض الطريق بين تركيا ومصر ، وستعتبر أية محاولة تقوم بها القوات التركية لعبور هذا الخط بمثابة غزو لفرنسا .
ان مصر منذ اللحظة التى يكتمل فيها المشروع ستكون قد اقتطعت كلية من تركيا ووضعت تحت الحماية الفرنسية[3] .

(١) كان مطروحا على بساط البحث ايضا ، فكرة انشاء قناة نيلية تخرج من النيل عند رأس الدلتا ، وتسير فى وادى الطميلات الذى تجرى فيه الآن ترعة الاسماعيلية حتى بحيرة التمساح ومنها الى السويس والبحر الأحمر .

(٢) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٣) جون مارلو : المرجع السابق، ص ص ٨٥ ـ ٨٦ .

هذان الاعتراضان يبرران ـ ويفسران أيضا ـ مبادرة انجلترا بتحصين المدخل الجنوبى للبحر الأحمر فى عدن ، واشتراطها ـ لكى توافق على مشروع قناة السويس ـ أن تحتل هى منطقة السويس(١) .

اتخذت انجلترا لمعارضة المشروع الفرنسى خطين متوازيين ، أحدهما تمثل فى الضغط على الباب العالى لكى يمتنع عن اعطاء موافقته على المشروع وذهبت فى ضغطها الى حد تهديد الباب العالى باحتمال استيلائها على مصر ذاتها اذا نفذ المشروع كوسيلة ضرورية للحفاظ على ممتلكاتها البعيدة ، فضلا عن تخليها عن مبدأ المحافظة على كيان الدولة العثمانية .

وتمثل الثانى فى اثارة حملة من التشكيك حول المشروع ، عدته وهما وخيالا ، ووصفته احدى المكاتبات الرسمية البريطانية بأنه عمل من أعمال النصب الشخصى والسياسى(٢) .

ورغم معارضة انجلترا ، ودون انتظار موافقة الباب العالى ، استطاع ديلسبس تأسيس "الشركة العالمية لقناة السويس البحرية" فى عام ١٨٥٨ ، كل مااستطاعت انجلترا القيام به أن أثرت على حركة الاكتتاب(٣) فى أسهم الشركة مما منع دولا مثل تركيا وروسيا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية من شراء الأسهم ، وبما أسفر عن اعادة بعض البيوت المالية الأسهم التى اكتتبت بها ، وهو ماحدا ببريطانيا للترويج بأن المشروع سيسقط من تلقاء نفسه . لكن ديلسبس استمر فى طريقة مستغلا غفلة سعيد وثقته العمياء فيه . ذلك أن سعيد كان قد وافق فى مبدأ الأمر على الاكتتاب فقط بـ ٦٤٠٠٠ سهم من حصة الدولة العثمانية ، فوجد ديليسبس تذليلا للصعوبات المتقدمة أن يحفظ لحساب مصر كافة الأسهم التى امتنعت الدول والبيوت المالية عن شرائها ، وقدرها ١١٣٦٤٢ سهما . وهذا من غير دارية سعيد أو علمه . وهكذا وجدت الحكومة المصرية نفسها ـ فى عام ١٨٥٩ ـ تملك مابلغ ١٧٧٦٤٢ سهما ، ومديونة من أجل ذلك للشركة بمبلغ ٨٨٨٢١٠٠٠ فرنك(٤) .

(١) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .

(٢) جون مارلو : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣) طرح الاكتتاب فى أسهم الشركة ـ البالغ عددها ٤٠٠٠٠٠ سهم ، قيمة كل سهم ٢٠ جنيها أو ٥٠٠ فرنك ـ فى الفترة من ٥ ـ ٣٠ نوفمبر ١٨٥٨ ، فأكتتب الفرنسيون بما يزيد على نصف الأسهم (٢٠٧١٦٠) فى حين حفظ لانجلترا (٨٥٥٠٦) وكان نصيب الدولة العثمانية ومعها مصر (٩٦٥١٧) والمتبقى بعد ذلك وقدره (١٠٨١٧) عرض فى الأسواق الأوروبية

(٤) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

استمر ديلسبس فى طريقه لايلوى عن شىء ، فعقد أول أجتماع لمجلس ادارة الشركة فى باريس فى ديسمبر ١٨٥٨ ، وبدأت أعمال حفر القناة فى ابريل من العام الثانى . واذ كان سعيد قد أصدر أمرا رسميا بوقف اعمال الحفر - حيث لم تصل موافقة عثمانية ، وحيث تسعى انجلترا وحدها لدى الباب العالى بعد انشغال فرنسا فى حربها مع النمسا - فان ديلسبس لم يأبه لهذا الامر ، وأمر رجاله - قبل أن يسرع لمقابلة نابليون الثالث امبراطور فرنسا - بالاستمرار فى العمل ، ولم ينس أن يذكر صديقه بأن الامتياز الذى أعطى للانجليز لانشاء خطوط السكك الحديدية من الاسكندرية الى السويس لم يحظ هو الاخر بتصديق تركيا .

بادر نابليون الثالث ديلسبس بقوله :

- كيف يعقل أن يكون العالم بأسره ضد مشروعك ؟

فأجابه ديلسبس قائلا :

- لأن الجميع ، ياصاحب الجلاله ، يعتقدون بأنك لن تشد أزرنا .

فأبتسم نابليون الثالث ، وأجاب :

- اذن أطمئن ، يمكنك أن تعتمد على مؤازرتى وحمايتى .

أصبح ديلسبس فى مركز قوة استمدها من تأييد امبراطوره المنتصر على النمسا . وما أن تبينت الحكومة البريطانية اتجاه الحكومة الفرنسية حتى بدلت موقفها العدائى من المشروع وذلك لأنها خشيت من تسرب النفوذ الفرنسى وحده الى القناة . وأخذ الضغط الانجليزى يتلاشى شيئا فشيئا[١] .

ودفاعا عن سعيد ، يرى البعض أن خراب مصر الذى أفاض "عبد الرحمن الرافعى" وغيره ، فى تصوير نتيجة لمنح امتياز القناة بشروطه المجحفة لمصر ، انما كان بسبب ضعف مصر السياسى الذى تمكن من اساءة تأويل نصوص هذا العقد .

ويرى - أيضا - أن المشروع .. لم يكن من وجهة نظر سعيد مجرد مشروع اقتصادى أو تجارى أو حضارى ، وانما كان بمثابة اعلان لتغيير خطير فى سياسة مصر الخارجية يقوم على احلال محور مصر - فرنسا ، محل محور مصر - انجلترا الذى اقترن بعهد عباس[٢] .

وهناك فى الحقيقة - تحفظات عديدة على هذا الدفاع ، ثم ماقيمة احلال نفوذ محل نفوذ ، خاصة مع عدم اقتلاع النفوذ الانجليزى تماما - منطقيا وواقعيا - باحلال

---

(١) ميشال سليمان : القناة لمصر . مختارات من السياسة العالمية ، ص ٢٨ .

(٢) د . لويس عوض : المرجع السابق ، ص ص ٣٩ - ٤١ .

النفوذ الفرنسى . بل ان هذا التغيير كان "خطيرا" على مصر ، حيث حاول سعيد اضعاف النفوذ الانجليزى ، فاذا به يفتح أبواب مصر على مصراعيها أمام المغامرين والأفاقيين من مختلف الجنسيات . لقد تورط سعيد ـ لاشك ـ وورط مصر معه . انظر قوله ـ كتابة ـ لأحد رجال القصر السلطانى : " .... انى حائر ومضطرب ، ولاأقدر على الاسراع فى وقف العملية خشية مايهددنى من المشكلات ، ورفع قضية تعويض ، وفتح باب أخر يزعج السلطنة السنية .. وقد بينت لكم آنفا بأننى تعجلت فى هذا الأمر منذ البداية ، فأنا بشر يخطىء .. ومن العسير على أن أخرج نفسى بمفردى من هذا المأزق .." (١).

ورغم هذا المأزق الخطير لسعيد ولمصر ، فلابد وأن نعترف أنه بعد تولى سعيد ، بدأت مظاهر الانتعاش تدب فى الحياة المصرية الراكدة ركود عباس . ولما كان الوالى الجديد غربى النزعة ، فقد امن ـ أو قلد ـ بمبدأ حرية التجارة ، ولم تمض شهور قليلة على وصوله الى الحكم حتى ألغى المكوس التى كانت تعرقل سير التجارة بين مدن القطر وأقاليمه ، وأباح بيع الغلال وتصديرها الى الخارج ، ثم قضى ـ سواء عن اقتناع أو تحت تأثير الأجانب ـ على البقية الباقية من نظام الاحتكار ، وذلك بالغائه جملة والسماح للتجار الأجانب بأن يتعاملوا مباشرة مع المزارعين .

ولما كان كثير من الزراعين ينوءون تحت عبء الضرائب المتأخرة ، وعجزوا عن سدادها منذ مدة طويلة ، فقد تنازلت حكومة سعيد عنها ، كما ألغت مبدأ تضامن القرى فى تحمل الضرائب ، وأعفت القرى العديدة من سدادها ، وكان من أثر هذه الخطوة الاصلاحية أن أخذ الفلاح يشعر بشىء من الطمأنينة(٢) .

ولقد ساعد على اطراد هذا الانتعاش ماشهدته البلاد فى عهد سعيد من تطور خطير فى نظام ملكية الأرض ، فقد أصدر الوالى فى ٥ أغسطس عام ١٨٥٨ "اللائحة السعيدية" التى زادت من حقوق الفلاح على أرضه ، فقضت بأن كل من مضت عليه خمس سنوات وهو يزرع أرضه ويدفع الميرى (الضريبة) لاتنتزع من يده ، واذا مات الفلاح يرث أرضه ورثته الشرعيون من الذكور والاناث ، وعلى ذلك فقد تقيدت "حصص" الفلاحين فى سجلات خاصة ، وأصبح للفلاح الحق فى أن يوقف أرضه

(١) ميشال سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٧ (هامش) .

(٢) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

أو يرهنها ، وأن يكون له مطلق التصرف فى زراعتها وبيع حاصلاتها[1] ، ولو أن الحكومة أحتفظت بملكية الأرض ، ولم يكن للفلاح ـ قانونا ـ سوى حق الانتفاع بها ، الا أن الوضع الجديد للمزارعين كان حافزا لهم على بذل الجهد لزيادة الانتاج[2] .

ساعدت زيادة الانتاج على انتعاش التجارة خاصة بعد أن اهتمت حكومة سعيد بتحسين و سائل النقل داخل البلاد ، فقامت بتطهير ترعة المحمودية ـ التى تربط النيل بميناء الاسكندرية ، واستكملت ـ فى عام ١٨٥٦ ـ الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة ، وهو الخط الذى كان قد بدىء العمل به فى عهد عباس ، ووصل فى عام ١٨٥٤ الى كفر الزيات . ثم انشأت بين عامى ١٨٥٦ ـ ١٨٥٨ الخط الثانى من القاهرة الى السويس . فاستكمل بذلك الخط البرى بين أوربا والهند . وهى الخطوة التى صاحبها اصلاح وتوسيع مينا السويس وانتعاش حركة العمران به ، بالاضافة الى تقدم عمران الاسكندرية ميناء القطر الأول بسبب نشاط التجارة وانشاء شركات الملاحة التجارية .

يحسب لسعيد أيضا ـ فى مجال الاصلاح ـ ما ابتدعه فى فبراير ١٨٥٧ من تنظيم لدواوين الحكومة ، وانشاء النظارات الجديدة ، فصارت هناك أربن نظارات للمالية والحربية والخارجية والداخلية ، وكان للنظارة الأخيرة الحق فى الاشراف المباشر على المأمورين فى الأقسام ، وعلى مشايخ البلد فى القرى فتوطدت سلطة الحكومة المركزية[3] .

يحسب لسعيد أيضا ـ حتى لو كان المنطلق شخصيا ـ ماقام به من تقليص لسيطرة النفوذ التركى والجركسى ، بما أفاد المصريين .

ونرصد هنا مظهرين بارزين :

- ترقية كثير من الضباط المصريين الى المراكز العالية بعد أن كانت منحصرة فى الاتراك والجراكسة .
- فتح باب الوظائف أمام المصريين من أبناء الفلاحين ، حيث أصدر التعليمات الى جميع المديرين لاختبار الاكفاء من شيوخ القرى ليتولوا وظائف نظار الأقسام وحكام الأخطاط (المديرين) ، كانت هذه الوظائف مقصورة على الاتراك والجراكسة بحيث يخص المصريين ثلث الوظائف الأولى ، وربع الوظائف الثانية ليحلوا محل الاتراك تدريجيا فى مناصب الادارة[4] .

---

(١) . د . رؤوف عباس : الملكيات الزراعية المصرية ودورها فى المجتمع المصرى (١٨٣٧ ـ ١٩١٤) . ص ٨١ .

(٢) د . محمود متولى : الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها . ص ٦٤ .

(٣) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .

(٤) أنظر أيضا : د . رؤوف عباس : استقرار الملكية الفردية للأرض الزراعية ، بحث ضمن أبحاث الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عن "الارض والفلاح فى مصر على مر العصور" فى الفترة من ٧ / ٢ / ١٩٧٠ الى ١٥ / ٣ / ١٩٧٠ . ص ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

ويحسب على سعيد عدم اهتمامه بالتعليم وتنوير أذهان أبناء الشعب ، وكان السبب فى ذلك خوفه من وجود طبقة مثقفة كبيرة بين أفراد الشعب ، قد تنبه الأذهان الى ضرورة اصلاح الحكومة ووسائل الحكم السائدة ، ولذلك بدأ سعيد حكمه بالغاء ديوان المدارس كما الغى الكثير من المدارس القائمة ، واستعاض عنها بمدرسة حربية بالقلعة جعل نظارتها لرفاعة رافع الطهطاوى الذى استدعاه من الخرطوم ، ومدرسة المهندسخانه بالقلعة السعيدية التى أنشأها بالقناطر الخيرية ، واضطربت حال الدراسة فى مدرسة الطب بالقصر العينى ، هذا فى الوقت الذى قلل فيه سعيد من ارسال البعثات العلمية الى الخارج . وفى عام ١٨٥٥ أغلق سعيد "المفروزة" وهى المدرسة التى أنشأها سلفه ، فكان عهده فى هذه الناحية عهد جمود ، شابه فى ركوده وجموده عهد عباس ذاته[١] .

هذا الموقف يجعلنا نتحفظ كثيرا حول رأى الزعيم أحمد عرابى بأن سعيد "كان محبا لتقدم المصريين" ، خاصة اذا ماعلمنا أن مدارس الجاليات الأجنبية والارساليات قد حظيت منه بكل رعاية وتشجيع حيث منحها الأموال والهبات والأراضى .

ولعلنا نعبر عن هذه الحيرة فى تقييم عهد سعيد بصورة أخرى ، فنقول اذا كان هناك شبه اتفاق على رغبة سعيد فى اصلاح أحوال مصر ، بما يعيد الى الاذهان صورة والده ، فلم انتهى عهده وهناك شبه اتفاق - أيضا - على ادانته ، وبأنه لعب دورا هاما - دون اغفال للظروف "القاهرة" - فى مسلسل "سقوط مصر" .

ونحن نرى أن نكبة الحكم فى عهد سعيد ، ترجع الى سببين متداخلين أحدهما عام والآخر خاص .

وتمثل السبب العام فى الامتيازات الممنوحة للأجانب فى ولايات الدولة العثمانية ، والتى أتخذت فى مصر وضعا خاصا نتيجة تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ ، حيث جعلت الوصاية الأوربية حكام مصر من أسرة محمد على حريصين على ارضاء الأوربيين ، وبالتالى معرضين لضغطهم .

أما الخاص ، فتمثل فى عدم قدرة سعيد على مقاومة ضغط قناصل الدول بعد أن تبارى رعاياها - بتدبير القناصل غالبا - فى استغلال انفتاح مصر على الغرب بحيث أصبحت ميدانا للسلب والنهب . فلم يكن هناك شىء مستحيل لايصلح كعذر للاغارة على الخزانة المصرية . فاذا سرق أجنبى بسبب اهماله هو ، فان الحكومة هى المخطئة بسبب عجزها عن المحافظة على النظام والأمن ، ثم يرفع قضية ضد الحكومة يطالبها بالتعويض واذا أبحر شخص بقاربه وتسبب باهماله فى جنوحه ، فان الحكومة هى المخطئة لأنها تركت رمالا على الشاطىء فى تلك الجهة ، ثم يرفع قضية على الحكومة

(١) د. السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

يطالبها بالتعويض . وهو الأمر الذى وصل الى حد المهزلة ، وعبرت عنها (نكتة) أطلقها سعيد نفسه ، على نفسه ، فقد قيل انه فى احدى المناسبات قطع حديثة مع أحد رجال الاعمال الاوربيين ، لكى يأمر خادمه ، باغلاق النافذة ، وقال : "اذا أصيب هذا السيد بالبرد ، فسوف يكلفنى ذلك عشرة آلاف جنيه انجليزى"[1] .

فاذا ماأضفنا الى هذا اسراف سعيد الزائد ، وعدم وجود فاصل بين دخله الخاص ودخل الدولة ، واستهتاره الزائد ، بدرجة ذهب معها القائم بأعمال القنصل البريطانى الى أن "أحد الاسباب وراء رحلات سعيد الدائمة حول القطر ، هو التهرب من الحاح الدائنين والحاح القناصل الأجانب لفسرنا اتساع دوائر النكبة التى أوجدها سعيد - أو وجد نفسه فيها - ففى عام ١٨٥٧ بلغ دخل مصر أربعة ملايين جنيه مصرى . وهو دخل يزيد بنسبة الثلث على الدخل الذى مكن محمد على من الاحتفاظ بأسطول وجيش هدد بهما وجود الباب العالى ، ورغم أن الضرائب قد تم تحصيلها لعام قادم ، فان مرتبات الموظفين لم تدفع ، وبلغت الأموال المستحقة للبيوت التجارية ٨٠٠٠٠٠ جنيه[2] .

ومع الوقت زادت ديون مصر بحيث بلغت فى أواخر عهد سعيد مايربو على ١١ مليون جنيه[3] .

لقد أتى "هزل" سعيد على ماقام به من "جد" وخسر المصريون أكثر ماأفادوه من اصلاحاته ، فأتت ضرائبه الباهظة على المزايا التى غنمها الفلاحون فى عهده ، ولم ينعم الضباط المصريون كثيرا بانعاماته حيث أحيل معظمهم الى الاستيداع بعد أن سرح الجيش توفيرا للنفقات[4] . قبلها ، تعرض ضباط وجنود هذا الجيش مع الموظفين المصريين - نتيجة لخلو خزانة الدولة وافلاسها - لقطع مرتباتهم وتأخيرها لمدد طويلة كما تم تخفيضها كوسيلة ضرورية للاقتصاد فى النفقات العامة من جهة ، ولسد مطالب الأجانب الجشعين من جهة أخرى .

ومع الوقت يتسابق الجميع لاقراض سعيد ، ويلتقط سعيد الطعم بل ويسعى اليه الى حد ارسال قوات مصرية من مصر "الحارة" (السودان) لتحارب لحساب الفرنسيين ، فى بلاد المكسيك "الحارة" . ومع تدفق الأموال الفرنسية يتساءل التجار الانجليز (فبراير ١٨٦٠) عما اذا كان الحاكم الذى سيخلف سعيد فى حالة وفاته سوف يقبل مايحملونه من سندات أم لا ؟

وقد أجاب القنصل البريطانى بأن خليفة سعيد ربما يتردد كثيرا[5] .

فهل تردد اسماعيل ؟

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣١٢ .

(٢) جون مارلو : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٤) خفضت اعداد الجيش من ٦٠٠٠ الى ٢٥٠٠ فقط

(٥) جون مارلو : المرجع السابق ، ص ١٣٤

حكم اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) :

تولى اسماعيل حكم مصر ، فى ذهنه ماحدث لجده محمد على ، ومن ثم فقد بدأ بعدد من الاصطلاحات الداخلية التى أعادت الى الأذهان - وبصورة أوضح من سلفه - عهد محمد على .

من ناحية أخرى فقد أراد أن يواكب هذه النهضة الاقتصادية تأكيد لسيادة مصر واستقلالها ، سواء فى مواجهة محاولات الباب العالى المستمرة للانتقاص من هذه السيادة ، أم فى مواجهة الامتيازات الأجنبية المتزايدة .

أيضا كان عليه أن يعالج المشكلات المتخلفة عن الدور السابق مباشرة ، ونقصد بذلك الافتئات المتضمن فى امتياز قناة السويس على سيادة مصر ، أراضيها وناسها .

واذا كان جده (الكبير) قد دالت "امبراطوريته" فى الشرق حيث السيادة التركية والوصاية الأوربية المتحرشة ،. فلم لايكون هو امبراطورية "بكر" فى الجنوب تؤمن منابع النيل ، وتبتعد - مؤقتا - عن خطوط المواصلات العالمية ، وقد تشرف عليها من بعيد . وقد تؤمنها لحلفائه . وفى كل الأحوال عليه أن يتحسس موازين القوى ، ولاضير من رفع شعارات براقة ، كأن يحارب الرقيق ارضاء لانجلترا ، وقد يتغاضى عن بعض تجاره ، وأن يحارب السخرة فى قناة السويس ارضاء لتركيا ، وقد يمارسها فى مزارعه . أليست قوته الاقتصادية قوة لمصر .

فهل كان اسماعيل مؤهلا للقيام بهذه الأدوار المتشابكة .

هناك اتفاق على اختلاف اسماعيل - بعض الشىء على الأقل - عن من سبقوه فى الحكم من أسرة محمد على ، فقد تلقى تعليمه فى باريس وزار فينا ، وأقام حينا فى العاصمة التركية ، ثم عهد اليه سعيد ببعثات سياسية لدى نابليون الثالث والبابا . وأشركه حينا فى شئون الحكم ثم عكف على تعهد مزارعه الواسعة ومن هنا حصل على خبرات فى شئون الشرق والغرب وفرت له المامه عن حاجيات العصر[١] .

فوق هذا فقد حظى بسمعة ذهبية بين القناصل الأجانب عندما كان وليا للعهد ، وقد وصفه القنصل البريطانى بأنه "الشخص الوحيد فى أسرته الذى يبدو أنه يملك شيئا من النظام فى شئونه الخاصة ، وأنه ليس مبذرا . "وقد كان سلوكه عندما ينوب سعيد" يتميز بالتبصر الشديد ، والنشاط والتوفيق . "وقد تأكد هذا الانطباع الطيب بالخطاب الذى ألقاه فى حفل الاستقبال الذى أقيم فى أعقاب اعتلائه العرش لكبار الموظفين والقناصل الأجانب ، فقد قال :" أننى موطن العزم ، حقا ، على تخصيص كل

(١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٨ .

ما أوتيت من عزم وهمة لترقية شئون القطر الملقاه تقاليد حكمه الى ، ولانماء رخائه ، وبما أن أساس كل ادارة جيدة ، انما هو النظام والاقتصاد فى المالية ، فانى سأجعلهما نبراسى فى كل أعمالى ، وأعمل على توطيد أركانهما بكل ماف وسعى . ولكى أقدم مثالا صادقا للجميع ودليلا محسوسا على ارادتى هذه الأكيدة ، فانى قد عزمت منذ الآن ، على ترك النهج الذى سار عليه أسلافى ، وتقرير مرتب ثابت لى ، لن أتجاوزه أبدا ، فأتمكن بذلك من تخصيص عموم ايرادات القطر لانماء شئونه الزراعية وتحسينها ، وانى قررت أيضا الغاء طريقة السخرة المشئومة التى اتبعتها الحكومة دائما فى أشغالها والتى هى السبب الأهم ، بل الأوحد ، الحائل دون بلوغ القطر كل ماهو جدير به من النجاح"[1] .

ولعلنا نتساءل الآن : مادامت أهدافه محددة وطموحاته مشروعه ، ومادام مؤهلا بهذا الشكل ، فما الذى أدى به ـ ومعه مصر ـ الى السقوط ؟
واذا كانت هناك قوى "قاهرة" فما هى هذه القوى ، وهل قادته الى الطريق المنحدر ثم دفعته ، أم دفعته بعد أن ارتقاه بنفسه تشبها "بجد" أكثر تمكنا ؟
لنتابع طموحاته الكبرى ، ولنرى كيف انتهت به ومعه الى السقوط .

ولعلنا نشير ـ بداية ـ الى عامل خارجى أثر على مسيرة اسماعيل ، ـ دون أن نعتبره قاهرا ، ودون أن نزكى صفة المغامرة أو المضاربة فى شخصية اسماعيل ـ فقد تواكب توليه عرش مصر مع ماكان يبدو أنه أعظم فرصة للمضاربة فى ذلك الحين فقد كانت الحرب الأهلية الأمريكية دائرة وقد أغلقت موانى تصدير القطن فى الجنوب ، واذا كان متوسط صادرات مصر من القطن الى انجلترا فى عهد سعيد يبلغ حوالى ٥٠٠٠٠٠ قنطار بمتوسط سعر للرطل يبلغ حوالى سبعة بنسات ، فقد زادت صادرات مصر فى بداية حكم اسماعيل بحيث بلغت ١٧٥٠٠٠٠ قنطارا بمتوسط سعر حوالى ٢٩ بنسا للرطل . ولذلك رأى اسماعيل أن الوقت ليس وقت انتهاج السياسات الاقتصادية الحكيمة وعقد العزم على الاستفادة من الظروف المشجعة ومن وجود المولين والمضاربين الأوربيين الذين تكاثروا فى مصر فى انتهاج سياسة طموحة فى التوسع والانماء فيما يتعلق بأملاكه الخاصة أو أملاك الدولة[2] .

ولقد كان بسبب جشع المولين الاجانب وخراب ذمتهم أن تكلفت مشروعات الاصلاح المختلفة فى عصر اسماعيل أضعاف قيمتها الحقيقية . ويقول المؤرخ الألمانى كاوفمان (Kaufmann) "لقد بلغ من جشع رجال الأعمال والمولين الأوربيين أنهم

(١) جون مارلو : المرجع السابق ، ص ص ١٧٠ ـ ١٧١

(٢) نفس المرجع ، ص ص ١٧١ ـ ١٧٢

لما رأوا حاجة اسماعيل الى عقد القروض لاتمام مشاريعه ، كانوا يستغلون ضعفه المالى بشكل مستبشع ، فكانوا يفرضون عليه شروطا مالية ، لو جرء فرد منهم على استعمالها فى أوربا ، لكان جزاؤه السجن من قضاة المحاكم فيها"[١] .

واذا عرفنا أن الحرب الاهلية الأمريكية انتهت فى ابريل ١٨٦٥ ، بما أثر بشدة على صادرات القطن المصرية ، لأدركنا مدى حاجة اسماعيل الى هؤلاء المولين الجشعين لتمويل مشروعاته الطموحة التى كان قد بدأ الكثير منها بالفعل .

شهد عصر اسماعيل اهتماماً خاصا بالزراعة ، باعتبارها عماد ثروة البلاد ، ولعل قنوات الرى التى أنشاها اسماعيل وبلغت ١١٢ قناة يجب أن تذكر دائما على أنها أعظم مشروعات عهده ، فبهذه القنوات استطاع الناس استصلاح مالا يقل عن ١٣٧٣٠٠٠ فدان من الأراضى الصحراوية[٢] .

وكانت أهم هذه القنوات ترعتان هما : الترعة الابراهيمية لرى الأراضى فى مديريات أسيوط والمنيا وبنى سويف ، والترعة الاسماعيلية لرى أراضى الدقهلية والشرقية ومنطقة القناة ، بفرعيها الممتدين من الاسماعيلية ، احداها الى السويس والاخرى الى بورسعيد . وقد تم الى جانب ماتقدم اصلاح طلمبات العطف لزيادة المياه فى ترعة المحمودية ، كما أصلحت القناطر الخيرية فى عام ١٨٦٧ ، هذا بخلاف القناطر والرياحات التى أنشئت فى هذا العهد والتى تجاوزت تكاليفها ١٢٦٠٠٠٠٠ جنيه .

أيضا أنشأت حكومة اسماعيل "مجالس تفتيش الزراعة" فى الوجهين البحرى والقبلى لمراقبة توزيع المياه ، وتحسين الزراعة ، ثم أنشأت نظارة للزراعة فى عام ١٨٦٥ ضمتها بذلك الى نظارة الأشغال ، وكانت مهمتها الاشراف على عامة المجالس الآنفة ثم العناية بالشئون الزراعية[٣] .

ومن أسف أن يرتبط بهذا التطور ماعاناه الفلاحون فى عصر اسماعيل من أعمال السخرة ، ولعل ماشهدت به أجنبية عاصرت بداية عصر اسماعيل يوضح جزءا من مأساة زادت مع الوقت ، فقد أكدت "ان مصر عبارة عن مزرعة واسعة لسيد يسخر فيها عبيده دون أن يطعمهم"[٤] .

تزداد مأساة الفلاحين ـ والفقراء بخاصة ـ مع زيادة ديون مصر ، خاصة بعد انخفاض دخل مصر بانتهاء رواج القطن ، فهبط الدخل هبوطا متواليا من ٥٣٥٦٠٠٠ جنيه فى عام ١٨٦٤ الى ٥٠٥٨٠٠٠ فى عام ١٨٦٦ ، ثم الى ٤١٢٩٠٠٠ عام ١٨٦٧ .

---

(١) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٤٥ .
(٢) د . لويس عوض: المرجع السابق ، ص ٦٨ .
(٣) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .
(٤) جون مارلو : المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

ويعين اسماعيل وزيرا جديدا للمالية ، وينجح فى مهمة واحدة وهى استخلاص مايمكن استخلاصه من دخل من الريف المصرى . وبالفعل زاد الدخل زيادة متوالية ، بحيث كان فى عام ١٨٦٨ ، ٥٠١١٠٠٠ جنيه ، زاد فى عام ١٨٦٩ الى ٥٢٥٥٠٠٠ ثم الى ٥٣٨٩٠٠٠ فى عام ١٨٧٠ ثم الى ٥٧١١٠٠٠ فى عام ١٨٧١ ، وهكذا .

هذه الزيادة تعكس زيادة تعرض صغار الملاك والفلاحين الفقراء للتعذيب بواسطة "الفلقة" و "الكرباج"[١] .

* * *

ارتبط باستعادة الولايات المتحدة الامريكية لمكانتها السابقة فى تصدير القطن . ايضا ان حول اسماعيل جهوده للعناية بزراعة قصب السكر وصناعته ، وبالاضافة الى مصانعه فى المنيا والروضة ، فقد انشأ مصانع جديدة فى الفيوم وبنى سويف وأسيوط وقنا ، وجلب اليها الآلات الحديثة من أوربا . وكان انشأ هذه المصانع فى الواقع جزءا من مظاهر النشاط الصناعى الذى عنيت به حكومة اسماعيل الى جانب عنايتها بالزراعة ، فقد انشأت مصانع متعددة للنسيج والطوب والدباغة والزجاج والورق وسبك المدافع والطرابيش ، كما عنيت بأعمال الطباعة وخصوصا المطبعة الاميرية .

وكان مما أعان على التقدم الاقتصادى العناية بطرق المواصلات كوسيلة ضرورية لتنشيط تجارة البلاد بعد ازدياد منتجاتها الزراعية ، ولذلك انشئت فى هذا العهد من الكبارى والجسور ٣٤٠ جسرا ، كان منها كوبرى قصر النيل وفضلا عن ذلك ، فقد انشئت شبكة واسعة من الخطوط الحديدية بلغت اطوالها ١٢٠٠ ميل ، ومن الاسلاك البرقية بأطوال زادت عن ٥٠٠٠ ميل فى الوجهين البحرى والقبلى شمال السودان .

ولقد ارتبطت بهذه العناية التى بذلت لتحسين مواصلات البلاد الداخلية الرغبة فى توسيع موانى القطر واصلاحها ، ثم انشاء الخطوط الملاحية وتشجيعها ، ولذلك اتمت حكومة اسماعيل ميناء السويس الذى بدأته حكومة سعيد فى عام ١٨٥٦ ، ثم توفرت لاصلاح ميناء الاسكندرية وتوسيعه ، فشيدت حوضا عائما من الحديد فى عام ١٨٦٨ ، كما شيدت حاجزا ضخما لصيانة السفن والميناء من الامواج والعواصف ، وأقامت عدة ارصفة للشحن والتفريغ وكان من الاعمال التى سهلت سبل الملاحة فى البحرين المتوسط الاحمر ، انشاء الفنارات على سواحل البحر المتوسط والاحمر وخليج عدن ، وبلغ عددها نحو خمسة عشر فنارا .

(١) نفس المرجع ، ص ص ٢٣٥ ـ ٢٤٠ .

وقد نتج عن تحسن طرق المواصلات عموما ، وانشاء الخطوط الملاحية أن زادت تجارة البلاد الخارجية زيادة كبيرة[١] .

ولعل أهم مايرتبط بعصر اسماعيل ، ذلك التناقض بين استدانة لتعديل امتياز قناة السويس ، وبيع نصيب مصر فى القناة لتسديد الديون .

ومع استنكارنا لقبوله ـ بل وسعيه فى البداية ـ تحكيم نابليون الثالث بينه وبين الشركة الفرنسية ، وهو التحكيم الجائر الذى كلف خزانة مصر ٣٣٦٠٠٠٠ جنيه استرلينى ، الا أننا نقر اسماعيل ـ حتى مع استدانة مبلغ التعويض ـ لعدة اعتبارات منها ، أن أحدا مهما بلغ تشاؤمه لم يكن يتوقع مثل هذا الحكم الجائر ، كما أن الامتياز الممنوح للشركة كان افتئاتا واضحا على سيادة مصر ، ولعل نظرة على بعض شروطه تؤكد ذلك[٢] ، ثم ، ماارتبط بهذا الامتياز من سخرة أثمرت قصورا فى العمالة الزراعية ، بالاضافة الى ما أرتبط بها من مظهر لا انسانى . حقيقة أنتقل الفلاحون الفقراء من سخرة "دولية" ـ حيث القناة الدولية ـ الى سخرة "محلية" فى ضياع اسماعيل ، الا أن الأمر على الأقل كان يتصل بمسألة السيادة . وقد تكون السخرة المحلية أقل قسوة ، فتذكر الكتابات المتخصصة "أن السخرة فى حفر قناة السويس هوت سياطها على ظهور الأبرياء ، وساقوهم آلافا مؤلفة الى أودية الموت فى منطقة الحفر محرومين من أبسط حقوق الانسان . وفشت فيهم الأوبئة ، ومات مايزيد على مائة وعشرين ألفا من المصريين فى أسوا الظروف وأقساها ، وطويت عظامهم وجماجمهم على ضفتى القناة ، وتشهد على ذلك بقايا العظام والجماجم التى تستخرجها كراكات التطهير"[٣] .

(١) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ص ٣٥٢ ـ ٣٥٥ .

(٢) كانت أهم شروط الامتياز مايلى :

أولا : تلتزم مصر بتقديم حتى عشرين ألف عامل ، تحشدهم مصر عند اللزوم ، اذا ماطلبت الشركة ذلك بالتجنيد الجبرى .

ثانيا ـ تسمح الحكومة للشركة بمد قناة عزبة تخرج من النيل عند القاهرة ، ويكون للشركة وحدها الحق فى استعمال هذه القناة ، وأن تبيع مياهها للمزارعين بالثمن وبالشروط التى تعينها الشركة .

ثالثا : تملك الشركة بلا مقابل أرضا عرضها كيلومتر على جانبى القناتين فى طولهما ، وتمتلك كذلك جميع الأراضى التى لايملكها الأفراد . ولاتدفع عن هذه الأراضى أموالا للحكومة المصرية الا بعد مضى عشرة أعوام على اعدادها .

رابعا ـ لايحق للحكومة المصرية بناء حصون على ضفتى القناة ، ولا فى الأراضى المعتبرة حرما لها .

خامسا ـ يكون عمال الشركة ، ومن يقطنون البرزخ موضع الاستثمار خاضعين للشركة ، دون الحكومة المصرية .

انظر : ميشال سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٣) د . نبيل عبد الحميد : الزحف الامبريالى على مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أبحاث مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بمناسبة مرور مائة عام الثورة : العرابية ، تحت عنوان "مصر للمصريين ." ص ٢٢ .

دخل اسماعيل فى مفاوضات مضنية مع شركة قناة السويس ، وبلغ مجموع ماخسره بسبب فرمانات سعيد ٤١٩٢٠٠٠ جنيه[١] ، لم تكن تملك الخزانة المصرية منها شيئا ، مما أضطر الحكومة الى اصدار سندات على الخزانة بفوائد باهظة حتى تدفع التعويضات للشركة .

وبالاضافة الى هذه التعويضات . تكلفت مصر نفقات باهظة أخرى تمثلت فى نفقات الرحلات التى قام بها اسماعيل ووزيره نوبار فى أوربا ابان النضال مع الشركة ، وأيضا نفقات الرشاوى التى قدمت للسلطان العثمانى والمسئولين العثمانيين ، أو التى قدمت فى باريس ، كذلك أنفقت مبالغ طائلة للحملة الصحفية التى نظمها نوبار فى باريس ضد شركة قناة السويس والتى أستمرت فترة طويلة ، وأشتركت فيها خمس جرائد ، كانت الجريدة تتقاضى ستين جنيها[٢] عن المقال الواحد[٣] .

بعد نضاله مع شركة قنال السويس ، بدأ اسماعيل نضالا آخر منذ عام ١٨٦٧ للحد من مساوىء الامتيازات الاجنبية فوضع نوبار فى هذا العام مشروعا للمحاكم المختلطة ، وهو يقوم على أساس وجود قضاة أجانب مع قضاة مصريين ، للنظر فى الخصومات المدنية والتجارية والجنائية التى يشترك فيها الأجانب والمصريون ، على أن تكون هذه المحاكم مصرية تصدر أحكامها بأسم (الخديوى) وتعين الحكومة المصرية أعضاءها .

عارضت كل من فرنسا وتركيا المشروع ، ففرنسا كانت تعتبر نفسها الراعى التاريخى للامتيازات الاجنبية ، أما تركيا فانها لم ترحب بالمفاوضات التى قامت رأسا بين مصر والدول .

واذا كانت المعارضة الفرنسية قد انسحبت تلقائيا بعد هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ، فان الرشاوى التى دفعها اسماعيل للصدر الأعظم محمود نديم باشا ، توجت جهوده بالنجاح فى عام ١٨٧٢ .[٤]

(١) كان بيان هذه المبالغ كالتالى :

١٥٢٠٠٠٠ تعويض عن التزام توريد العمال .

١٢٠٠ ٠٠٠ تعويض عن الأراضى المستردة ، وعن حقوق استغلالها .

٣٣٢ ٠٠٠ فرق ثمن تفتيش الوادى حيث اشترته الشركة بمبلغ ٦٨٠٠٠٠ جنيه ، وأعادت الحكومة شراءه بمبلغ ٤٠٠ ٠٠٠ جنيه .

٣٤٠ ٠٠٠ تعويض عن عدم استغلال الترعة العذبة .

٨٠٠ ٠٠٠ تعويض عن سحب الاعفاء من الرسوم الجمركية .

أنظر : د . لويس عوض : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٢) تعادل قيمة هذا المبلغ مايزيد على عشرة آلاف جنيه فى الوقت الحاضر .

(٣) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٦٣ .

(٤) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢١ .

وقد كان لهذا الاصلاح القضائى مزاياه ومساؤه ، وأهم مزاياه :

١) وضع حد للاغتصاب المالى عن طريق التعويضات الباهظة التى أرغمت مصر على دفعها تحت الضغط القنصلى .

٢) نالت مصر مركزا ممتازا بين الدول التى نزلت لمصر بمقتضى هذا الاتفاق عن مباشرة حق القضاء القنصلى الناشىء عن الامتيازات الاجنبية ولو أنه كان تنازلا جزئيا .

أما أبرز مساوىء هذا النظام فكانت : اضعاف مسند (الخديوية) حيث أوجب الاتفاق ليس فقط خضوع (الخديو) لأحكام المحاكم ، بل تنفيذ الأحكام الصادرة ضده كذلك ، وسوف نجد المحاكم المختلطة تؤازر الدائنين الأجانب ضد الحكومة المصرية أبان اشتداد الأزمة المالية[١] .

وهناك من يؤكد أن نوبار ـ واضع المشروع ـ أراد أن يفرض عنصر أوربيا على القضاء المصرى بحيث لايخاطر الوالى بتحديه خوفا من الدول الاوربية ، وأن يصوب ضربة قاصمة لما كان يتمتع به ولاة مصر من حكم مطلق وبخاصة اسماعيل الذى وضع نصب عينيه ولفترة طويلة خلعه ، فقد كتب الى أحد أصدقائه فى يوم توقيع الاتفاقية الخاصة بانشاء المحاكم المختلطة "اليوم وضع أول لغم تحت سلطة اسماعيل ، وأعتقد أنه سينفجر يوما ما"[٢] .

راودت اسماعيل افكار عريضة عن تكوين امبراطورية مصرية فى افريقيا ، تخلف تلك التى فقدها محمد على فى آسيا منذ عشرين عاما مضت .

ويمكن ايجاز خطوات التوسع المصرى فيما يلى :

أولا : دعم حقوق السيادة فى السودان الشرقى وعلى طول ساحل البحر الاحمر الغربى حتى مضيق باب المندب ، وعلى بلاد الصومال حتى مصب نهر جوبا ، وهوما استلزم انشاء "محافظة سواحل البحر الاحمر" .

ثانيا : فتح دار فور فى السودان الغربى .

ثالثا : استصدار فرمان من الباب العالى حصلت (الخديوية) بمقتضاه على ميناء زيلع مقابل دفع جزية سنوية لتركيا .

رابعا : فتح هرر الواقعة غرب زيلع وجنوب شرقى الحبشة .

خامسا : فتح جهات النيل الاعلى واقليم بحر الغزال ، قد استلزم ضم هذه الجهات الى السودان تأسيس مديرية خط الاستواء[٣] .

* * *

---

(١) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .
(٢) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ص ٢٠ ـ ٢٢ .
(٣) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ص ٢٦٨ ـ ٢٧١ .

ولما كان الانجليز يسيطرون على البحر الاحمر وعلى خليج عدن ، كما كانوا يسيطرون ايضا على مداخل البحيرات الاستوائية من جهة المحيط الهندى عن طريق زنزبار التى كانت تحت حمايتهم الفعلية ، ونظرا لان أحد أهتمامات انجلترا الرئيسية فى المنطقة فى ذلك الوقت هو منع تجارة الرقيق ، فقد عزم اسماعيل على شراء رضاء بريطانيا بالتعاون معها فى هذا المنع .

بيد أنه على الرغم من حقيقة ان اسماعيل قد بذل جهودا حقيقية "وباهظة الثمن" بالنسبة لمصر فى سبيل منع تجارة الرقيق ، الا أن رضاء بريطانيا لم يعبر عن نفسه الا فى أضيق الحدود . وترجع تحفظات البريطانيين الى جملة أسباب :

أولهـا : الاعتقاد الذى كان له مايبرره ، بأن موارد مصر لم تكن بالدرجة الكافية لمساندة خطط اسماعيل فى بناء امبراطوريته .

ثانيا : المعارضة التى كانت وراءها الجمعيات التبشيرية ، فى تشجيع نشر الاسلام فى منطقة البحيرات الاستوائية .

ثالثا : رفض رؤية مصر وهى تعتدى على اراضى سلطان زنزبار[١] .

فاذا ماأضفنا الى هذا ان السودان المصرى قد اصبحت مساحته تعادل مساحة كل من فرنسا والمانيا وأسبانيا مجتمعة[٢] أدركنا انه لم يكن من قبيل المصادفات أن يعقب انجليزى انجليزيا آخر فى حكم منطقة خط الاستواء ، مفتاح السودان من الجنوب ، ومصدر حياة مصر والسودان ، بل ان اصبع السياسة الانجليزية كان لها دخل فى هذا التعيين ، فكما أن الحكومة الانجليزية هى التى او عزت الى (الخديو) اسماعيل بوساطة ولى عهد انجلترا ان يسند هذا المنصب الى السير صمويل بيكر ـ المستكشف المعروف ـ فانها هى أيضا التى سعت لديه فى اسناده الى الكولونيل غوردون عام ١٨٧٤[٣] .

ومن ناحية ، ظن اسماعيل ان استخدامه للآجانب فى مشروعاته الافريقية ـ بل مشروعاته عموما ـ واسناد المناصب الخطيرة اليهم ، والاغداق عليهم بغير حساب ، انما يكسبه موافقة دولهم على سياسته ويضمن تأييدها[٤] . ولو أخذنا غوردون كمثال ، لتأكد لنا مقدار خطأ اسماعيل .

فقد كانت سنوات حكمدارية غوردون للسودان (١٨٧٧ ـ ١٨٧٩) من اسوا ماشهد السودان ، حيث هيأ للمطامع الاوربية أن تتدفق الى السودان كما تدفقت الى مصر ، وكانت سياسته فى فصل الموظفين المصريين والسودانيين وتعيين اوربيين بدلا

١) جون مارلو : المرجع السابق ، ص ١٨٨ .
٢) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٨٣ .
٣) نفس المرجع ، ص ٩٢
٤) د . شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ١٢ .

منهم قد اساء الى صورة الحكم المصرى فى السوادن ، كما أن محاولات غوردون من أجل نشر المسيحية ومن أجل اشاعة عادة عدم التمسك بالدين الاسلامى بين الناس قد أثار استياء السودانيين ، وأدى الى اشتعال الثورات* المتعددة ـ وذلك قبل اشتعال الثورة الكبرى ، أو الثورة المهدية ـ فى نواحى السودان وبخاصة فى دارفور وبحر الغزال .

بل بدا غوردون وكأنه يتعمد اهمال شأن مديرية خط الاستواء بغية اقصائها عن الحكم المصرى تمهيدا لادخالها فى منطقة النفوذ الانجليزى[١] .

لقد تسببت أخطاء اسماعيل ـ وضعف وخيانة ابنه توفيق من بعده ـ فى تضييع كل هذه الجهود ، فسقطت مصر فريسة للاحتلال البريطانى ، ثم تكالبت الدول الاستعمارية الاخرى لتأخذ كل منها نصيبا من أملاك هذه الفريسة المغلوبة على أمرها فكان نصيب ايطاليا : المنطقة التى تكونت منها ارتريا وهى تمتد من جنوب سواكن الى أوبوك ويدخل ضمنها ميناء مصوع .

وكان نصيب فرنسا : المنطقة الى تكون منها الصومال الفرنسى ، وتدخل ضمنها أوبوك وتاجورة .

وكان نصيب انجلترا : المنطقة التى تكون منها الصومال الانجليزى ويدخل ضمنها زيلع وبلهار وبربرة .

كما استولت ايطاليا على ماأسمته الصومال الايطالى ، ويدخل ضمنها رأس جردفون ، ومقديشيو ، وبراوة ، وقسمايو .

أما الحبشة ، فقد كان نصيبها هرر وبعض جهات فاز وغلى[٢] .

وهكذا ، ارادت مصر تكوين امبراطورية ، واذا بها ـ بفضل اخطاء اسماعيل ، وضعف وخيانة ابنه من بعده ـ تنتهى جزءا من امبراطورية . وهى نفس النتيجة التى انتهت اليها محاولات اسماعيل لتوسيع دائرة استقلال مصر الداخلى عن تركيا ، ويكون ماجنته مصر على يد اسماعيل استبدال سيادة اسميه باحتلال فعلى . وتكون الفرمانات التى حصل عليها زيادة فى موارد الخزانة التركية والاثراء غير الشرعى للسلاطين العثمانيين والحاشية على حساب الخزانة المصرية الخاوية بدءا بفرمان الوراثة الصلبية ـ أى حصر الوراثة فى أكبر ابناء الوالى ـ فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ ، ثم فرمان انشاء الخديوية المصرية فى ٨ يونيو ١٨٦٧ ، وانتهاء بالفرمان الشامل ـ فى ٩ يونيو ١٨٧٣ ـ والذى انتظمت فيه جميع الفرمانات التى صدرت لولاة مصر منذ الفرمان الذى أقر الوراثة لمحمد على ، والذى اقر لمصر حقوق جديدة ، كحق زيادة

١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص ٩٣

٢) د . شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ١٢ .

الجيش الى العدد الذى يختاره الخديوى ، وحق الخديوى فى وضع القوانين ، وحق عقد اتفاقات مع ممثلى الدولة تتعلق بالجمارك والتجارة والادارة الداخلية ، وعلاقات الاجانب المقيمين فى مصر بالسلطات المحلية .

ولعلنا بعد هذا العرض لمحاولات اسماعيل الاصلاحية ، لانتكلم عن ادارة ناجحة والا ناقضنا انفسنا ، وانما سنرصد فقط اهم التغييرات التى ادخلها اسماعيل اثناء توليه حكم مصر . فنشير الى تشكيل اول نظارة برئاسة نوبار باشا والتى عرفت باسم النظارة الاوربية او المختلطة الاولى حيث كان فيها وزيران احدهما انجليزى والآخر فرنسى ، وقد اصطدمت بالخديو فى عدة قضايا منها اصراره على عدم اجتماع مجلس النظار الابناء على "ارادة سنية" منه ، ومنها اشتراطه أن تعرض عليه جميع اللوائح والاحكام للتصديق عليها .

ويرتبط بعصر اسماعيل بداية تجربة المجالس النيابية فى مصر ، حينما أمر بتشكيل مجلس شورى مصر ، الذى ينتخب الاهالى أعضاءه وهى الخطوة التى أفضت الى تشكيل "مجلس شورى النواب" ولكن هذا المجلس كان محدود العدد (٧٥ عضوا) محدود السلطان اذا كانت قراراته لاتعدو ان تكون رغبات ترفع الى الوالى وله فيها القول الفصل[١] .

بل ويذهب البعض الى ان الدافع الحقيقى لانشاء هذا المجلس ، هو رغبة اسماعيل فى اشراك الأعيان فى أعباء سياسته المالية . بالاضافة الى اظهاره بمظهر الحاكم الدستورى مما يسهل عليه الحصول على القروض من آوربا .[٢] .

وحتى لاتكون الصورة قاتمة تماما ، واتساقا مع منطق الاشياء ، نشير الى أثر ممتد لاصلاحات اسماعيل ، ونقصد بذلك اهتمامه بالتعليم . فقد كان حريصا على رقى البلاد ونهضتها ، ولذلك شهد عصره حياه فكرية جديدة كانت بعثا للنهضة الفكرية التى بدأت فى عصر محمد على ، ثم انتكست فى عصرى عباس وسعيد .

ولما كان التعليم هو أداة النهضة الفكرية ووسيلتها فقد اهتم اسماعيل بانشاء المدارس وتكفلت الحكومة بنفقات تلاميذها ، ثم عكف اسماعيل على تنظيم شئون التعليم ، فأعاد ديوان المدارس ، ورفعت ميزانية المعارف تدريجيا بعد أن اضيفت اليها ايرادات أراضى وادى الطميلات بمديرية الشرقية عقب شرائها من شركة قناة السويس . وعلاوة على ذلك فقد أرسلت البعثات الى أوربا ، وبلغ عدد الطلاب المبعوثين ٢١٨ طالبا اكثرهم تلقى العلم فى فرنسا .

١) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .
٢) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

كما انتشرت المدارس الابتدائية فى انحاء القطر ، كما نظمت المكاتب الاهلية تحت اشراف الحكومة . وفى الوقت نفسه أخذت الحكومة تنشىء المدارس التجهيزية والخصوصية . فأنشأت مدرسة للحقوق والالسن والزراعة والهندسة ومدرسة المحاسبة والمساحة ومدرسة اللسان المصرى القديم (الآثار) ومدرسة دار العلوم لاعداد المعلمين ، هذا عدا المدرسة الحربية فضلا عن ذلك فقد انشئت أول مدرسة لتعليم البنات وهى مدرسة السيوفية . ثم انشئت مدرسة اخرى للبنات هى مدرسة القربية .

وشهد عصر اسماعيل أولى المحاولات لاصلاح الازهر والنهوض بشئون الدراسة فيه ، فألغى عام ١٨٧٢ نظام الاجازات الذى كان معمولا به ووضع بدلا منه نظام الامتحانات .

ونالت مدارس الجاليات الاجنبية ومدارس الارساليات تشجيعا كبيرا ، ماديا ومعنويا من جانب اسماعيل .

وقد ساعد على استقامة شئون التعليم اللائحة المشهورة التى أعدها على مبارك باشا ، والتى صدرت فى مايو ١٨٦٨ توحد نظم التعليم وتقسم مراحله الى ابتدائية وتجهيزية وخصوصية وكذلك انشاء المؤسسات الثقافية كدار الكتب والمتحف المصرى ودار الاثار العربية[١] . هذا بالاضافة الى تقدم الطباعة وانتشار الصحافة بما خلق نهضة فكرية بارزة ومتميزة تخفف من احباطات اصلاحاته المادية .

وفى تقييم موقف اسماعيل ، لابد وأن تختلف الاراء . فيذهب البعض الى أن اسماعيل رغم خبراته فى شئون الشرق والغرب بما وفر له الماما عن حاجيات عصره ، الا انه لم يوهب اتساقا فى تكوينه الداخلى يمكنه من اجتياز هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ البلاد التى اشتد فيها الضغط الاوربى : فطموحه الى الوصول بمصر الى مصاف الدول الغربية مع تبعيته للسلطان ، وتعرفه على اسلوبين من أساليب الحياة ، مما أورثه صراعا داخليا حدا به الى محاولة اثبات ذاته ، وصلت به احيانا الى مركب العظمة الذى يعزى اليه كثير من النشاط الذى اتسم به عصره وهو فى مجموعه مزيج من التظاهر بالرقى قصده ارضاء اوربا ومن الطغيان الذى غطى فى النهاية على كل شىء ، واصاب الشعب المصرى بكثير من النكبات[٢] .

وهذا الرأى فيه غبن باسماعيل ، رغم دهشة تصيب المتابع لمصر فى هذه الفترة من تاريخها وهى تغرق فى ديونها ، واسماعيل سافر فى اسرافه ، يزيد الثقوب ، حتى بلغت ديون مصر ٩١ مليون جنيه ، فى حين توقفت بموت سلفه عند رقم ١١ مليون فقط ،

---

(١) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ص ٣٥٦ - ٣٥٨ .

٢) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٩

ورغم ذهول من قبوله – مثلا – قرضا بمبلغ ٣٢ مليون جنيه استرليني ، ولايتسلم منه نقدا الا ١٧ مليون فقط . ولعل رأيا آخر يربط اسماعيل – مع اسرافه – بظروف عصره يكون اكثر قبولا . ويرى صاحب هذا الرأى[٢] "أن الانجليزى رغبة منه فى محاولة الاحتفاظ بالهند المحببة الى قلبه ، سوف يضع قدما ثابتة على ضفاف النيل ، ويجلس فى مجالس المؤمنين" ، ولما كانت مصر معبر اوربا الى الشرقين الاوسط والاقصى ، فان ظهورها كقوة برية وبحرية فى شرق البحر المتوسط يمثل بالضرورة تهديدا خطيرا حيث تسيطر على منطقة الشرق الاوسط ، وتؤمنها ضد الاستعمار الاجنبى ، وتسد طريق الشرق على اوربا .

ويدلل صاحب هذا الراى ، بتجارب مريرة مرت بانجلترا دوما – وبعض حلفائها احيانا – ولم يغمض لها جفن حتى قضت على مصدر الخطورة فى مصر ، بدءا بتجربة بونابرت فى مصر ومرورا بمحمد على واسماعيل ، واحمد عرابى وثورة ١٨٨٢ ، وسعد زغلول وثورة ١٩١٩ ، وانتهاء بجمال عبد الناصر وثورة ١٩٥٢ .

ثم يضيف البعد الثانى لتحليله ، ويرى أن سقوط مصر مع اسماعيل لم يأت من الخارج فقط ، وانما كان بسبب الاخطاء الفادحة "لآخر الفراعنة"[٢] .

ولعل فى هذه التسمية مايضيف – فى راينا – بعدا لتقييم شخصية وعصر اسماعيل ، فما قام به الرجل – فى مجالى الزراعة والتعليم خصوصا – يمثل بكل المقاييس هرما – قد نختلف فقط على حجمه – يضاف الى أهرامات مصر ، ويجعل اسماعيل – رغم مساوئه – مصريا اكثر منه تركيا .

عموما ، مايهمنا هنا فى المقام الاول ، الا يفوتنا درس التاريخ ، فنحن فى أمس الحاجة اليه حاضرا ومستقبلا ، أو حاضرا من أجل المستقبل ، ولعلنا نجدف جميعا فى اتجاه واحد لنخلص سفينة مصر من جنوحها ونصل بها الى بر الأمان .

---

١) د . لويس عوض ، انظر مرجعه السابق ، ص ص ٧٣ – ٧٤ .

٢) لقب اطلقه أحد الاجانب على الخديو اسماعيل .

الفصـل الرابـع

الثورة العرابية والاحتلال البريطانى لمصر

- **مقدمـــــة**
- **أولا : عوامـل الصـراع :**
  1 ـ الضغط الأوروبى
  2 ـ السلطان العثمانى
  3 ـ الخديوى محمد توفيق
  4 ـ المعارضة الوطنية
  5 ـ ضباط الجيش
- **ثانيا : مظاهرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ م .**
- **ثالثا : التدخل البريطانى الفرنسى .**
- **رابعا : الاحتلال البريطانى .**

مقدمة :

أضاف عصر اسماعيل ـ بمساوئه ومزاياه ـ عاملا جديدا لعملية التفاعل التى أشرنا اليها فى بداية الفصل السابق . وهذا العامل الجديد تمثل فى سخط عام اشتركت فيه مختلف القوى الاجتماعية فى مصر ، لكن بدرجات متباينة ، لتباين دوافعها واتجاهاتها[1] .

ولقد قاست جميع هذه القوى الاجتماعية من مساوىء عصر اسماعيل ، الا انها أفادت من مزايا عصره كذلك ، وهى افادة تمثلت فى تلك النهضة العلمية والفكرية التى أدت ـ خاصة مع انتشار الصحافة ـ الى نقد الاوضاع الفاسدة وتطلع رواد هذه النهضة ـ مع الناس ـ الى آفاق أرحب من الحرية .

أولا ـ عوامل الصراع :

وفى أواخر عصر اسماعيل ، وحتى عزله فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ ، تحددت مواقف اطراف هذا التفاعل على النحو التالى :

١) الضغط الأوربى وقد وصل إلى غايته ، بعد ان اصبحت اغلب موارد مصر مرهونة لسداد القروض الاجنبية ، فمن بين ٠٠٠ ٩٤٣٠ جنيه هى ميزانية عام ١٨٧٧ ، دفعت مصر ٧٤٧٣٩٠٩ جنيه سدادا لديونها[2] .

ولما كان بيع مصر لأسهمها فى قناة السويس[3] ، آخر الموارد التى استنزفهتا حكومة اسماعيل للحصول على المال ، ولم تتمكن من عقد قروض بعد ذلك ، فقد بدأ اسماعيل يشعر بالكارثة من جهة والحاجة الى علاج من جهة أخرى ، فلجأ الى الاستعانة بخبراء فى الشئون المالية ، فطلب من انجلترا وفرنسا خبراء لتقديم آراء يمكن الانتفاع بها فى حل الازمة التى استحكمت . وسرعان ماتنافست انجلترا وفرنسا فى هذا الميدان ، وتسابقت كل منهما الى تقديم الخبراء ، حتى تسبق كل الاخرى فى التدخل فى شئون البلاد بحجة المحافظة على مصالح رعاياها من الدائنين . فوصلت الى مصر فى عام ١٨٧٥ م بعثة انجليزية ـ عرفت باسم رئيسها كيف Cave ـ لدراسة مالية الدولة وتنظيمها ، وبديهى ان يأتى تقرير البعثة فى صالح الانجليز ، فيتضمن مبدا الاشراف الاجنبى على مالية الدولة ، وان يكون هذا الاشراف انجليزيا فى

---

١) هذه القوى هى : الفلاحون ، التجار والحرفيون ، المثقفون ، والاعيان ـ مدنيون وعسكريون .

٢) د . لطيفة محمد سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية ، ص ١٠٥ .

٣) بمبلغ ٤ مليون جنيه ، وذلك فى عام ١٨٧٥ .

جوهره . الا ان اسماعيل لم يوافق على مقترحات البعثة متبعا بذلك ميوله الفرنسية ، فبادرت فرنسا وأرسلت أحد خبرائها الماليين وهو المسيو فيليه Villet كاجراء مضاد لتحركات انجلترا ، فما كان من انجلترا الا ان اعلنت ان سوء الحالة المالية فى مصر ، وما تضمنه تقرير البعثة الانجليزية عن ذلك هى التى جعلت اسماعيل يعارض فى نشر التقرير ، فاضطر اسماعيل الى التصريح بنشره ، الامر الذى أدى بطبيعة الحال الى اثارة زوبعة من الشك فى قدرة الحكومة المصرية على الوفاء بالتزاماتها ، وهبطت أسعار السندات المصرية ، مما زاد الموقف سواء على سوء .

أراد الخديو اسماعيل استرضاء الدائنين بوضع نظام يكفل لهم استيفاء ديونهم فطلب الى وكلاء الدائنين بمصر وضع النظام الذى يرتضونه ، فقدم وكلاء الماليين الفرنسيين مشروعا بانشاء صندوق الدين ، وتوحيد الديون ، اما الماليون الانجليز فانهم لم يشتركوا فى هذه المفاوضات ، انتظارا للخطة التى ترسمها حكومتهم ، استجاب الخديوى اسماعيل لمطلب وكلاء الدائنين الفرنسيين وأصدر مرسوما فى ٢ مايو ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين ، ومهمته ان يكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتولى تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، وخصص له ايراد مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط ، وعوايد الدخولية (الضرائب) فى القاهرة والاسكندرية وايراد جمارك الاسكندرية والسويس وبورسعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وايراد السكك الحديدية ورسوم الدخان وايراد ضريبة الملح ومصايد المطرية ورسوم الكبارى وعوائد الملاحة فى النيل ، وايراد كوبرى قصر النيل ، وايراد اطيان الدائرة السنية ، اى انه خصص لسداد الديون معظم موارد الخزينه المصرية .

وهكذا كان صندوق الدين اول هيئة رسمية أوربية انشئت لغرض التدخل الأجنبى فى شئون مصر والسيطرة عليها ، وتحل محل سلطة الحكومة المصرية فى شئونها المالية والادارية ، وهو اداة اعتداء على استقلال مصر المالى والسياسى لأنه بمثابة حكومة أجنبية داخل الحكومة[1] .

وبعد هذه الخطوة أدركت انجلترا ان المعارضة الفرنسية تمنعها من الانفراد بتنظيم مالية الخديوى اسماعيل ، لهذا ازمعت الاتفاق مع فرنسا حول شئون مصر دون ان ينص على ذلك عقد رسمى[2] . فكان أن فرض على اسماعيل ماعرف "بالرقابة

---

١) د . نبيل عبد الحميد : الزحف الامبريالى على مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، احد ابحاث كتاب "مصر للمصريين" اصدار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، بمناسبة مرور مائة عام على الثورة العرابية . ص ص ٢١ ـ ٣٣ .

٢) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤١ .

الثنائية" على المالية المصرية التى تولاها رومين Romaine الانجليزى للاشراف على الايرادات ، ودى مالاريه De Malaret الفرنسى للاشراف على المصروفات ، ثم اضطر الخديوى فى يناير ١٨٧٨ الى تشكيل "لجنة تحقيق عليا" برئاسة فرديناند ديلسبس وأعضاؤها من الانجليز والفرنسيون والايطاليين والنمساويين اعضاء "صندوق الدين" .

كانت مهمة اللجنة البحث فى كيفية اصلاح المالية المصرية ، ومايرتبط بها من نواحى سياسية واقتصادية ، وتوصلت هذه اللجنة ـ من بين ماتوصلت اليه ـ الى أن "كل مفاسد وفوضى الاوضاع المالية فى مصر ، وكل الظلم الذى يعانى منه دافع الضرائب انما هو ناتج اساسا عن السلطة المطلقة التى يمارسها الخديوى فى البلاد[١] . وعليه فقد اقترحت ـ كشرط اساسى لأى اصلاح مالى ـ الحد من سلطة الخديو ، وذلك بانشاء وزارة مسئولة امام نفسها وليس الخديو ، وان يكون فيها عضوان أوربيان ، فتألفت فى اواخر نفس العام اول وزارة اوربية برئاسة نوبار الارمنى وفيها وزيران احدهما ويلسون Wilson الانجليزى للمالية ، والثانى دى بلنيير De Blignieres الفرنسى للاشغال العمومية[٢] .

ويتولى وزارة نوبار باشا ـ او الوزارة الاولى ـ يضاف الى "العوامل" التى نحن بصدد رصدها عنصر منشط لعملية "التفاعل" .

٢) اما السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) فقد رحب بعزل اسماعيل أملا فى ان يتخذ من هذا العزل ذريعة للتدخل فى شئون مصر ، وعليه فحين اصدر "الارادة" التى اعلنت خلع اسماعيل ، اردفها بأخرى تقضى بالغاء فرمان ١٨٧٣ ، او الفرمان الشامل .

ولما كان من مصلحة كل من انجلترا وفرنسا مقاومة أى محاولة من جانب الباب العالى للاحتفاظ لنفسه بأى حق فى التدخل فى شئون مصر المالية ، ولما كانت الدولتان تواجهان أمر واقعا وهو الغاء فرمان ١٨٧٣ بالفعل ، فقد أصرا على اصدار فرمان جديد يشبه فرمان ١٨٧٣ فى كل نقاطه الاساسية . وبالفعل أرسل الفرمان الجديد ـ تماما كما ارادت انجلترا وفرنسا ـ الى مصر ، وابلغ الى ممثلى الدول فى ٧ أغسطس ١٨٧٩ .

٣) تاثر موقف الخديو توفيق (١٨٧٩ ـ ١٩٠١) بالطريقة التى تم بها عزل والده ، كما رأى ان الفضل فى ابعاد النفوذ أو التدخل العثمانى فى شئون مصر انما يرجع

١) د . يونان لبيب رزق : تاريخ الوزارات المصرية . ص ٥٣

٢) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

الى وقوف انجلترا وفرنسا الى جانبه ، فالتزم جانبهما لدرجة لم يذهب معها الى الآستانة ليقدم بنفسة الولاء للسلطان العثمانى ، فكان بذلك "الوالى" الوحيد من افراد أسرة محمد على الذى تصرف هذا التصرف ، بما ادى ـ الى جانب حادثة الفرمان ـ الى اظهاره بمظهر الخاضع لارادة انجلترا وفرنسا خضوعا تاما[1] ، مما ترك اثرا سيئا ، وهو نفس الاثر الذى تركه بالنسبة للحركة الوطنية المصرية الذى كان على اتصال بها قبل اعتلائه "كرسى الخديوية" ، ثم تنكر لها تحت ضغط الاجانب .

٤) اما العامل الرابع والاخير ، وهو المعارضة الوطنية لحكم سمته الغالبة استنزاف موارد مصر والمصريين لصالح الاجانب ، فقد انطوت تحته مختلف القوى الاجتماعية فى مصر ، بدرجات متباينة ، وبقدرات متبانية كذلك على حرية الحركة .

ولو بدانا بالفلاحين ، لوجدنا لمعاناتهم ـ تحت وطأة الضرائب ـ صدى حتى خارج مصر ، فنرى صحيفة السلام التركية تقول "ان العرب من فلاحى مصر المنكود حظهم ، قد سلب منهم كل شىء حتى لم يبق عليهم سوى جلودهم"[2] . وحتى هذه الجلود لم تسلم من التعذيب اذا امتنع اصحابها عن تنفيذ السخرة اللعينة ببطون خاوية . واذا كانت ردود افعال هؤلاء الفلاحين سلبية فى الغالب ، فانها ستتحول مع الوقت من الهرب السلبى الى الغضب الايجابى .

عانت طبقة التجار والحرفيين هى الاخرى من الضرائب الفادحة ، بل وكبلتها الحكومة امام منافسة الاجانب باعفاء هؤلاء الاجانب من دفع الضرائب ، مما جعل مصر مرتعا للدخلاء ، أما ابناء البلد فقد أعلنوا "التفليسة" .

أما طبقة المثقفين فقد ساهمت فى توجيه السخط المصرى فى اتجاهه الصحيح ، وكان لمجىء جمال الدين الأفغانى الى مصر الأثر الكبير فى تكوين طبقة المثقفين والفكر المصرى الحديث ، حيث بث تعاليمه وافكاره لعدد كبير من المثقفين على اختلاف اصولهم الثقافية ، وكون منهم مدرسة فكرية كان لها اثرها فى مستقبل الثقافة فى مصر . فالافغانى يعد بحق كما قال عنه تلميذه محمد عبده "باعث النهضة الوطنية فى مصر وان هجرته اليها واقامته فيها من ١٨٧١ الى ١٨٧٩ كانت بعثا وطنيا وسياسيا لها ، **وحدا فاصلا بين ماضى مظلم وحاضر مضىء ومستقبل مبشر بالكرامة والحرية**[3]" .

١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١١١ ـ ١١٦ .
٢) د . لطيفة محمد سالم . المرجع السابق ، ص ٢٣ .
٣) د . على شلبى : دور القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية . (أحد ابحاث "مصر للمصريين") ص ١٣٩

ولقد بث الافغانى فى تلاميذه ومريديه "ان الحرية والاستقلال لايوهبان عن طيب خاطر ، بل ان الامم تحصل عليهما قوة واقتدارا" .

فوق هذا ، فقد كان جمال الدين الأفغانى وراء ظهور الصحف الجديدة فى أواخر السبعينات ، وهى الصحف التى مالبثت ان أصبح لها صدى عميق بسبب شدة اهتمام الشعب المصرى بالتدخل الاجنبى . وقد فكر فى انشاء صحيفة هزلية تنتقد حكم الخديوى اسماعيل ، فتجاوب معه كل من يعقوب صنوع ومحمد عبده ، وأصبح صنوع رئيسا لتحريرها ، وقد أتقن السخرية السياسية مستعملا المصطلحات والاسماء الشعبية للاشارة الى الشخصيات السياسية ، وعلى رأسها اسماعيل الذى رمز اليه بلقب "شيخ الحارة" ، على حين رمز الى الفلاح المصرى بلقب "ابى الغلب" ، وبذلك وجه هجوما مركزا الى الطغيان السياسى فى مصر بلغة عامية أحرزت لجريدة "ابو نضارة" شعبية واسعة النطاق[1] .

اما حركة الاعيان المطالبة بالمشاركة فى السلطة فقد تبلورت فى شكل حركة سياسية ذات جناحين احدهما مدنى ، وهؤلاء عبروا عن انفسهم داخل مجلس شورى النواب الذى أنشاه اسماعيل فى عام ١٨٦٦ ، وكان هذا المجلس أقرب الى مجلس الاعيان ، وهى حقيقة تؤكدها اللائحة النظامية التى صدرت فى هذا الشأن ، والتى قصرت حق الانتخاب والترشيح للمجلس على عمد ومشايخ القرى ، كما يؤيدها التركيب الاجتماعى للعضوية فى المجالس الثلاثة التى شهدها عصر اسماعيل ، والتى تبرز مدى النفوذ الذى وصلت اليه طبقة أعيان الريف من عمد ومشايخ القرى ، ففى المجلس الاول الذى انتخب فى عام ١٨٦٦ ، بلغ عدد العمد ٥٨ عضوا من بين مجموع عدد الاعضاء البالغ ٧٥ عضوا ، وفى الهيئة النيابية الثانية التى انتخبت عام ١٨٧٠ بلغ عدد الأعضاء من عمد ومشايخ القرى ٦٣ عضوا ، وفى الهيئة النيابية الثالثة التى انتخبت فى عام ١٨٧٦ بلغ عدد الاعضاء من عمد ومشايخ القرى ٦٠ عضوا .

وكان طبيعيا ان يعكس التركيب الاجتماعى لهذه المجالس مصالح طبقة الاعيان ، ويتضح ذلك من خلال القرارات التى اتخذت فى دورات انعقاد المجلس ، الا ان هذه الطبقة استطاعت تحت ضغط الظروف ان تنقل اهتمامها من مصالحها المباشرة الى المشكلات التى كانت تعانى منها البلاد فى تلك الفترة ، حيث امتدت مناقشات مجلس شورى النواب فى هيئته النيابة الثالثة الى الازمة المالية والتدخل الاجنبى وفداحة الضرائب وحق مناقشة الميزانية .

---

١) د . احمد عبد الرحيم : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ص ص ٣١ ، ٣٢ .

اما الجناح الاخر لحركة الاعيان ، فيمثلة مجموعة الضباط الذين اتيحت لهم الفرصة لدخول الجيش فى عهد سعيد الذى جند ابناء عمد ومشايخ القرى والاعيان فى الجيش وسمح لهم بالترقى من تحت السلاح وصل بعضهم الى رتبة قائمقام وكان احمد عرابى أول مصرى يصل اليها .

٥ ـ ضباط الجيش :

وخلال حكم اسماعيل كانت مجموعة الضباط المصريين تشعر بسخط كبير ، حيث عاد اسماعيل لتعزيز وضع الضباط الاتراك والجراكسة فى الجيش فى مواجهة زحف الضباط المصريين على المراكز القيادية ، وكان من نتيجة هذه السياسة كما يذكر احمد عرابى انه ظل طوال تسعة عشر عاما فى رتبة الاميرالاى ، ولم يحصل على اى ترقية فى عهد اسماعيل ، بينما تجاوزه الذين كانوا تحت امرته من الاتراك والجراكسة .
والى جانب هذا فقد تسببت عدة عوامل منها الحملة المصرية على الحبشة (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦) التى قامت اصلا بناء على رأى الحزب التركى الجركسى فى الجيش ، وابيدت فى اثنائها فرق باكملها بسبب الخلاف بين الضباط الاتراك وبين القادة الامريكيين الذين استخدمهم اسماعيل وما وقع فيها من خيانة أغضبت الضباط المصريين ، وكان فى مقدمة الساخطين احمد عرابى الذى الحق بالحملة كمأمور مهمات .

وعند عودة هؤلاء الضباط عبروا عن سخطهم بتأسيس جمعية سرية عام ١٨٧٦ وهى الجمعية التى انشأها على الروبى ، وانضم اليها كثير من الضباط وطلبة المدرسة الحربية وبعض الادباء ، وقد انضم اليها على فهمى واحمد عرابى[١] الذى اصبح تدريجيا رئيسا لها[٢] . وكان هدف هذه الجمعية عند تأسيسها التخلص من الاتراك والجراكسة فى الجيش ، وفتح باب الترقى امام المصريين ، والقضاء على حكومة اسماعيل ، وعزل الخديو نفسه باعتباره مصدر الفساد ، وكان لسان حال هذه الجمعية السرية جريدة (ابو نضارة) .[٣]

ولقد ضاعف من نشاط هذه الجمعية مالجأت الية وزارة نوبار فى فبراير ١٨٧٩ من احالة ٢٥٠٠ ضابط الى **الاستيداع** بينهم احمد عرابى ـ دون ان تصرف لهم شيئا من رواتبهم المتأخرة ، فكان ان عقد ٦٠٠ ضابط اجتماعا فى ثكنات الجيش بالعباسية يوم ١٨ فبراير ، خرجوا على اثره فى مظاهرة عسكرية اشترك فيها طلاب المدارس العسكرية وبعض الجنود وثلاثة من اعضاء مجلس شورى النواب وذهبوا الى مقر

١) د . على شلبى : المرجع السابق ، ص ص ١٤٥ ـ ١٤٧ .
٢) د . لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .
٣) د . على شلبى : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

وزارة المالية ، وتربصوا لنوبار باشا وويلسون عند خروجهما من وزارة المالية ، ولما ابلغ الخديوى بثورة الضباط توجه الى مكان الشغب ، ونجح فى تهدئة الموقف ، ولولا تدخله فى الوقت المناسب لتفاقمت الازمة .[٤]

لقد ادت هذه المظاهرة العسكرية الى سقوط وزارة نوبار ، كما بثت فى نفوس الضباط ثقة دفعتهم الى قيادة الاحداث وتنشيط التفاعل فى مراحله التالية .

بعد مظاهرة قصر النيل ، اراد عثمان رفقى ناظر الجهادية الانتقام من الضباط المصريين ، فأخرج معظمهم الى الاستيداع قبل بلوغ السن القانونى ، بحيث اصبحوا يتقاضون مابين ربع مرتباتهم ونصفها ، بالاضافة الى انه اقر قانونا عسكريا يقفل باب الترقى فى وجه الضباط المصريين . مما ادى الى تفشى السخط فى الجيش ، فتقدم احمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى (وقد سمى كل منهم اسمه بالمصرى) بعريضة الى رياض ـ رئيس النظار ـ تطالب بعزل عثمان رفقى ، ولكن مجلس النظار ـ وكان يرأسه توفيق ـ بدلا من بحث شكوى الجيش صمم على معاقبة مقدمى العريضة وفى أوائل فبراير ١٨٨١ عقد مجلس عرفى فى ثكنات قصر النيل واستدعى الضباط الثلاثة بحجة الاعداد لزفاف احدى الاميرات . ولكن انباء المؤمراة تسربت اليهم عن طريق زوجة رياض ـ وكانت مصرية ـ فاستعد الجيش للموقف[١] : وحين بدأت محاكمة الضباط الثلاثة زحفت قوات من الجيش على ديوان النظارة وحطمت ابوابها واثاثاتها ومكاتبها ، واخرجت الضباط الثلاثة من السجن بالقوة ، وتوجة الجميع الى سراى عابدين ، وجددوا طلب عزل ناظر الجهادية ، فلم يسع الخديو الا اجابة مطلبهم ، وصدر امره بعزل عثمان رفقى وتعيين محمود سامى البارودى ناظرا للجهادية .[٢]

تأثرت هيبة الخديو بحادثة اول فبراير ، وصمم على الثأر من الثوار ومن ناحيتهم ، لم يطمئن الضباط المصريون الى الخديو خصوصا بعد انتشار الشائعات بأنه ينتظر الفرصة المناسبة للتخلص منهم ، لذلك زادوا من احتياطات الامن الخاصة بهم ، وبوجه خاص بعد الدسائس والمؤامرات التى تعرضوا لها .

ولما كان الشعب المصرى يرزح تحت المظالم التى لاتقل عن المظالم التى كان يعانى منها رجال الجيش ، فقد بارك حركة الضباط حيث وجد فيها تنفيسا عن الامه ، واصبح عرابى وزملاؤه موضع اعجاب الامة وتقديرها ، وتردد اسمه على افواه الناس كأول فلاح مصرى يقف فى وجه الطغيان ، ويعبر عن الام الشعب وامال فلم تمض

١) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية ، ص ١١ .
٢) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .
٣) د . السيد رجب حـــراز : المرجع السابق ، ص ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

عدة اسابيع على حادث قصر النيل حى انهالت عرائض الفلاحين من جميع انحاء البلاد على عرابى يبثون اليه شكواهم ، وما وقع عليهم من مظالم ، ففتح عرابى قلبه للفلاحين .

كما وجدت الطبقة المصرية والمثقفة والتى تنشد الحياة الدستورية انها لو اتحدت مع الحركة الوطنية فى الجيش ، لعجلت بوضع حد فاصل لشقاء البلاد ، ولأنقذت الوطن من التغلغل الاجنبى . ونتيجة لتزايد شعبية عرابى اشار عليه عبد الله النديم الذى انضم الى العسكريين ووقف الى جانبهم ـ بطبع منشور يطلب فيه من الشعب ان ينيب عرابى فى المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه فيما يتعلق بشئون البلاد ، وقد جاء فى هذا المنشور : " ... فاعملوا يامعاشر الوطنيين ان اولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى ، وعزموا على منع كل مامن شأنه الاجحاف بحقوقكم ، وذلك لايتم الابسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة . فالمطلوب منكم ان توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم فى ضمن هذه النشرة . والكتابة المقصود بها ان اكون نائبا عنكم فى كل مايتعلق بأحوال البلاد .[1]

بعد ان جمع النديم توقيعات الاهالى عاد الى القاهرة ، ومعه التوكيلات التى وقع عليها الناس بانابة عرابى فى الدفاع عن حقوقه ، ففرح بها عرابى وشدت من ازره ، وكان لها اثر كبير فى تقوية العزائم ، وعلى ذلك جاءت الوفود من الاقاليم الى القاهرة لمبايعة عرابى على تخليصهم من الظلم الذى ضيق عليهم حياتهم وافسدها ، واستقبل عرابى هذه الوفود فى منزله الذى كان يمتلىء بالناس يوميا ، واخذ ينشر اراءه بينهم ، وبذلك تضامن الشعب مع الجيش من اجل الاصلاح واصبح عرابى نائبا عن الأمة المصرية يتحدث باسمها ، ويدافع عن حقوقها .

ثانيا : **مظاهرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١** :

لما برزت خطورة العرابيين ، وخصوصا بعد ان تكاتف الشعب معهم احس الخديو بالخطر على مركزه ، ورأى ضرورة السيطرة على الجيش ، فأقال البارودى من نظارة الحربية فى ١٣ أغسطس ١٨٨١ وعين مكانه صهره داود يكن وطلب منه الحد من نشاط الوطنيين داخل صفوف الجيش ، فقام ناظر الحربية الجديد بفرض الرقابة على العرابيين وملاحقتهم بالجواسيس ، كما حاول تشتيت شملهم ، فأصدر أوامره بنقل الفرقة الثالثة مشاة التى يقودها عرابى من القاهرة الى الاسكندرية ، والالاى السودانى الذى يقوده عبد العال حلمى الى دمياط . ونظرا للخطورة التى تترتب على

١) د . عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، ص ٦٩ .

تشتيت شمل الجيش ، توقف عرابى وصحبه عن اطاعه الاوامر وارسل عرابى خطابا الى ناظر الحربية وضح له فيه ان صدور الاوامر بنقله يعنى تشتيت القوات العسكرية بغرض الانتقام منه ، وانه وزملاؤه لايستطيعون تسليم انفسهم للموت ، لذلك ستحتشد قواته فى ميدان عابدين الساعة الثالثة والنصف من مساء يوم ٩ سبتمبر لعرض مطالبها ، وانهى عرابى خطابه بأن ناظر الحربية لن يجد اى فرقة عسكرية تتقدم لاطاعة اوامره .

وفى الموعد المحدد تجمعت قوات العرابيين فى ميدان عابدين فى مظاهرة عسكرية قوامها اربعة الاف ضابط وجندى تصحبهم فرسانهم ومدفعيتهم على النحو التالى : ثلاث فرق مشاة فى جوانب الميدان ، والمدفعية وقوة الفرسان ومجموعة من الضابط حول عرابى فى الوسط ، كما ازدحمت ساحة عابدين بجماهير المواطنين وامتلأت نوافذ البيوت المجاورة للسراى واسطحها بالمتفرجين .

سأل الخديوى عرابى عن اسباب حضوره بالجيش ، فأجاب عرابى : "جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الامة وطلبات الجيش ، وكلها طلبات عادلة" فسأل الخديوى "وماهى هذه الطلبات" فأجاب عرابى بأنها" اسقاط وزارة رياض باشا المستبدة ، وتشكيل مجلس النواب على النسق الاوربى ، وزيادة عدد الجيش الى القدر المعين فى الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية "فقال الخديو" كل هذة الطلبات لاحق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن ابائى وأجدادى ، وما انتم الا عبيدا حساناتنا "فرد عرابى لقد خلقنا الله احرارا ولم يخلقنا تراثا أو عقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا لانورث ولا نستعبد بعد اليوم .

حوار سريع متلاحق ، يلخص كل مآسى مصر ، ويبرز القيمة الحقيقة للثورة المصرية العرابية على استغلال مصر واستعباد اهلها .

سقطت وزارة رياض باشا ، واختار العرابيون شريف باشا "لثقة العسكرين فيه" فوافق الخديو ، ودعا شريف الى تأليف وزارة جديدة فقبلها بعد ان اشترط نقل الفرق العسكرية التى اشتركت فى المظاهرة خارج القاهرة ، وقد وافق العرابيون على طلب شريف وغادر عرابى وجنوده ساحة عابدين تصحبهم نشوة النصر . ولما شرع شريف باشا فى اختيار النظار ، طلب منه العسكريون تعين محمود سامى البارودى ناظرا للجهادية ، فلم يرق له مطلبهم ، واخبرهم "بأنه ترك الجهادية لنفسه" ولكنهم اصروا على طلبهم مما اضطر شريف باشا الى اختياره .

استقرت الإمور فى البلاد خصوصا بعد ان وافق العسكريون على طلب شريف باشا بالتنحى عن مسرح السياسة ، والعودة الى معسكراتهم ، فنقل الاى عبد العال حلمى

الى دمياط ، والالاى عرابى الى رأس الوادى بالشرقية ، وذلك استجابة لطلب شريف باشا .

ومع ان شريف حاول تشتيت شمل الجيش حتى يبعده عن التدخل فى السياسة ويزيل الصفة التى اكتسبها عرابى بأنه نائب عن الامة ، فقد خاب تقديره ، لأن خروج عرابى من القاهرة الى رأس الوادى لم يفقده شعبيته ، ولم يبعده عن قيادة الحركة الوطنية ، قد تجمع حوله الفلاحون وتردد عليه الاهالى والعربان ، الذين وجدوا فيه متنفسا لامالهم والمدافع عن حقوقهم . وتسابق اعيان الشرقية وفلاحوها للاحتفاء به ، وكانت مواكب عرابى كالمظاهرات الوطنية ، كما اصبحت الشرقية مجالا خصبا لنشر المبادىء الوطنية فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان .

ولم يكد شريف باشا يسمع بأخبار الاستقبالات الشعبية التى تحيط بعرابى والعرابيين فى الشرقية ، حتى ضاق ذرعا ، وازداد حنقا على عرابى ، فاستدعاه الى القاهرة ليبعده عن الفلاحين ، وحتى يتيسر له ـ كما يذكر "اعطاءه النصائح فى كل وقت" ونتيجة لاصرار البارودى واستحسان باقى النظار لرأية ، اضطر شريف باشا الى تعيين عرابى وكيلا لنظارة الجهادية ، كما عرض عليه رتبة اللواء ، ولكنه رفضها "حتى يبقى الالاى فى عهدته" .[1]

والواقع ان حرص شريف باشا على ابعاد عرابى عن قاعدته الشعبية ، وحرص عرابى عى بقاء الالاى فى عهدته ـ وفية صورة مصغرة للقاعدة الشعبية ـ ينبئنا بأن طريق الثورة لم يعد مفروشا بالورود ، وان هناك العديد من القوى ، كان على عرابى وصحبه ان يواجهوها :

أ ـ الخديوى توفيق يحاول استرداد سلطاته المطلقة ، وسوف نجده يصل فى هذه المحاولات لحد الخيانة .

ب ـ الارستقراطية التركية ـ وعميدها شريف باشا ـ وهى تحاول احتواء الثورة والثوار .[2]

جـ ـ طبقة الاعيان ـ بعضهم بالطبع ـ هاله تحول مظاهرة عابدين الى حركة شعبية تهدد مصالحهم ، وربما وجودهم .

---

١) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية . ص ص ٢٤ ـ ٢٦ .

٢) روى عن شريف باشا انه قال : "ان المصرين اطفال ويجب ان يعاملوا على هذا الاعتبار ، لقد عرضت عليهم دستورا يناسبهم ، فاذا لم يقتنعوا به وجب عليهم ان يعيشوا بدون دستور ، انني انا الذى خلقت الحزب الوطنى ، ولن يستطيع هؤلاء الفلاحون ان يستمروا فى السير فى طريقهم بدونى لأنهم بحاجة الى من يرشدهم" انظر : د . احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية . ١٦٤ .

د ـ السلطان العثمانى ، ومحاولاته الفاشلة دوما للصيد فى الماء العكر فلا يسترد سلطانا ـ على مصر ـ بل يستنزف رصيده فيها .

هـ ـ معارضة انجلترا وفرنسا لكل خطوة تخطوها الثورة ، لما فى كل خطوة من تهديد للامتيازات الاجنبية ، والتدخل الاجنبى فى شئون البلاد .

ثالثا : التدخل الانجليزى الفرنسى :

كان طبيعيا ان تدبر كل من انجلترا وفرنسا لاجهاض ثورة عرابى فأفتعلت الدولتان سلسلة من الازمات لعرقلة الامور وبدأ تدخلهما يظهر بصورة سافرة ، فلما اجتمع مجلس النواب فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ ، بدأ فى ترتيب لائحته الداخلية ومناقشتها وفى اثناء مناقشة اللائحة وقع خلاف بين النواب والنظار حول سلطة المجلس فى اقرار الميزانية ، واثناء بحث هذا الخلاف طلب المراقبان الماليان الحد من سلطة البرلمان فى تقرير الميزانية بحجة ان ذلك من اختصاصهما ، وان ميول المجلس عدائية نحو الجانب الاوربى فى الحكومة ولبث روح الشقاق بين نواب الأمة والخديو ارسلت كل من انجلترا وفرنسا فى ٧ يناير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة الى الخديو تتضمن تأييد الدولتين له بكل الوسائل للتغلب على الصعوبات التى تواجهه ، "حيث انهما اتفقا على بذل الجهود المشتركة لمقاومة كل اسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى تهدد النظام القائم فى مصر" ، وقد قوبلت هذه المذكرة بثورة عارمة ادت الى تكاتف الجيش والوطنيين ومجلس النواب ضد انجلترا وفرنسا ومع ان الحكومة رفضت المذكرة فان الخديو قبلها بالشكر والعرفان ، مما كان له ابعد الاثر فى تطور الحوادث فقد نجحت انجلترا وفرنسا بذلك فى زيادة الهوة و **الانفصام** بين العرابيين والخديو[1] .

وامام اصرار مجلس النواب على اصدار مرسوم يقر اللائحة الاساسية ، بما فيها حق المجلس الطبيعى فى اقرار الميزانية ، ولما كان شريف باشا على غير رأى المجلس فقد قدم استقالته ليحل محله محمود سامى البارودى ومعه عرابى وزيرا للحربية .

فى هذه الاثناء اراد السلطان العثمانى الصيد فى الماء العكر ، ففى البداية نصح الخديو بعدم قبول استقالة شريف ، أو اعادته الى الحكم فيما لو كان قد قبلها ، كما نصحه بحل مجلس شورى النواب ، ولكن حين اجاب توفيق بأنه عاجزا عن التمشى مع نصيحة السلطان ، اصر الباب العالى على وجوب قيام وفاق قوى بين المجلس والوزارة ، وان الواجب ترك مناقشة الميزانية للمجلس . وكان الباب العالى لايزال على صلة بعرابى ، وحين تم حسم الموقف ارسل اليه الصدر الاعظم رسالة يبلغة فيها بأنه يوافق تماما على مسلكة .

١) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية . ص ٢٧

على ان تأليف الوزارة الجديدة سجل الانهيار النهائى للسلطة الخديوية وانتصار الثورة . فقد كان توفيق لايميل الى قبول استقالة شريف ، ولم يستشر فى اختيار الوزراء ، فسقطت هيبته تماما ، كما ضعف مركز المراقبة التى اعتبرها الوطنيون احد الضمانات القوية لمصالح الدائنين وحين نوقشت اللائحة الاساسية فى مجلس الوزراء الجديد لم يدع المراقبان ، ولم يطلب احد منهما ان يدليا "بنصائحهما" مما ترتب عليه جهلهما بمشروعات الحكومة الجديدة . وفى مذكرة قدماها الى القنصلين فى ٦ فبراير احتجا بشدة على مشروعات مجلس شورى النواب فى لغة تحمل طابع التهديد ، مما ادى الى امتعاض الرأى العام المصرى ، فقد ابديا اعتراضهما على برنامج الوزارة المقدم الى الخديو ، وطالبا بأن يكون لهما حق ابداء ارائهما فيما يتعلق بكل مسائل الادارة الداخلية التى تمس مصالح البلاد الاقتصادية .

على ان مجلس الوزراء الجديد اقر اللائحة الاساسية فى جلستة المنعقدة فى ٧ فبراير . وكان الوزراء على استعداد للوصول الى حل وسط ، فلم يمانعوا فى اشتراك المراقبين فى جلسات مجلس الوزراء ومجلس شورى النواب ـ بصفة استشارية ـ حين النظر فى الميزانية . لكن المراقب الانجليزى كان قد اكد انه سيبذل كل جهدة لتدمير الوطنيين ، حتى ولو ادى به الامر الى تحبيذ التدخل المسلح .[١]

فى هذا الاطار ، بالاضافة الى موقف الخديو والارستقراطية التركية وفى اطار قيام احمد عرابى بتمصير الجيش المصرى ، يمكن فهم مؤامرة الضباط الاتراك والجراكسة لاغتيال زعماء الثورة . ورفض الخديو التصديق على الاحكام الصادرة ضد المتآمرين بايعاز من انجلترا وفرنسا .

لقد ترتب على هذه المؤامرة تصدع الجبهة الداخلية بعدما التقت مصلحة كبار ملاك الاراضى مع مصلحة الخديو والانجليز ، يتضح من هذا قرار مجلس شورى النواب مؤازرة الوزارة ـ ضد الخديو ـ ، وقراره بأغلبية ٤٥ صوتا ضد ٣٠ صوتا ، بأنه اذا استمر الخديو فى الاستماع الى النصائح الاجنبية ، فلا بد من خلعه ومحاكمته .[٢]

اشتدت الازمة بين العرابيين والخديو ، ومع تدخل النواب ورجال الدين اعلن زوال الخلاف ظاهريا فى يوم ١٥/٥/١٨٨٢ ، لكن العارفين ببواطن الامور كانو يعلمون ان الخصام كامن كمون النار تحت الرماد .

فى هذا الوقت كانت قطع من اساطيل كل من انجلترا وفرنسا فى طريقها الى الاسكندرية ، وما ان وصلت حتى تقدمتا بمذكرة مشتركة فى ٢٥/٥/١٨٨٢ تطلبان

١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية . ص ص ١٨٥ ـ ١٨٦

٢) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية ، ص ٣٢ .

ابعاد عرابى عن مصر ، وتحديد اقامة كل من على فهمى وعبد العال حلمى واستقالة وزارة البارودى .[١]

رفضت وزارة البارودى هذه المذكرة كما رفضتها الأمة كلها ، ومع ذلك فقد وافق عليها الخديو ، بل وطلب من النظار قبولها منعا لحدوث ارتباكات سياسية وسفك دماء ، فما كان من الوزارة الا ان قدمت استقالتها احتجاجا على التدخل الاجنبى وقبول الخديو له ، فقبلها الخديو بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا ، وتولى امور الجيش بنفسه ، ورغم استنكار كافة طبقات الشعب لموقف الخديو ومطالبتهم باستمرار عرابى باشا ناظرا للجهادية والبحرية حتى يستتب حبل الامن ، فأن الخديو أصر على رأية بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا .

وفى هذا الجو المضطرب اراد قناصل الدول الاجنبية ضمان حماية رعاياهم فاجتمعوا بعرابى والزموه مسئولية حماية الاوربيين ، فأجابهم عرابى بأنه لم يعد له صفة رسمية تمكنه من تحقيق مطالبهم ، ولكنه بصفته الشخصية كمواطن يؤكد لهم حماية الاجانب . واجتمع عرابى برجال الجيش وهدد بمحاصرة سراى الاسماعيلية مقر وزارة الخارجية الان ـ اذا لم يصدر له امر ببقائه فى نظارة الحربية ، كما طلب من رجال الجيش الايتصرفوا الا بناء على تعليماته . ويذكر الخديو توفيق فى رسالة له الى الباب العالى ان عرابى وان كان قد استقال لفظا ، فأنه لم يتخل عن القيادة ، وهو يتابع اصدار المنشورات الى العساكر حيث يضمنها تعليماته ، كما ان الضباط والعساكر يأبون سواه للجهادية .

وامام ضغط كافة طبقات الأمة ، وامام تهديد بأنه "فى حالة عدم قبول ملتمسهم سيحصل قتل عام" ، اضطر الخديو الى اعادة عرابى ناظرا للجهادية والبحرية ، والاكتفاء به ليدير شئون البلاد مع وكلاء الوزارات المختلفة ، بمعنى انه رغم عودة عرابى فأن مصر ظلت بدون مجلس وزراء واستمر هذا الوضع لمدة ثلاثة اسابيع طلب خلالها الخديو من شريف باشا تشكيل الوزارة ، ولكن شريف اشترط تعيين عمر لطفى محافظ الاسكندرية ناظرا للجهادية ، لكن رجال العسكرية رفضوا ذلك وأصروا على بقاء عرابى .[٢]

رابعا : الاحتلال البريطانى :

وامام هذا الطريق المسدود ، فتح الخديو والانجليز طريقا اخر بتدبير مذبحة الاسكندرية . ففى رسالة ـ بتاريخ ٧ مايو ـ من مالت (Malet) القنصل الانجليزى فى

---

١) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال انجليزى (الطبعه الثانية ١٩٤٩) ص ٢٧١ .

٢) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية ، ص ص ٣٥ ـ ٣٦ .

مصر الى جرانفيل (Granville) وزير الخارجية قال له "اننى ارى ضرورة حدوث ارتباكات حادة قبل الوصول الى حل شاف للمسألة المصرية ، وان من الحكمة محاولة التعجيل بهذه الارتباكات ، بدل محاولة تأجيلها"[١] .

وفى اطار هذه الخطة حاول الخديو ان يحرج مركز العرابيين ، خصوصا بعد ان تعهد عرابى بمسئولية حفظ الامن والنظام ، وذلك باحداث شغب وفوضى مما يزعزع الثقة فى النفوس وخصوصا الجاليات الاوربية بما يؤدى الى التدخل الاجنبى بحجة ان الحكومة غير قادرة على حماية ارواح الاجانب ، فسعى بواسطة بعض اتباعه الى احداث شغب فى القاهرة ، فلما فشل فى مسعاه ، ارسل الى عمر لطفى بمايلى : "قد ضمن عرابى امر الامن العام ، ونشر ذلك فى الصحف وجعل نفسة مسئولا لدى القناصل ، واذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا ، اما الان واساطيل الدول فى مياة الاسكندرية ، وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم امر محتمل ، فأختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا .[٢]

وهكذا حدثت مذبحة الاسكندرية ، وقد راح ضحية هذه المؤامرة مالايقل عن خمسين قتيلا معظمهم من الاجانب ، بالاضافة الى مئات الجرحى من الجانبين[٣] اما ضحيتها الكبرى فقد كانت مصر . ذلك ان عرابى رغم تعهده رسميا ـ بعد الضربة التى اصابته نتيجة لفشلة فى حفظ الامن ـ باطاعة كل أوامر الخديو[٤] الا انه أدرك مدى الخطر الذى تتعرض له مصر ، خاصة وان احتلال فرنسا لتونس (١٨٨١) كان ماثلا فى الاذهان ، ومن ثم بدأ عرابى وصحبه الاستعداد للدفاع عن البلاد بتجديد بعض الطوابى ، وعمل الاصلاحات اللازمة بها ، وهى الحجة التى اتخذتها انجلترا ذريعة لضرب الاسكندرية .

ففى صباح ١٠ يوليو ١٨٨٢ ارسل الاميرال سيمور ، قائد الاسطول الانجليزى كتابا الى طلبه باشا عصمت (قائد الجيش بالاسكندرية) يطلب فيه انزال جميع مدافع طوابى استحكامات الاسكندرية من طابية المكس الى برج السلسلة ، فانعقد مجلس برئاسة الخديو وحضور رئيس الوزراء والوزارة لبحث انذار سيمور ، واستقر الرأى على انزال ثلاثة مدافع من الطوابى التى قيل ان الاشغال كانت بها ، وللاميرال الاختيار فى انزالهم من طابية واحدة ، أو من كل طابية مدفع واحد ، فأن ابى وصمم على ضرب النار ، فلا تطلق المدافع المصرية حتى يطلق خمسة مدافع بعدها يقابل بالضرب المماثل .

١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢٦ .
٢) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية ، ص ٣٨ .
٣) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
٤) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٣٢ .

ارسل وفد الى الاميرال سيمور ، ولكنه رفض ماعرض عليه ، وصمم على انزال جميع المدافع كطلبة ، كما طلب من الحكومة امرا صريحا باعطائه طابية المكس وطابية العجمى وطابية باب العرب وماوراء طابية المكس من الاراضى لاتخاذها معسكرا للجنود الانجليز ، وانه اذا لم يجب الى مطالبه باشر القتال صباح الغد .

فقرر المجلس رفض طلبات الاميرال مع الاستعداد للحرب بشرط الايبتدىء بها الجيش المصرى الابعد اطلاق ثلاثة قذائف ، وان تعلن الاحكام العرفيه فى حالة اعلان الحرب .

لقد عزمت انجلترا على احتلال مصر بدون قيد او شرط ، وراحت تلتمس الذرائع لتحقيق ذلك ، فضرب الاسكندرية ، شبيه بقصة الذئب والحمل .[1]

بدأ ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليو ، واستمر هذا الضرب لمدة عشر ساعات الى ان دمرت معظم الطوابى كليا أو جزئيا ، وخلال هذه الساعات "الطويلة" ابلى المصريون احسن البلاء . ففى تقرير للقومندان (هنت) قائد احدى المدرعات الانجليزية "سلطان" "قال" .. لما وجدت ان الحصون اقوى مما كان يظن ، وان جنود المدفعية لايستهان بهم وانهم يحكمون الضرب ، رأيت ان من الصواب ان القى المراسى لكى احصل على المسافة اللازمة بدقة" .

وفى تقرير ميجور "تلك" من رجال المخابرات الانجليز " .. فى اعتقادى أنه لايستطيع الا القليل من الناس ان يؤدوا واجبهم بمثل ماأداه أولئك الجنود ، وليس فى مقدور الانسان ان يخفى دهشته واعجابه من بسالة الجنود الذين كانوا يقاومون تحت وابل القنابل .. بل ويحاولون ان يرفعوا احد المدافع بعد ان سقط من مكانه " .

وفى تقرير وكيل القنصل اليونانى بالاسكندرية ، يقول " .. اننى لا أملك سوى الاعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات فى مواقعهم .. كانوا شجعانا يصمدون لغارات جبارة" .[2]

لم يكن دفاعا عن البلاد ، بقدر ماكانت ثورة ، ولم يكونوا مجرد جنود بقدر ماكانوا ثوارا . وبعد هذة البطولة يأمر قائد الثوار بأخلاء الاسكندرية ليبدأ حرب الصمود فى كفر الدوار .

احكم عرابى تحصين مواقعه فى كفر الدوار ، مما اعاق تقدم القوات الانجليزية فى هذه المنطقة ، فقد استطاع طلبه عصمت قومندان فرقه كفر الدوار وجنوده صد هجوم الانجليز.

١) د . سمير محمد طه : المعارك العسكرية للعرابيين (مصر للمصريين) ص ص ٢١٨ ـ ٢١٩

٢) رفعت السعيد (دكتور) : الاساس الاجتماعى للثورة العرابية . ص ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

المتوالى على هذه المنطقة حتى اضطرت القوات الانجليزية الى الانسحاب اكثر من مرة امام بسالة الجنود المصريين .(١)

على اننا يجب ان نقرر ان دراسات المؤرخين العسكريين قد اثبت ان انجلترا قررت منذ البداية ان يكون غزو مصر من الشرق ، من جهة قناة السويس ، فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ ، أى قبل ضرب الاسكندرية ، وان خطة الحملة التى وضعها الجنرال وولزلى وعرضها على وزارة االحرب البريطانية فى ٣٠ يونيو ، كانت تقوم على الزحف على القاهرة من الاسماعيلية ، وقد بنى وولزلى خطته على اعتبارين هما :-

١ - ان المسافة بين الاسماعيلية الى القاهرة ١٤٩كيلو مترا ، بينما المسافة من الاسكندرية الى القاهرة ٢٠٨ كيلو مترات .
٢ - ان عبور الدلتا فى فترة الفيضان يضع العراقيل الطبيعية امام الجيش الانجليزى لان النيل يغمر الدلتا ، وقد يضع العراقيل الصناعية امام الزحف اذا قطع المصريون الجسور واغرقوا الاراضى ، بالاضافة الى ان كثرة الترع والقنوات فى الدلتا تشكل حواجز طبيعية يمكن ان يتحصن وراءها العرابيون ، اما طريق الاسماعيلية الى القاهرة فهو خال من هذه الاخطار .

وهناك ايضا سببان اخران لايذكرهما العسكريون ، لأن لهما طابعا سياسيا وهما ان احتلال بريطانيا قناة السويس يقطع الاتصال البرى بين مصر وتركيا اذا قررت تركيا ان تنفذ حملة برية عن طريق الشام تمسكا باملاك السلطان ، وان احتلال بريطانيا لقناة السويس سيجعل من نفوذ فرنسا الخاص فى منطقة القناة خرافة من خرافات الماضى ويؤمن لانجلترا نهائيا طريق مواصلاتها الى الهند .(٢)

ولعلنا نتساءل لماذا لم يقم عرابى باغلاق القناة ، خاصة وان رئيس اركان حربه قد وضع خطته على الجبهة الشرقية على اساس سد القناة ، وقطع المياه العذبة الموصلة الى بورسعيد من شمال القنطرة ، وكذلك سد ترعة الاسماعيلية وحجز مياهها عن السويس والاسماعيلية ؟(٣)

الحقيقة انه عندما أيقن القادة المصريون امكانية الغزو عن طريق قناة السويس اجريت الاتصالات بينهم وبين ديلسبس ، وجاء الرد من باريس ليفيد "بذلك التعهد العظيم المتفق عليه العالم بتمامه ، وهو حياد القنال وحفظها ومراعاتها واحترامها ، وهذا الاتفاق يمنع كل امر حربى يحصل فيه ، وهذا من الواجبات التى هى اساس الالتزام للقومبانية (الشركة)" . ومن هنا اكد ديلسبس حياد القناة ، ولم يطمئن عرابى لذلك فأرسل الى ديلسبس يبلغه "ان مصر مستعدة لأن تزيل القنال من الوجود

١) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية . ص ص ٦٧ - ٦٨
٢) د . لويس عوض : المرجع السابق ، ص ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
٣) د . سمير محمد طه : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

لكى تدفع الاعمال الحربية" ، ويؤكد الرد حياد القناة ، بل ونرى ديلسبس يحضر للقاهرة لمقابلة عرابى ويقسم على انه سيقوم بحراسة القناة ، وسيكفل حيادها . وهنا رفض عرابى سد القناة الا اذا أتى الجيش الانجليزى بعمل عدائى من ذلك الجانب وكان قد اعد كل شىء من الرجال والاجهزة لتدمير القناة فى ليلة واحدة بأمر المجلس العرفى .[1] لكن الانجليز جاءوا بليل من الاسكندرية وباسرع من احتياط عرابى .

من ناحية اخرى ، فقد ربط عرابى بين اغلاق القناة وبين أى بادرة اعتداء انجليزية من جهتها حتى لايغضب بقية الدول الاوربية التى كانت تعطف على الموقف المصرى أو على الاقل كانت تعارض انفراد انجلترا وحدها بمصر . والمتتبع لبعض الصحف الاوربية فى هذه الفترة يجد بعض العذر لعرابى الذى بنى حساباته على هذا الموقف الاوربى . فعلى سبيل المثال ، نشرت جريدة التيمس اللندنية مقالا تطالب فيه بأحتلال القاهرة ، فردت عليها احدى الجرائد الالمانية (كوستبونج) ردا غاية فى العنف قالت فيه : "لو فعلت انجلترا ذلك لعرضت نفسها لأشد الأخطار ، فليست أيامنا هذه كالأيام الماضية التى كانت أوربا تتحكم فيها انجلترا"[2] بل توفرت لعرابى سابقة ، حين تقدمت انجلترا وفرنسا بالمذكرة المشتركة ـ يناير ١٨٨٢ ـ حيث استاء ممثلوا المانيا والنمسا وايطاليا من المذكرة واعتبروها موجهة ضدهم ، بل وقابلوا شريف باشا وعبروا له عن سخطهم من انفراد انجلترا وفرنسا بالعمل فى مصر[3] .

ثم من يدرى عرابى بالتغيرات الحادة فى السياسة الأوربية ، وليس له قناصل لدى هذه الدول . من يدريه ان تكون السياسة الفرنسية ـ فيما يتعلق بمصر ـ فى ٣١ مايو ١٨٨٢ هى "صيانة استقلال مصر بحظر اقتراب مندوبى السلطان وقواته على السواء" بمعنى اخر من وجهة نظر فرنسا ان تنفرد انجلترا وفرنسا باحتلال مصر ، ثم لاتنفرد انجلترا بالغنيمة وحدها ، وهذا هو معنى ماقاله ديلسبس لعرابى من ان كل جندى انجليزى سوف يجد الى جانبه جنديا فرنسيا يمنعه من خرق حياد القناة .

هذه السياسة الفرنسية تغيرت فجأة فى اول **يونيو** ١٨٨٢ ، بعد ان اعلن رئيس الوزراء الجديد فى البرلمان "لن اشرح على هذا المنبر الطرق المختلفة التى يمكن ان تقودنا اليها الامور ـ فيما يتعلق بمصر ـ ولكن هناك طريقا واحدا استبعده ، وهذا هو طريق التدخل العسكرى الفرنسى" بمعنى اخر من وجهة نظر فرنسا ، التدخل العسكرى التركى مستبعد ، والتدخل الفرنسى مستبعد ، والتدخل الانجليزى المنفرد

---

١) د . لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

٢) رفعت السعيد (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

٣) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص ١٧٥

مستبعد ، فلم يبق الا تعليق الصراع ، ريثما تهتدى الدولتان أو الدول العظمى الى حل للمسألة المصرية .[1]

ومع هذا ، وأذا كنا لاندفع عن العرابيين تهمة التقصير ، خاصة وقد استعدوا بالفعل لاغلاق القناة مع اول بادرة انجليزية لأقتحامها ، فاننا نسأل سؤالا منطقيا ، أو على الاقل اجابته منطقية ، وهو هل اغلاق القناة كان سيمنع انجلترا من احتلال مصر ؟ بالطبع لا ، والا لقلنا ان "الحمل" يستطيع مواجهة "الذئب" ـ بله "الاسد الانجليزى" ـ بعد أن تهيأ بالفعل لأفتراسه ، بالهاء "الرعاة" الاوربيين عنه ، لو أوتى بعض الحكمة ، ولو أوتيها كلها الم يكن فى مصر من يدل الاسد عليه ، بل ويقدمه قربانا "لسيد الغابة" ؟

عموما ، وحتى لاتختفى بعض معالم الحقيقة وراء "الرمز" ، فقد اقتحم الانجليز قناة السويس ـ رغم احتجاجات ديلسبس ـ وكان على قادة الثورة العرابية ان ينشئوا على عجل الاستحكامات فى التل الكبير ، وقرر عرابى ان ينقل مقر قيادته من الجبهة الغربية أى منطقة كفر الدوار الى الجبهة الشرقية فى التل الكبير ، ومنذ ان استقر الجيش وقيادته فى التل الكبير ، اخذت البلاد ترسل اليه الات الحرب ثم توالى مجىء الجند من مشاة وفرسان ومدفعية ، وتنافس الجند والاهالى فى انشاء الحصون واقامة المتاريس .

وحدث أول التحام بين المصريين فى نفيشة ، التى لم تكن محصنة فسقطت فى يد الاعداء ، وقد سد العرابيون ترعة الاسماعيلية فى نقطة المجفر غربى الاسماعيلية ليمنعوا ورود المياه العذبة الى الجيش الانجليزى ، فهاجم الجنرال وولزلى المجفر واحتلها يوم ٢٤ اغسطس . وفى المسخوطة ، أبلى الجيش المصرى بلاء حسنا ، ولكن كثرة عدد الانجليز اضطره الى **الانسحاب** ، فاستولى الانجليز على المسخوطة ايضا ، وبعد ان استولى الانجليز على المحسمة والقصاصين ، اشتبكوا فى ١٤ سبتمبر مع الجيش المصرى فى موقعة التل الكبير[2] وهى الموقعة التى تنتهى بها معارك الثورة العرابية .

أتجه عرابى الى القاهرة ، ودعا المجلس العرفى للحضور وأخبرهم بالهزيمة واستقر الرأى على انشاء خط دفاعى فى ضواحى القاهرة ، وذهب عرابى مع بعض الضباط لاستعراض جنود مركز المدفعية ، فلم يجدوا الا ألفا من الخفراء بدون ضابط ، ونحو اربعين من الفرسان فى مركز الفرسان فعلم عرابى الا فائدة من الدفاع .. وأخبر المجلس بذلك .[3]

١) د . لويس عوض : المرجع السابق ، ص ٢٢٢

٢) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ، ص ٣٩٩

٣) د . سمير محمد طه : المرجع السابق ، ص ٣٣٤

وفى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، دخلت القوات الانجليزية القاهرة بدون مقاومة وسلم عرابى نفسه للقوات الانجليزية ، كما تم القبض على قادة الثورة ووضعوا فى اضيق السجون واصعبها ، كما امتلأت السجون بمن ناصر الثورة من العلماء والمديريين وعمد البلاد والاعيان والتجار[1] ، وبعد ان وضعت الحكومة يدها على معظم زعماء الثورة أصدر الخديو أمرا عاليا فى ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، بتشكيل "قومسيون" لتحقيق اقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان والتعدى على السلطة الخديوية ، سواء أكان مرتبكو هذه الجرائم مدنيين ام من العسكريين . وصدرت الأوامر بتقديم عرابى وزملائه للمحاكمة ، كما أصدر الخديو توفيق عدة أوامر بهدف القضاء على العسكرية المصرية وروح الجندية ، اهمها حل الجيش المصرى ، والغاء الرتب العسكرية المعطاة فى مدة الثورة ، كما أصدرت بعد ذلك أمرا عاليا بجواز التخلص من الخدمة العسكرية بدفع البدل النقدى ، وقيمته خمسون جنيها ، كما نص هذا القانون على استثناء العلماء والمدرسين والطلبة وحفظة القران الكريم ، وأئمة المساجد ورجال الدين والمثقفين من الخدمة العسكرية ، كما أصدر أوامر الى سائر المديرين بتسهيل عبور العساكر الانجليزية فى انحاء القرى والبلدان التابعة لمديرياتهم ، وتقديم كافة المساعدات لهم .[2]

هكذا انتهت احداث الثورة العرابية بالاحتلال الانجليزى لمصر . .

---

١) بلغ عدد المقبوض عليهم حوالى ٣٠ ٠٠٠ .

٢) د . عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية ، ص ص ٧٣ ـ ٧٤ .